

أمل

التاريخ . الثقافة . المجتمع

العدد 27 ○ السنة التاسعة ○ 2002

تصدر ثلاث مرات في السنة

ص . ب 14910
البريد المركزي البيضاء
الهاتف - فاكس:
022 -50-61-46
maarouf_dafali@yahoo.fr

ملف الصحافة : 8 ص 85
رندد 1113-7967
الایداع القانوني : 48 - 92

المدير، رئيس التحرير:
محمد معروف الدفالي

○ ○ ○

هيئة التحرير

محمد للفلاح الطوي
المختار عنقا الانريسي
بوشعيب اهلل
عبد العزيز باقية
نوال متزكي
محمد المؤيد

- السحب: مطبعة النجاح الجديدة 2003
- التوزيع : سابريس
- الأفكار الواردة في المواضيع تعبر عن آراء أصحابها
- المقالات المرسلة إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

**تم طبع هذا العدد بدعم
من وزارة الثقافة**

الأستاذ العميد محمد حجي في نعمة الله

يوم الخميس 30 يناير 2003، انتقل إلى عفو الله، الأستاذ العميد، الدكتور محمد حجي وورثي جثمانه الثرى يوم الجمعة، بمقبرة الأسرة (الزاوية الحجية) بسلا. وبهذا المصاب فقدت الجامعة المغربية عامة، وقسم التاريخ خاصة، أحد أعمدتها الكبرى، فقد كان الأستاذ محمد حجي رحمه الله بجمع بين الأستاذية، والبحث والتأطير، إضافة إلى الخصال الحميدة "خصال العلماء" التي يعرفها الجميع. أسس "مدرسة البحث" في تاريخ المغرب الحديث وأغنى انطلاقتها بمؤلفاته، وتحقيقاته، وتوجيه كرمهم من الباحثين للاهتمام بالمرحلة. وأسس "الجمعية المغربية للدراسات والتأليف والترجمة والنشر" التي اعتبرها، مثل "تحقيق المخطوطات" ضرورة من ضرورات الجامعة، ومركز أهدافها في تشجيع النشر على المستوى الجامعي، والتعريف بالانتاج المغربي بواسطة مجلة "الكتاب المغربي" وفي التعريف بالمغرب ماضيا وحاضرا، وضمن هذا المحور الثالث تبلور المشروع المتميز ذو الأهمية القصوى وهو إصدار "معلمة المغرب" التي وصل ما صدر منها لحد الآن ستة عشر مجلدا، وكان رحمه الله بجهد نفسه لإعداد وإصدار المجلدات الأربعة الباقية...

لقد كان المرحوم من العاطفين والمعاطفين مع مجلة "أمل" يسأل باستمرار عن مساهماتها، مقدرا - وهو الخبير بالميدان - ما يحتاجه العمل من جهد وصبر. وتقدير الجهود، وتعريفها، أجرينا معه حوارا، نشر سنة 1992 بالعدد الثاني من المجلة.

رحم الله الأستاذ محمد حجي، رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وأهمل ذويه، وأسرتة للصغيرة، والكبيرة، الصبر والسلوان.

وإنا لله وإنا إليه راجعون

محتوى العدد

5	تقديم	
9	البحث التاريخي المغربي الحديث: العهود القديمة	احمد سراج
23	الدراسات الأثرية المغربية ...	العربي النشوي
42	العصور القديمة في المنظومة التربوية	عمر علمي امراتي
54	دراسة التاريخ العربي القديم	علي العشاق
62	فسيفساء المغرب القديم	البيضاوية بلكمال
75	مساهمة الأعلاميات في معرفة تاريخ المغرب القديم	مصطفى الغيثي
82	البحث في التراث القديم	المصطفى مولاي رشيد
87	محاولة في رصد حصيلة الأبحاث الأثرية	محمد مجنوب
109	أدوات البحث في تاريخ المغرب القديم	حميد عرايشي
118	تاريخ البحث الأركيولوجي والتاريخي ...	أكراز-الخيارى
127	إشكالية صيانة وترميم اللقى الأثرية ...	زهراء قتيبة
137	معطيات عن حفريات بوليلي ...	حسن ليمان
150	حصيلة البحث الأثري في موقع بناصا	محمد العيوض
158	قراءة في أسباب وظروف اليقظة المورية	محمد اللبار
172	مساهمة في دراسة حالة السكان القدامى للمغرب ...	محمد رضوان العزيفي
206	Regard sur quelques chapiteaux de Banasa	عبد اللطيف خرباش
221	نص قرار بلدية سالا سنة 144 م	مصطفى أعشي
241	وثائق عرفية : منطقة داس ...	صفية العمراني
255	أهل فاس بعيون أندلسية	محمد ستيتو
276	البلديون الفاسيون ...	ع.العزیز بل الفایدة

تقديم

يعتبر البحث في التاريخ القديم من التخصصات التي ما فتئت تستقطب المزيد من الاهتمام. فمنذ أواخر الثمانينات من القرن العشرين بدأت الدراسات المغربية في هذا التخصص تزداد بشكل ملفت للنظر ولكنها عبارة عن مقالات وأبحاث لنيل شهادات جامعية من الجامعة المغربية أو من جامعات أجنبية. إن تركيز الإشارة على أواخر الثمانينات لا يعني سوى ضبط البدايات المباشرة للموضوع كمسألة جديدة في تاريخ المغرب والمغاربة أنفسهم. بمعنى آخر أن هذا التجديد لن ينسينا المبادرات المغربية السابقة والجريئة كما أنه لن يمنعنا من الرجوع للحقب والفترات السابقة قصد التقصي لأن في ضبط التحولات استشراف المستقبل.

من هنا جاء التفكير في ضرورة تنظيم يوم دراسي حول التاريخ القديم من طرف الجمعية المغربية للبحث التاريخي. وليس غريبا أن تتولى الجمعية الأمر وتتحمل المسؤولية في التأطير والتنظيم وهي التي راکمت من قبل ملفات هامة حول قضايا تاريخية مختلفة، ومنها الملف حول ثلاثون سنة من البحث التاريخي" الذي نظمته سنة 1989، والذي لم يشر فيه للتاريخ القديم إلا لماما.

توخت الجمعية من خلال هذا اليوم ضبط الحصيلة ورصد الآفاق وجاء الملف الجديد كتكملة وتعميق للمرحلة القديمة التي لم تكن حينها قد شغلت إلا حيزا

ضيقاً من الملف السالف الذكر، بل شكل طفرة نوعية من حيث نوعية العروض، وعدد المشاركين.

أجل، كانت استجابة الباحثين للدعوة أشبه بالإجماع. لقد التقى يوم 18 ماي 2001 ثلثة من الأساتذة الكرام نوي اختصاصات علمية مختلفة وينتمون إلى عدة جامعات ومعاهد قاسمهم المشترك هو الاهتمام بالتاريخ القديم. ولليوم دلالاته عند الأثري فهو اليوم العالمي للمتاحف.

غطت المداخلات المرحلة الممتدة من العصور القديمة إلى العصر الوندالي المتأخر مع الاعتماد في الجرد على المصدرين معا الأبي والأثري، بل تم التركيز على الآثار بشكل أكبر مما شكل حصيلة جادة وجديدة أقل ما يقال عنها أنها بمثابة مفتاح لأبحاث مستقبلية حول إحدى الإشكاليات التي طرحت إذ أن كل مقال يستحق في الحقيقة أن يكون موضوع ندوة.

بالفعل، إن مواضيع اليوم الدراسي هي مواضيع متشعبة وفسيفسائية فبقدر ما نريد أن نتذكر، نريد أن نفهم قضايا ومشاكل التخصص على عدة مستويات وفي مجالات مختلفة. من هنا وزعت المداخلات عبر جلستين:

— جلسة أولى خصصت لتدارس إشكالية البحث في التاريخ القديم: قضاياها وآفاقه.

— جلسة ثانية همت الحفريات والإنتاج في التاريخ القديم.

وباستعراض المداخلات يتضح جدوى هذا اللقاء، فالدعوة لتحديد المفاهيم تكررت من خلال أكثر من مداخلة، ورصد نشأة وتطور البحث التاريخي الخاص بالقديم ظهر كأمر ملح، والكتاب المدرسي: مجالاته وحدوده ينعكس بالسلب والإيجاب على مستوى التلقي في رحاب الجامعة، الرغبة في التعاون بين المتخصصين بغض النظر عن جنسياتهم لها ما يبررها في عصر القرية العالمية. وإعادة الاعتبار لمنطقة كفحص طنجة ولشعب كالشعب الموري يعطي للبلاد بكامله الحق في الاهتمام بهويته ثم بإسهاماته في الحلقة التاريخية.

ثم إن تدبير موقع كوليلي هو أساس التنمية المندمجة والمتكاملة.

هذا ولم تغفل بعض المداخلات التنبيه لخطر البحث الأثري كسيف نو حدين فقد استغلته الحماية من قبل لتمرير خطابات إيديولوجية بات من الضروري تجاوزها. ولن يتأتى ذلك إلا عبر الاهتمام بأداة العمل...
لن يجدي الأمر نفعا حصر الجهود في إطار ومجالات ضيقة. فالرغبة أكيدة لتوسيع آفاق البحث. قبل ذلك لنتدارك أمر غياب الكتابة التاريخية الشاملة الخاصة بالعصور القديمة ما دام البحث الأثري المتعلق بالمغرب القديم أصبح متطورا بالقدر الذي سمح بعقد مثل هذا اليوم الذي إن لم نقل فيه كل شيء فلأن كل مداخلة تستحق أن تكون موضوع ندوة قائمة الذات.
فهنيئاً لنا كمهتمين بتاريخ وآثار المغرب القديم بهذا المكسب الجديد فالاهتمام بهذه المرحلة هي التفاتة نكية من شأنها أن تعيد التوازن إلى الكتابة التاريخية التي عانت منذ وقت طويل من القصور وإجحاف الماضي الذي بات فهمه أساسياً لفهم الحاضر واستشراف المستقبل.

منسقا الندوة : البيضاوية بلكامل

و عبد العزيز بل الفايذة

ملف العدد

واقع البحث التاريخي والأثري حول المغرب القديم

أبحاث قدمت في يوم دراسي من تنظيم
الجمعية المغربية للبحث التاريخي

البحث التاريخي المغربي الحديث العهد القديمة

أحمد سراج•

إن الحديث عن البحث التاريخي المغربي المرتبط بالعهد القديمة خلال النصف الثاني من القرن الذي نودعه يستلزم بالضرورة استعراض الأشواط التي قطعها هذا الجانب من النشاط العلمي وتحديد السمات الأساسية التي ميزت نشأته وتطوره خلال القرن العشرين. إن مشروعية ذلك تبررها صعوبة تناول الموضوع وذلك في غياب دراسة بيبليوغرافية شاملة⁽¹⁾ عن حصيلة البحوث في العهد المغربية القديمة. وقبل ذلك، نرى أنه من المفيد تحديد بعض المفاهيم التي بإمكانها إزاحة ما قد يشوب الموضوع من غموض:

ماذا نقصد بـ البحث التاريخي؟ هل يتعلق الأمر بالبحث الذي يعتمد المصادر المكتوبة فقط أم ذلك الذي يدرج ضمن مواد العناصر المادية التي تسفر عنها البحوث الأثرية؟ إن البحث في تاريخ العهد القديمة لم يخلف لنا مادة أدبية

كافية لفهم تطورها التاريخي. فأشكال التعبير الإنساني كانت تتخذ أشكالاً مختلفاً لدى الإنسان القديم، وهي الأشكال التي يجب أن يعتمد عليها كل بحث تاريخي. لذلك اعتبر فريق من المؤرخين أن معطيات علم الآثار والدراسات اللصيقة به هي مرتبطة أشد الارتباط بالتاريخ القديم. ولذلك أيضاً اعتبر مؤرخو الفترات القديمة علم الآثار علماً مساعداً للتاريخ رغم بعض الآراء التي ترى فيه علماً مستقلاً بذاته. وبالنسبة لموضوعنا لا يمكن أن نقدم حصيلة البحث في تاريخ العهود القديمة بالمغرب دون إدراج حصيلة البحوث الأثرية التي ارتبطت نشأتها وتطورها بدراسة عهود ما قبل الإسلام.

ماذا نقصد بالبحث التاريخي المغربي؟ هل يتعلق الأمر بالبحوث التي أنجزها باحثون مغاربة، أم بالبحوث التي تعلق بالمغرب سواء كان أصحابها مغاربة أم أجنبياً؟ الواقع أن البحث في تاريخ العهود القديمة بالمغرب ظل إلى عهد قريب حكراً على مختصين أجنبياً كما هو الشأن في باقي دول المغرب العربي. وإذا كان النصف الثاني من القرن العشرين قد تميز بطرق الباحثين المغاربة لهذا الميدان فإن عدداً من البحوث والدراسات التي أجريت قد تولاها باحثون أجنبياً. لذلك فإننا عمدنا إلى عدم أخذ جنسيات الباحثين بعين الاعتبار بقدر ما اعتمدنا على إبراز حصيلة البحوث المنجزة. ما يبرر ذلك هو أنه منذ نهاية السبعينيات، جل الفرق التي اشتغلت في إطار مشاريع بحوث هي فرق مشتركة (مغربية أجنبية)، وأنه قبل هذا التاريخ بقليل خضع البحث الأثري في العهود القديمة لتوجيه صارم من قبل مغاربة كانوا على رأس المصالح المختصة في حياة الآثار.

ما المقصود بالبحث المغربي الحديث؟

ذلك أن كلمة الحديث لا تستقي مدلولها لذاتها وإنما من الشحنة الزمنية التي نضمنها إياها. فكان لابد من اختيار معيار للفترة الزمنية التي نود أن نكرس لها

الحصيلة التي نحن بصدها. وقد توقف اختيارنا على 1956، سنة حصول المغرب على استقلاله، كبداية للحصيلة التي نحن بصدها.

وأخيرا، ما نقصد بالعقود القديمة؟

يتعلق الأمر بمصطلح لا يحمل تدقيقا كرونولوجيا محددًا، فكل عهد هو قديم بالنسبة لعهد آخر أحدث منه زمنيا. غير أن المصطلح يجد أصوله في التقسيم الذي كرسته المدرسة الاستعمارية لتاريخ شمال إفريقيا انطلاقا من إسقاط التقسيم الذي تم تبنيه لتاريخ الغرب: فترة قديمة Antiquité، وعصر وسيط، وعصر حديث، وفترة معاصرة. وكانت الحدود الكرونولوجية التي فرضت على هذا التقسيم تقارب الحدود الكرونولوجية للتقسيم الأوروبي. وهكذا اختزلت العهود القديمة بالمغرب في الفترة السابقة لدخول الإسلام أي من الفترة الفينيقية إلى الفتح الإسلامي. ورغم ما يحمله هذا التحقيب من خلفيات، فإنه ظل طاغيا على بنية التخصصات والكتابات التاريخية بالمغرب إلى الآن رغم بعض الأصوات التي تعالت مؤخرا مطالبة بإعادة النظر فيه. ودون الدخول في نقاش قد يشغلنا عن المقصود من هذه المداخلة، ننبه فقط إلى أن المضمون الكرونولوجي الذي نحمله لمصطلح العهود القديمة ينطبق على المجال الزمني الممتد من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد.

أصول وخلفيات

تعود بداية الاهتمام بالفترة القديمة من تاريخ المغرب إلى القرنين السابع والثامن عشر مع وصول بعض الرحالة والمستكشفين بل وحتى بعض السفارات والأسرى الغربيين إلى البلاد. فوجود بعض الآثار الرومانية البينة في شمال المغرب كان يدعوهم إلى استحضار إمبراطورية روما وتاريخها التليد ومحاولة البحث عن أسرارها في تلك القطر الذي شكل في مرحلة من مراحل تاريخه إحدى ولايات هذه الإمبراطورية. ولقد ازداد هذا الاهتمام خلال القرن التاسع عشر مع ازدياد أعداد هؤلاء الرحالة طبعًا، ولكن بالخصوص مع ازدياد الأطماع

الاستعمارية الأوروبية في الشمال الإفريقي خاصة بعد سنة 1830، سنة احتلال الجزائر من طرف فرنسا، والتي تشكل بداية المد الاستعماري الفعلي في المنطقة. لذلك كانت أصول البحوث التاريخية حول المغرب القديم مرتبطة أشد الارتباط بالبنى الثقافية التي واكبت الحركة الاستعمارية بل وهبأت لها المجال باعتبارها وسيلة إيديولوجية تسعى إلى استحضار الماضي الروماني الذي وجد فيه المستعمر مرجعيته السياسية والعسكرية والثقافية.

يعتبر شارل تيسو بحق أول من قدم مقارنة لتاريخ المغرب القديم وآثاره خصوصا منه الفترة الرومانية - باستخدام المصادر الإغريقية واللاتينية وباللجوء إلى مراجعة المواقع الأثرية. لقد عين هذا الدبلوماسي وزيرا مفوضا بطنجة خلال الفترة الممتدة بين 1871 و 1876. وكان ضليعا باللغة الإغريقية واللاتينية، وبتاريخ إمبراطورية روما. ولقد استغل سنوات وجوده بالمغرب للقيام ببحوث دقيقة أسفرت عن كتاب بعنوان: "بحوث حول الجغرافيا المقارنة لموريطانيا الطنجية" الذي نشره المعهد الفرنسي سنة 1878⁽²⁾. لقد ظل هذا البحث على الرغم من عمره المتقادم، مرجعا أساسيا يستعمله كل المهتمين بتاريخ المغرب القديم، بل إنه شكل محطة جوهرية في التطور الذي سيعرفه البحث حول تاريخ هذه الفترة مستقبلا.

أ - الحماية والاهتمام بالبحث في الفترة الرومانية

ومباشرة بعد تيسو، في وقت كان فيه المغرب يقترب أكثر فأكثر من دائرة الاستعمار الفرنسي، لوحظ اهتمام رائد بالبحث في تاريخ وآثار المغرب القديم من طرف السلطات الفرنسية. لنشر على سبيل المثال إلى أن وزارة التعليم العمومي هي التي كلفت هنري دولامارتينيير بمهام أثرية بالمغرب في بداية القرن نشرت تقاريرها في مجلة الأعمال التاريخية والعلمية⁽³⁾. لنلاحظ أيضا أن سنة 1904 التي تطابق احتلال الجنرال ليوطي لعين بني مطهر بالمغرب الشرقي والتي تطابق أيضا توقيع اتفاقية فرنسا مع إنجلترا تقضي بتخلي فرنسا عن أطماعها بمصر مقابل تخلي إنجلترا لها عن المغرب، هي أيضا سنة صدور أول عدد من مجلة "وثائق مغربية"

«والذي خصص لجغرافية المغرب في العهد القديمة (5). تزامن هذه الوقائع كلها لا يمكن أن يفسر بعامل الصدفة وحده. أضف إلى ذلك أن سنة 1912 التي وُقِّعَ فيها عقد الحماية هي أيضاً سنة نشر أول دراسة تمهيدية عن تاريخ المغرب في العهد القديمة (6).

وانطلاقاً من هذه الفترة أصبح تاريخ وآثار المغرب القديم - وخصوصاً تاريخ وآثار العهد الروماني - أحد أهم قطاعات البحث التي توليها الإقامة العامة عناية خاصة. ولاشك أن العديد من التقارير التي كانت تقوم بها المصالح العسكرية حول المواقع الأثرية القديمة (7) تدل على أن النهضة التي عرفها البحث في هذه العهود القديمة ظل مرتبطاً بالبنى الثقافية الهيكلية التي واكبت إقرار نظام الحماية بالمغرب. وقد عرفت السنوات الأولى للحماية إنشاء مصلحة خاصة (8) لمتابعة شؤون البحث في التاريخ والآثار القديمين، كما تم خلق مجلة خاصة تعنى بنشر نتائج البحوث في هذا الميدان (9). ونفس التطور عرفته مناطق الشمال التي كانت تخضع للاحتلال الإسباني. وتبعاً لذلك كله عرفت سنوات الحماية نشاطاً كبيراً في ميدان البحث في تاريخ هذه الفترة، حفرت خلاله العديد من المواقع الأثرية كويلي وبناسا، وتاموسيدا، وليكسوس، وتمودا... وأنشئت المتاحف التي تختزن اللقى والتحف الفنية.

ب - بعد الاستقلال

كان على المغرب بعد 1956 (سنة الحصول على الاستقلال) أن يقوم بجهد أكبر من أجل التخلص من شوائب الاستعمار. وكان عليه بالطبع أن يهتم ضمن ما سيهتم به، إعادة هيكلة قطاع البحث فتم إنشاء جامعة محمد الخامس بالرباط أما على مستوى المؤسسات التي كانت تختص بالبحث في تاريخ وآثار المغرب القديم السالف ذكرها والتي خلفها الاستعمار، فيمكن ملاحظة تغييرين هيكليين انطلاقاً من:

- استبدال مصلحة الأقدميات المغربية بمصلحة الآثار المغربية

— خلق النشرة الأثرية المغربية التي عوضت منشورات مصلحة الأقدميات السابقة.

وإذا كان لهذين التغيرين مدلولهما العميق الذي يعكس الرغبة في تجاوز البعد الإيديولوجي الذي كان لتاريخ الفترة والذي يجسد الرغبة في توسيع دائرة البحث الأثري لتشمل الفترة الإسلامية أيضا، فإن العقود الأولى من الاستقلال عرفت استمرارية في أنماط البحث لا من حيث القضايا المطروحة ولا من حيث المناهج المتبعة بالإضافة إلى ان الباحثين ظلوا ينتمون إلى نفس الجنسيات، أي البلدين المستعمرين. ومع ذلك بدأنا نلاحظ قلة قليلة من المغاربة يتجهون نحو الاهتمام بهذا الميدان ويحاولون التخصص في تقنياته ومناهجه. ولقد ساعد على ذلك إجماع مواد التاريخ القديم عموما وتاريخ المغرب القديم على الخصوص ضمن برامج الجامعة المغربية التربوية في قسم التاريخ.

وفي منتصف الثمانينيات (1985) عرف البحث في العهود القديمة من تاريخ المغرب تحولا جديدا، مع التغيير الذي ستعرفه مصلحة الآثار، إذ سيتم التخلي عن هذه الهيئة الإدارية التي كانت مهمتها تتلخص في تسيير شؤون البحث في المآثر والمواقع الأثرية وتعويضها بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث الذي ظل تحت وصاية وزارة الشؤون الثقافية والذي كان من بين أهدافه الرئيسية مغربة قطاع البحث الأثري وذلك بتكوين فرق بحث في مختلف التخصصات. فكان أن تم توزيع التكوين على أقسام:

- ما قبل التاريخ.
- آثار ما قبل الإسلام.
- الآثار الإسلامية.
- التحافة.
- المباني التاريخية.
- الأنثروبولوجيا.

وقد ساهم في عملية التكوين عدد من الأطر الشابة من خريجي الجامعات الأجنبية وأيضاً أطر علمية وتربوية من مختلف الجامعات المغربية. وتمكن المعهد بذلك من تخريج عدد من الأفواج تجاوز عدد أفرادها اليوم 200 حامل لدبلوم المعهد، جلهم موزعون على مختلف مصالح وزارة الشؤون الثقافية عبر تراب المملكة، وبعضهم تمكن من استكمال دراساته العليا في الجامعات الأوروبية أو الأمريكية. وكان فريق من هؤلاء الباحثين متخصصاً في دراسة العهد القديمة، وهو ما أدى إلى خلق العديد من برامج البحث الأثري وإعطاء نفس جديد للبحث حول تاريخ الفترات القديمة باعتبار ان تقدم هذا الأخير مرتبط أشد الارتباط بالمستجدات التي يمكن أن توفرها نتائج الحفريات. ومن نتائج ذلك كله أننا أصبحنا نرى اليوم إرهاصات أولى لما يمكن أن نسميه مدرسة مغربية في التاريخ القديم مع ما يعنيه ذلك من إعادة نظر في القضايا المطروحة وفي المناهج المتبعة. ولكي يتم ملء الفراغ الحاصل في التكوين العالي بالجامعة المغربية سعت بعض كليات الآداب إلى خلق وحدات للتكوين والبحث في تاريخ وآثار المغرب القديم تمنح الفرصة للراغبين في التخصص في هذا المجال عبر إعداد شهادة الدراسات المعمقة أو الدكتوراه كما هو الشأن بجامعة محمد الخامس بالرباط.

أهم القضايا المعالجة

التاريخ السياسي والعسكري لموريطانيا قبل وأثناء فترة الاحتلال الروماني:
لقد اهتم البحث التاريخي بالممالك البربرية خاصة منها مملكة يوبا الثاني الذي عرف المغرب في عهده ازدهاراً كبيراً. وقد انصب الاهتمام على دراسة الجوانب السياسية والحضارية في الممالك البربرية مع إعطاء الأولوية للبحث في نوعية العلاقات التي كانت تجمعها بقرطاج وخاصة بروما التي أخذت تفرض هيمنتها على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

كان التاريخ السياسي والعسكري لموريطانيا الطنجية من أهم المحاور التي حظيت وما زالت تحظى باهتمام البحث التاريخي. لقد تركز هذا الأخير بصفة

خاصة على تحديد المجال الترابي الذي خضع للإدارة الرومانية في المغرب، وخاصة حول "الليميس" (الحدود) بين تراب الولاية الخاضعة للإدارة المباشرة لروما وبين القبائل المغربية في الجنوب والشرق، وحول العلاقات والصلات البرية مع ولاية موريطانيا القيصرية (القسم الغربي من الجزائر الحالية) وولاية بيتكا في الشمال (القسم الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبيرية). كما تم الاهتمام بالنظام العسكري الذي خضعت له الولاية مع التركيز على تحديد هوية الوحدات العسكرية المقيمة بها انطلاقا من دراسة الشواهد العسكرية المنقوشة والنقائش الجنائزية، والثورات التي قامت بها القبائل وردود الفعل العسكرية.

الجغرافيا التاريخية وال عمران الحضري والإقتصاد

جانب آخر حظي بقسط وافر من الجهود التي كرست لتاريخ العهود القديمة هو ذلك الذي اهتم بتحليل النصوص التاريخية القديمة، أنبية كانت أم تاريخية أم جغرافية، لرسم خريطة واضحة لمعالم المغرب الطبيعية والبشرية والعمرانية خلال الحقبة. وموازية مع ذلك تم الاهتمام أيضا بعمليات الاستكشاف الميداني لتحديد المواقع التي ورد ذكرها في المصادر ورسم خطوط الطرق البرية ودراسة نظم التحكم في المجال.

وقد حرص البحث على دراسة بقايا المراكز الحضرية والتقيب في بنياتها السفلية بهدف فهم التطورات التي حصلت فيها. وانصبت معظم البحوث على المواقع الأثرية الكبرى كويلي وبناصا في وسط المغرب وليكسوس وتمودا في شماله. وقد حظيت ويلي بنصيب الأسد ضمن هذه الجهود نظرا لضخامة وأهمية بقاياها الأثرية، ونظرا لكونها شكلت مركزا رئيسا في ولاية مويطانيا الطنجية. ومنذ الستينيات، اتجه البحث الأثري نحو إصدار أطالس تضم مختلف المواقع الأثرية مهما كان نوعها وحجمها حول المراكز الحضرية الكبرى. وقد شكل ذلك بداية للبحث في نظم الاستقرار بالبوادي، ونظم الدفاع العسكري من خلال دراسة الأبراج والقلاع العسكرية.

إن نظرة إلى البيبليوغرافيا المغربية في هذا الصدد تعكس مدى تعدد الأبحاث التي اهتمت بهذه الجوانب وهي بحوث تعتمد بشكل خاص على معطيات المسح الميداني والحفريات الأثرية.

وقد سعى البحث التاريخي والأثري أيضا إلى اكتشاف مظاهر النشاط الإقتصادي بالمغرب القديم من خلال رسم خرائط لثرواته الطبيعية، والبحث في تقنيات النشاط الصناعي خصوصا صناعة تصبير السمك التي اشتهرت في شمال المغرب والتي لا زالت آثار بنيات مصانعها واضحة المعالم في ليكسوس وتاهدارت وكوتا بالقرب من طنجة. كما تم الاهتمام بدراسة التداول النقدي وطرق التجارة...

التفاعلات البشرية والتأثيرات الحضارية

عمد البحث التاريخي الحديث إلى الاهتمام بساكنة المغرب القديم في محاولة لإبراز بعض مظاهر تاريخ هذه الفترة بالاعتماد على معطيات محلية عوض اللجوء إلى المعلومات التي توردها النصوص اللاتينية والإغريقية والتي تنقل صورا هي نتيجة لمواقف ثقافية للحضارة المسيطرة آنئذ. غير أن هذا التوجه في البحث يعاني من قلة المصادر الأهلية بالنظر إلى غياب الكتابة الأبية لدى مغاربة تلك الفترة وقلة المصادر المادية والمنقوشة القابلة للاستقراء.

لقد اتجه البحث لدراسة معالم الوجود والتأثير الفينيقي والقرطاجي بالسواحل المغربية، وتميزت بهذا الخصوص الدراسات التي أنجزت حول موقع ليكسوس وموغادور (جزيرة الصويرة الحالية) وبعض المواقع والمقابر بضواحي طنجة، ومواقع أخرى بالقرب من تطوان. ورغم التقدم الحاصل في النتائج، فإن تاريخ هذه الفترة ما زال يشوبه الغموض، خصوصا ما يتعلق بالفترة الممتدة من القرن الحادي عشر قبل الميلاد - الذي تؤرخ به النصوص إنشاء مركز ليكسوس - والقرن الثالث قبل الميلاد، الذي يجسد بداية التاريخ - وليس التاريخ - للممالك البربرية بالشمال الإفريقي. ومن أهم المعطيات الحديثة في هذا الشأن اكتشاف موقع

بضواحي مدينة القصر الكبير يؤكد أن التأثيرات الفينيقية والقرطاجية لم تقتصر على السواحل فقط كما ساد الاعتقاد سابقا بل تجاوزتها إلى الداخل⁽¹⁰⁾.

ومن المواضيع التي حظيت ولا زالت باهتمام البحث التاريخي في هذا المجال الدراسات المرتبطة بالفن القديم عموما، سواء تعلق الأمر بالمعمار أو الفسيفساء أو النحت... وقد اتجهت العديد من الجهود نحو دراسة الخزف نظرا لما له من أهمية في تأريخ المواقع، وتحديد نوعية العلاقات التجارية التي جمعت المغرب القديم بغيره من المراكز الحضارية المتوسطية.

العهود القديمة المتأخرة أو الفترة الغامضة:

منذ نهاية القرن الثالث الميلادي الذي عرف تراجع السلطة الرومانية بالمغرب وإلى حدود القرن الثامن الميلادي دخل المغرب فترة يكاد المؤرخون يجهلون عنها كل شيء. إن غياب المصادر وقلة المعطيات الأثرية جعلت من هذه الفترة التي دامت أربعة قرون والتي توأكب فترة الانتقال إلى التاريخ الإسلامي فترة غامضة في تاريخ المغرب. وإذا كان البحث التاريخي لم يول عناية تذكر لدراساتها في السابق، فإنها أصبحت الآن تشكل إحدى الأولويات العلمية نظرا لكون البحث في هذه الفترة سيمكن من إبراز بعض المظاهر التاريخية للمجتمع المغربي وتنظيماته في المرحلة التي تلت خروج الرومان من المغرب (القرون 4 - 5 - 6) كما سيكشف النقاب عن ميكانزمات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأقصى بل وسيساعد على فهم جيد لبنيات المجتمع الإسلامي الذي أرسيت دعائمه مع قيام دولة الأدارسة.

خاتمة

حصيلة كهذه تبين مدى التطور الذي عرفه البحث التاريخي حول العهود القديمة بالمغرب والذي تمكن من أن يصبح تيارا علميا قائما بذاته في الوسط الأكاديمي الوطني. ومع ذلك ما يزال هذا الميدان بحاجة إلى ممارسة أكبر وأعمق بهدف تنمية هذا القطاع وجعله أكثر تجاوبا مع طموح الباحثين.

ويمكن اختزال العقبات والمشاكل التي تعترض سبل البحث في هذا القطاع في النقاط التالية :

- استمرار ما يشبه القطيعة بينه وبين قطاعات البحث التاريخي الأخرى بشكل يجعل التواصل بين مؤرخي العهود القديمة ومؤرخي العهود الأخرى شبه منعدم. لقد كرس ذلك انعزالا ملاحظا لمؤرخ الفترة القديمة زاد من شدته عدم محاولة هذا الأخير الربط بين اهتماماته ونتائج بحوثه وبين القضايا التي تهتم بها القطاعات الأخرى. وقد ظهر منذ فترة توجه جديد يحاول الربط بين معارف التاريخ القديم وبين ميكانزمات المرور إلى العصر الوسيط غير أن هذا الاتجاه ظل خجولا إلى حد الآن رغم أهمية النتائج والخلاصات التي توصل إليها.

- من حيث المناهج ظل البحث التاريخي حول العهود القديمة مرتبطا لفترة من الزمن بالتاريخ الحديث والعسكري، وتأثر أيضا بموجة التاريخ الوطني كباقي القطاعات. لكنه لم يحاول إلى عهد قريب التخلص من الإشكاليات القديمة والانفتاح على مواضيع جديدة.

- من حيث الأسس المعرفية انعدام أو ضعف بعض التخصصات اللازمة للدراسة. ذلك أن التاريخ القديم لا يمكنه أن يعتمد على نوع واحد من المصادر كما سبق ونبهنا إلى ذلك في بداية هذا العرض. وبفعل ظاهرة تجزؤ العلوم وانقسامها أصبحت جملة المعارف التي "تمون" مصادر التاريخ القديم في المغرب أو في غيره من الأقطار بحاجة إلى جملة من التخصصات الدقيقة التي تحتاج إلى تكوين خاص. فنحن بحاجة إلى مزيد من علماء النقائش، ومن علماء النقود، والخبراء في دراسة الفسيفساء، وعلماء الخزف... كما نحتاج إلى المختصين في اللغات القديمة خصوصا منها الليبية والإغريقية واللاتينية.

- ولقد سبق أن وجهت الدعوة في الماضي إلى العمل بجديّة على نبذ الاختلالات التي يعاني منها البحث في تاريخ المغرب القديم سواء على المستوى

الزمني أو المجالي، فلو استعرضنا حصيلة ما أنجزه المؤرخون حول الفترة القديمة لوجدنا أن جل البحوث إن لم أقل كلها اهتمت بالخصوص بدراسة المغرب خلال العهد الروماني أو بالمغرب كمجال مندرج في دائرة التأثير الفينيقي أو البونني. إن دواعي هذا "الانزواء المعرفي" تكمن في كون المغرب - كما هو حال العديد من مناطق المتوسط الغربي - ظلت مصادر تاريخه القديم خارجية (إغريقية أو لاتينية) من جهة، ومن جهة أخرى فإن التطور المتأخر نسبيا لهذا القطاع عندنا جعلنا نفتقر إلى عناصر استدلال في البحوث الميدانية التي تقدم مصادر هامة وأساسية مرتبطة بالحضارات المحلية التي عرفتها المنطقة. وهي عناصر تحتاج بالطبع إلى تراكم معرفي يتطلب فترات زمنية طويلة. هذا من جملة الأسباب التي جعلت البحث في تاريخ المغرب القديم يتركز أساسا على المناطق التي تضم عناصر الاستدلال الرومانية أو الفينيقية أو البونية. غير أن عيب هذا التركيز كونه يكرس تهميش تواريخ قديمة أخرى" هي تلك التي نلاحظ وجودها المبهم في جل مناطق المغرب باعتبار أن وجود الحضارات الأجنبية اقتصر على شمال غرب المغرب وبعض النقاط البحرية. فالجماعات المحلية ظلت غائبة عن اهتمام التاريخ القديم.

• اللغة التي يتعامل بها مؤرخ هذه الفترة تشكل أيضا إحدى نقائص الوضع الحالي للقطاع الذي ظل يعتمد اللغة الفرنسية بالخصوص. هذا لا يعني انعدام جهود مشكورة سعت إلى تعريبه. ومع ذلك ظلت جل البحوث تتجزأ باللغة الفرنسية بل وحتى التكوين الذي يقترحه المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث هو تكوين مزدوج مواده التقنية تدرس باللغة الفرنسية. إن من أسباب هذا الوضع أن جل الباحثين والأساتذة قد تلقوا تكوينهم في فرنسا من جهة، ومن جهة ثانية انعدام وجود قاموس أثري متجدد يوضع رهن إشارة الباحثين ويشكل أداة عمل مساعدة على تعريب البحث والتكوين في هذا القطاع. ويبدو أن هذا القاموس قد أصبح اليوم مشروعاً يشرف على إنجازه معهد التعريب ومديرية التراث الثقافي.

تلك إنن بعض المشاكل التي تعترض سبيل تنمية قطاع البحث في تاريخ المغرب القديم. غير أن هذه المشاكل لا تعدو أن تكون ظرفية لأننا نعتبر أن أهم الأشواط قد تم قطعها. أقصد بذلك أن المتأمل في تطور البحث التاريخي حول العهود القديمة سيلاحظ ولاشك أن العزلة التي عانى منها ترجع أساسا إلى كونه كان يفتقد إلى مرجعية ثقافية تربطه بقضايا واهتمامات مؤرخ المجتمع المغربي كما نتصوره اليوم. فالحديث عن المغرب كجزء من حضارة روما أو حضارة الفينيقيين يبدو للعديد من الباحثين حديثا هامشيا.

اليوم وقد تمت مغربة هذا القطاع، وبعد أن أخذت بعض الدوائر الجامعية (مجموعات ومراكز البحث) تخطو خطوات نحو إرساء مناهج بحث جديد، وطرح إشكاليات جديدة، واقتراح مشاريع بحوث تعتمد على دراسة المظاهر الحضارية في تطورها الزمني عوض الاقتصار على الظواهر الحديثة، أو المحدودة زمنيا، يبدو ان البحث في تاريخ العهود المغربية القديمة قد شرع في تجاوز العقبات التي ذكرتها سابقا، خاصة وأن مشروع الإصلاح الجامعي المرتقب يعد بوضع الأدوات والآليات اللازمة لذلك.

الموامش:

وهي ملاحظة تنطبق أيضا على البحث الأثري المرتبط بنفس الفترة، يمكن مع ذلك الإشارة إلى أطروحة نوقشت بجامعة السربون في بداية العقد الذي نودعه والتي اهتم صاحبها ببداية الاستكشافات الأثرية في شمال إفريقيا: A. Arlmand-Portelli, *L'exploration archéologique de l'Afrique du Nord, des premiers voyageurs au XVIII^e. à l'indépendance des nations*, thèse dactyl., Paris IV, 1991. كما يمكن مراجعة: مقدون محمد: البحث التاريخي الأثري حول المغرب القديم ما بين السنتين 1956 و1990، بحوث، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، العدد 6، 1996، ص. 183 — 197 وأيضا:

SIRAJ A., De la pré archéologie à l'archéologie du Maroc (communication à paraître dans les actes de *l'Africa Romana* n° 13) .

- Tissot Ch., Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, dans Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1ère, XI, Paris, 1877, p. 139-322 + 6 pl h. t. — (2)
- Bulletin du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques. — (3)
- Archives Marocaines. — (4)
- Besnier M., « Géographie ancienne du Maroc (Maurétanie Tingiytane) », dans Arch. Mar., 1904, p. 301-365 + I carte h. t. — (5)
- La Martinière de, « Esquisse de l'histoire du Maroc avant l'arrivée des Arabes », dans *B.C.T.H.*, 1912, p. 142-184. — (6)
- Brouquier Rédéé V., « Les brigades topographiques au Maroc (paline du Gharb et région de Volubilis) », dans *Africa Romana*, XIII Djerba (sous presse). — (7)
- Service des Antiquités du Maroc. — (8)
- Publication du service des antiquités du Maroc: PSAM. — (9)
- Akerraz A., et A. El-Khayyari, « Nouvelles découvertes dans le أنظر حول تلك: bassin du Loukkos », *Africa Romana*, XIII, Djerba 10-13 décembre 1998. — (10)

الدراسات الأثرية المغربية: استمرارية أم قطيعة مع الطرم الاستعماري؟

العربي النشوي*

مقاربة الدراسات الأثرية بالمغرب تقتضي بالدرجة الأولى الوقوف عند العناصر الأساسية المحددة والمكونة لعلم الآثار نفسه: في نشأته وتطوره، وفي خلفياته وأهدافه، وفي مواضيعه وإشكالياته، وفي أسسه ومناهجه. وكما قال الفيلسوف وعالم الآثار "كولانغود": "يجب أن لا تعالج أية إشكالية تاريخية إلا بعد دراسة تاريخ التفكير التاريخي الذي دار حولها"، (كولانغود، 1992: 14؛ اترينغر، 1992: 14).

بعجالة شديدة، علم الآثار فرع من فروع المعرفة الحديثة المتجددة التي أفرزها تطور المجتمعات الغربية المصنعة، له ارتباط وثيق بالنهضة العلمية وما صاحبها من تحولات كبرى جعلت من التاريخ والتراث المادي (الآثار) نقطة انطلاقها ومشعلا أنارت به طريقها نحو التقدم والتمكين وعملا أيقظت به شعوبها وأهمتها روحيا وفكريا لتكون في مستوى استيعاب رسالة التغيير والنهوض، وكان بها أرادت أن تحيي إرثا وتقليدا حضاريا على غاية من الرقي والازدهار لتجاوز

الواقع الذي كان يسيطر فيه الفكر الكنائسي المتحجر.

فالتوجه نحو الماضي ونبش خباياه المادية كان يعني استتطاق ذلك

المخزون الإنساني الغني، الإبداعي والفني العريق، لأخذ العبر والنماذج، ولصقل الإحساس وخلق الحافز ورفع الهمم، وذلك للسير قدما نحو عصر البناء والإنتاج والتوسع الحضاري الواعي. ولقد لعب علم الآثار دورا هاما في إنتاج وتطور الإيديولوجيات العصرية التي صاحبت الثورات العميقة التي عرفتها بعض الدول الغربية في القرنين الأخيرين. شكل الإرث الحضاري الإغريقي والروماني محورا أساسيا وعنصر جذب وتنافس بين القوى الاستعمارية المتصاعدة: ما من قوة غزو إلا وقدمت نفسها كوريث شرعي لهاتين الحضارتين، كخطة منهجية لإضفاء الشرعية على عملياتها الاستعمارية، (النشيوي، 1998أ). وبشكل عام، "أقيمت الثقافة الأوروبية الجديدة على أساس خرافة مفادها الإدعاء بالاستمرارية في تاريخ القارة الأوروبية وإيداع جذور قديمة وهمية للتضاد بين هذا التاريخ المزعوم وبين تاريخ المنطقة التي تقع على الشواطئ الجنوبية للمتوسط"، (سمير أمين، 1988: 124-125). ولهذا أفرزت الدراسات الغربية منهجين متضادين ومتكاملين في آن واحد: رسمت لنفسها خطا عموديا متواصلا فسرت به تاريخها وتطورها الحضاري، ففي حين رسمت للعالم العربي خريطة تاريخية وحضارية مشوهة ومعقدة أكثر من تعقد خريطتها السياسية الحالية، (العربي النشيوي، 1998ب).

ولقد التقت كذلك كل الحركات الثقافية والإيديولوجية والسياسية في جعل الحضارة الإغريقية والرومانية تراثا وطنيا غربيا واستعملته كدعامة أساسية أسندت إليها طروحاتها. ويبقى مصطلح الرومنة أهم ما أبدعت الدراسات والفكر الاستعماري في شموليته الثقافية: يقدم كمرادف للتقدم والتحضر، وكمرادف للفرنسة وغير ذلك من المرادفات التي يريد من ورائها مستعملوها اثبات انتشار وتغلغل مبادئ وقيم الحضارة الغربية قديما وحديثا وسط المجتمعات الخاضعة.

يكشف التحليل الموضوعي التركيبي للمعطيات التاريخية والأثرية عن العمق الإيديولوجي الذي يركزه هذا المصطلح (الرومنة). فهو عبارة عن مرآة للإطار الإيديولوجي للتفكير الاستعماري الذي حدد ولا زال الجهاز النظري الوظيفي للإيديولوجية العنصرية الأوروبية، الثقافية والتاريخية. ويعبر الإطار النظري الوظيفي هذا عن نفسه بإصاق مصطلح حضارة فقط بالإرث التاريخي الإغريقي والروماني وبالإنتاج المادي والفكري الحالي الذي يقدمه كامتداد للأول، في حين يسقط هذا الوصف عن الأساليب الحضارية الأخرى، (النشوي، 1998أ). وتتدرج النظرية الوظيفية هاته من حيث سياقها العام والخاص ضمن المكونات الأساسية لترسنة نظرية أشمل شكلت العمود الفقري في مقاربة الغرب لتاريخ وحضارة العالم العربي والإسلامي، اصطلح عليها بالنظرية الاشتراكية.

ولقد نعت الإغريق والرومان وبعدهما الدول الغربية الشعوب التي استعمروها وخاصة تلك التي قاومت الغزو والاحتلال بالهمجية والوحشية (بربر)، (النشوي، 1998أ). ونجد أن الحركات الفكرية الغربية، الليبرالية والماركسية على حد سواء، دافعت عن الاستعمار في الأوساط السياسية والثقافية والإيديولوجية واعتبرته عاملا لا محيد عنه لتقدم الشعوب الغير الأوروبية. لقد رأى كل من انجلو وماركس - رواد الفكر التحرري الغربي - في الاحتلال الإنجليزي للهند والاحتلال الفرنسي للجزائر عنصرا أساسيا لدفع عجلة تقدم هذين البلدين نحو الرأسمالية، وبالتالي الاشتراكية والتحرر، (العربي النشوي، 1998أ).

لقد تحكم هذا الجهاز المفاهيمي وهذه المقاييس والأوصاف في الدراسات الأركيولوجية التي أنجزت في المغرب وفي كل التفسيرات التي أعطيت لتاريخ المغرب العربي القديم. وبشكل عام، شكلت هذه العناصر أساس الفلسفة الثقافية الاستعمارية التي أنجزت في غرب العالم العربي ومشرقه. فرنسا التي كانت تسعى لبناء إمبراطوريتها الاستعمارية في كل البحر الأبيض المتوسط وجدت في

الإمبراطورية الرومانية وإرثها الحضاري النموذج الأمثل لإسناد مشروعها عقائديا وسياسيا.

والجدير بالذكر أن غاليا -جزء كبيرا من فرنسا الحالية- عانت من الغزو الروماني كباقي المناطق الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، وأن ما تعرف الآن بفرنسا تضم في أحشائها سبع قوميات: الفرنسيون (القوة المسيطرة)، والباسكيون، والكطلانيون، والأوكسيطانيون، والكرسيون، والبريطانيون، والأزاسيون. لكنها حرصت على تقديم نفسها كقوة موحدة ومنسجمة تاريخيا وثقافيا ودينيا وسياسيا، واعتبرت نفسها الوريثة الشرعية لروما في كل المناطق التي كانت خاضعة لسيطرتها، خاصة المناطق الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. ولقد استطاعت بالفعل أن تخضع أغلبية هذه المناطق لقبضتها الاستعمارية محققة بذلك جزء من مشروعها التوسعي الاستعماري. وانطلاقا من هذا الزعم ولتحقيق نفس الغاية أنجزت الدراسات الاستعمارية التي أعطت أهمية خاصة للإرث الحضاري الروماني، فجاء علم الآثار وصناعة التاريخ القديم للمغرب العربي مطبوعين بهذا المنظور، (النشوي، 1999أ).

أغلب الدارسين الفرنسيين الذين قاربوا التاريخ القديم وآثار المنطقة خلال ما يسمى بالعصر الكلاسيكي قارنوا وضع البلاد خلال الاحتلال الروماني والاحتلال الفرنسي. لقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830، وفي سنة 1844 كتب الناشرون "فرمين بيدوت" حول هذا لبلد الذي تعرض للغزو ما يلي: " لا أحد منا، وهذا رأينا، يحق له من الآن فصاعدا أن يظل متفرجا عند قراءة الأعمال التي تذكر بالماضي الزاهر لهذه الجزائر حيث بدأنا من جديد، وببسالة عالية، أعمال الرومان لخدمة صالح الحضارة والإنسانية"، (عن فيبري، 1989: 23).

معركة الاستعمار والاحتلال العسكري للمغرب العربي ما كانت لتتحقق وتأخذ الأبعاد التي اتخذتها لولا وقوف النخبة المثقفة إلى جانب الأداة العسكرية تدعمها وتبرر وجودها وأعمالها، ويأتي التاريخ القديم والآثار في مقدمة المواضيع

التي نالت اهتماما وعناية بالغة لخدمة هذا المبتغى. ويعبر لنا "لويس لاكروا" عن ذلك على الشكل التالي: "معرفة تاريخ وجغرافية الجزائر، كما كانت في القديم، عرفت تقدما كبيرا بفضل الغزو الذي تعرضت له. تجند العلماء على الفور في الطريق الذي شقه الجيش" (عن فيبري، 1989: 32).

ركزت الدراسات الفرنسية على التاريخ والمخلفات المادية الرومانيتين بالمغرب العربي، لإبراز دور روما بالمنطقة، وللقيام بالدعاية لعظمة الحضارة الرومانية وسط أتباع ومناصري المخطط الاستعماري لتحسيس عصبيتهم وتنمية شعورهم بالتفوق العرقي والحضاري. "والجدير بالذكر كذلك أن النزعة العرقية والروح العدائية التي كانت تخيم على المحيط الثقافي والاجتماعي لأولئك الذين قاربوا القضايا المختلفة المرتبطة بالمنطقة كان لهما تأثير كبير على طبيعة "الدراسات" التي أنجزوها والنظرة التي لامسوا بها الحضارة والإنسان وعالجوا بها المشاكل التي كانت تهمهم بالمغرب العربي. هذا الأسلوب قديم قدم الظاهرة الاستعمارية نفسها" (النشوي، 1999أ).

كانت النزعة العدائية العنصرية ضد سكان المغرب منتشرة وسط بعض الجغرافيين والمؤرخين القدماء، الإغريق والرومان، حيث نجد مثلا "بومبونيو ميلا"، يصف سكان المغرب بالتأخر والانحطاط، إذ نجده يقول: "إن البلد (يقصد المغرب) شبه مجهول ولم يعرف من التقدم إلا الشيء البسيط، وسكانه يعيشون في مدن بسيطة، والأنهار التي تتبع منه صغيرة، وأرضه أحسن من سكانه، وتكاسل هذا العرق يمنعه من الخروج من ظلماته" (بومبونيو ميلا، "I,5"). لم تكن دعاية بومبونيو ميلا هاته المكتوبة بالضبط بعد غزو كلود لموريطانيا ("الجزائر" و"الغرب") ما بين سنة 40 و43 ميلادية، مثلا معزولا أو فريدا بين مؤرخي وجغرافي عصره، وبين أولئك الذين قاربوا قضايا المغرب العربي منذ ذلك العصور إلى يومنا هذا، حيث يصعب تلخيص الدراسات التي كررت طرحه ضد المغاربة.

- في سنة 1763 بدأ "بيبيان دو سان مرتين" مؤلفه "شمال إفريقيا عند الإغريق والرومان" بالجملة التالية: "هناك عاملين حكما على القارة الإفريقية أن تعيش ضعفا أزليا أمام آسيا وأوروبا، وهما جغرافيتها وطبيعة سكانها" (عن فيبري، 1989: 24)

- وفي سنة 1790، كتب الإنجليزي "لومبيير" ما يلي: "لقد ذهبت إلى المغرب يوم 12 فبراير من سنة 1790، وبعد ثلاثة أيام وصلت إلى مقصورة بولعوان التي توجد على بعد 80 ألف ميل في بلد جاهل ومتوحش" (عن سانين، 1911: 184)

- وفي سنة 1911، كتب الفرنسي "سانين" في مقدمة ترجمته لكتاب "لومبيير" المذكور أعلاه ما يلي: "كان من بين منكودي الحظ ربان السفينة الإنجليزية وتسعة ملاحين انجليز. كان سوء حظهم أن فشلوا في الشاطئ الإفريقي، في المنطقة المسكونة من طرف العرب المتوحشين" (سانين، 1911: 13)

- وفي سنة 1914، سنتين بعد التوقيع على معاهدة الحماية، نجد أن الرحالة الفرنسي "امون دوتي" قد تبني نفس الموقف وروج له في كتابه "مقدمة في قبائل المغرب". نقتصر هنا على ذكر الفقرة التي كتبها حول مدينة وليلي العتيقة التي يقول فيها: "شاهد من بعيد، عند مدخل المنطقة الهضبية، البقايا الأثرية لوليلي الرومانية حيث أن 15 قرنا من الوحشية والتعصب لم تستطع أن تمحو أثرها"، (امون دوتي، 1914: 419)، (النشوي، 1999أ).

يمكن لنا أن نستخلص من هذا النوع من الكتابة أن البيئة الثقافية التي كان يتغذى منها ويغذيها هؤلاء، كانت بيئة عدائية وعنصرية، غايتها استمالة الرأي العام وتأجيجه للمشاركة في إنجاز المشاريع الاستعمارية التي كانت محاكاة ضد المنطقة بأكملها، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإنها تمثل جزء من الخطية الإعلامية التي كانت تهدف إلى النيل من مقومات سكان المنطقة وشل قدراتهم الروحية

والمعنوية لتسهيل عملية استلابهم وقيادتهم والسيطرة عليهم وعلى ثرواتهم المادية والتاريخية والتراثية (النشوي، 1998ب).

مقاربة تحليلية للحفريات والدراسات الأثرية الفرنسية بالمغرب.

أقام الدبلوماسي الفرنسي شارل تيسو، الذي اشتغل كوزير مفوض بالمغرب ما بين سنة 1871 و 1876، بأول مسح طبوغرافي أثري وجغراف وتاريخي للمغرب: أنجز سنة 1874 أول مسح طبوغرافي لقصر فرعون وحدده بوليلي. وفي سنة 1877، أربع سنوات قبل وضع المغرب تحت المراقبة الدولية، نشر كتابه "Recherches sur la geographie comparee de la Mauretanie Tingitane"

كما قام الدبلوماسي الفرنسي كذلك "لمرتيير"، بالحفريات الأثرية في كل من ليكسوس ووليلي بعد حصوله على ترخيص من الحسن الأول. تركز اهتمامه على إنهاء أعمال سلفه تيسوت، ونشر مجموعة من المقالات قبل وخلال مرحلة الاستعمار الفرنسي. انتهت مرحلة الدبلوماسيين بتوقيع معاهدة الحماية سنة 1912، لتبدأ المرحلة الاستعمارية. بدأت الحفريات بوليلي في 23 مارس 1915، بالشوارع الرئيسي للمدينة: أدار الحفريات الأولى، التي بدأت بأمر من الجنرال ليوطي، المقدم "بوين" الذي كان قائدا لفرقة المشاة الرابعة للمناوشين الأهالي التي كان مركزها بمكناس. لكن مع نهاية هذه السنة انتقلت مسؤولية الحفريات إلى "شاتلان" الذي كان يتقلد رتبة ملازم أول في الفرقة المذكورة. ويمكن القول أن شاتلان هو الذي أنجز المشروع الفرنسي لعلم الآثار بالمغرب. ركز شاتلان أعماله على الحضارة الرومانية ودور روما في تحضر وتقدم المغرب: "إذا استثنينا ما قبل التاريخ وفجر التاريخ نجد أن هناك ثلاث مراحل تاريخية واضحة الاختلاف: المدينة البدائية أو مدينة سفيروس، يعني مدينة القرن الأول؛ والمدينة التي بنيت بشكل منظم في شمال الميدان -الجهة التي بني بها قوس النصر في مرحلة متأخرة-؛ وأخيرا المدينة المحاذية للسور"، (شاتلان، 1967: 155). يرى شاتلان، كما يتضح من هذا النص، أن وليلي دخلت المرحلة التاريخية بفضل التأثير والاحتلال الروماني. شككت

هذه الفكرة محور المشروع الاستعماري الفرنسي الذي تم إنجازه خلال التمهد للاحتلال ومرحلة الاستعمار. اعتبر جيل توتان في سنة 1895، أن "الحياة المدنية والتنظيم البلدي... استوردوا من الخارج"؛ نفس المنحى ذهبه لويس لاکروا خلال تطرقه للنوميديين وجيرانهم الموريين، وغوتيي في موقفه من "البرابرة"، (النشوي، 1999د).

خلف توفنو سلفه شاتلان في تحمل مسؤولية مصلحة العاديات بالمغرب ودافع هو الآخر عن نفس الفلسفة، وأضاف إليها بحفريات ومقالاته الوصفية الشيء الكثير. اعتبر هو الآخر كذلك أن وليلي لم تدخل التاريخ إلا بفضل الاحتلال الروماني: "بعد 48 سنة من حكمه (يقصد هنا الملك يوبا) خلفه ابنه ابتوليمي، إلا أن الإمبراطور كاليغولا اغتاله وضم مملكته إلى الإمبراطورية. إن فقط في هذه الأثناء دخلت وليلي التاريخ باسمه (يقصد الإمبراطور المذكور)"، (توفنو، 1949: 15). ويتابع توفنو قائلا: "منذ الأيام الأولى من ضمها تظهر لنا وليلي في التاريخ، وذلك للتعبير عن تحالفها مع روما" (توفنو، 1949: 16). ولقد جعل الترومن (الوقوف إلى جانب الرومان وتبني حضارتهم) مرادفا للحضارة والتقدم، ومقاومته مرادفة للهمجية: "لقد سبق لنا أن قلنا ذلك، كانت (وليلي) مركزا للتبادل بين البادية والمدينة وبين السهول المترومنة والجبال المتوحشة"، (توفنو، 1949: 60).

كان هذا باختصار التوجه العام للدراسات والحفريات الأثرية التي أجرتها الأداة الاستعمارية الفرنسية، إلا أن هذا الخط سيعرف "تغيرا" إن لم نقل تجديدا مع أواخر المرحلة الاستعمارية وبداية الاستقلال وذلك نظرا لفشل المشروع الاستعماري الفرنسي الذي تراجع أمام الحركة التحررية بمنطقة المغرب العربي التي أضعفت الأسس الثقافية والإيديولوجية للمدرسة الاستعمارية الفرنسية، وأفقدت خطابها التقليدي أسسه العميقة، وأصبح عاجزا على الاستمرار في تأدية وظيفته بتحميس الشعب الفرنسي الذي لم يعد يرى بوضوح مصداقية حكاية التفوق الفرنسي

وعظمة الحضارة والدولة الفرنسية التي أصبحت قدراتها تتهار أمام إرادة الشعوب التواقّة إلى التحرر من قيود الاستعمار، (النشوي: 1999 ج).

فما كان أمام المدرسة التقليدية والأداة العسكرية الفرنسية التي كانت تتحكم في الفلسفة والهندسة الثقافية بالبلاد إلا أن تبحث عن مخرج مناسب لأزمته. وجدت في الخط الذي كان قد دشنته طارديل، مسؤول مصلحة العاديات بالحماية الإسبانية، بحفريات في تامودا وليكسوس وإقراره بوجود مستويات حضارية مهمة سابقة عن الوجود الروماني أطلق عليها الحضارية البونيقية المورية (طارديل: 1960)، متفلسا استغلته وحوارته لطرح نظرية جديدة لا تختلف في عمقها كثيرا عن النظرية التقليدية. دشنت هذه المرحلة بالأمر الذي أعطاه الجنرال بوين -خلف الجنرال ليوطي في الإقامة العامة الفرنسية بالرباط- في 10 نونبر 1950 إلى سينتاس، الذي كان يتحمل مسؤولية مصلحة عاديات تونس، لكي يشرع في البحث عن البقايا الأثرية الفينيقية بالساحل الأطلسي المغربي. فتسارعت الأعمال على الفور حول هذا الموضوع الجديد:

- انتقل سينتاس إلى المغرب مرتين، سنة 1950 وسنة 1951، وقام بالبحث عن المواقع الأثرية البونيقية (سينتاس، 1954: 9)؛
- استدعي لوكي سنة 1950 من طرف هنري طراس مسؤول معهد الدراسات العليا المغربية، ومن طرف سينتاس كذلك لكي يقوم بالبحث هو الآخر عن المواقع الأثرية البونيقية. ويعطينا لوكي، في مقاله "البحث عن الآثار البونيقية بالساحل الأطلسي المغربي"، معلومات هامة تفيدنا حول التعبئة الشاملة للمسؤولين الكبار لإنجاز هذا المشروع الثقافي الجديد ومعطيات كثيرة حول تواجد الفينيقيين بالمغرب، (لوكي، 1956: 118؛ النشوي: 2000 b). كان من نتائج تلك التحريات الأولى العثور على مجموعة من المواقع الأثرية على الساحل الأطلسي المغربي وفي المناطق الداخلية للبلاد كذلك، (لوكي، 1956: 131)؛

- ونشر فيبري في هذه السنة نفسها أربع نقائش كتابية بونيقية لوليلي (فيبري، 1955-1956: 29-35). تجدر الإشارة إلى أن هذه النقائش كان قد تم العثور عليها سنة 1923 أثناء القيام بعملية سبر شمال الجثوة (توميلوس)، لكنها أطمست لأنها تحمل دلائل معارضة للطرح الذي كان يروج له علماء الآثار خلال المرحلة الاستعمارية، (النشوي، 1997: 119). أثبتت أن وليلي كانت موجودة منذ القرن الثالث قبل الميلاد على الأقل، (كامبس، 1960: 423).

تم تغيير كذلك في قيادة مصلحة عاديات المغرب حيث أسندت المهمة إلى ضابط الطيران أوزنا الذي عوض توفنو وتحمل مسؤولية إدارة وإنجاز مشروع الحفريات الأثرية الجديدة بالمغرب ما بين سنة 1954 و 1963. وكون فرقة العلمية بدأت تشتغل على مستويات ما قبل الاحتلال الروماني: "أوزنا" و"لوكي"، بوليلي وبناصا، (أوزونا، 1957: a: 41-64؛ b: 1957: 199-229؛ لوكي، 1964: 31-42)، "بونسيك" بطنجة وليكسوس، (بونسيك وطرديل، 1960؛ بونسيك، 1964: 253-290)، وجودا بوليلي ومغذور، (جودا، 1965-1966: 199-221؛ 1966)، وبوب بسلا، (بوب، 1967: 263-367)، وربيفا وموريل بتاموسيدا، (ربيفا، 1968-1972: 51-65؛ موريل، 1975: 78-111). أرخت كل الأعمال التي أنجزها هؤلاء لبداية وجود الظاهرة الحضرية بالمغرب مع النصف الثاني للقرن الثاني قبل الميلاد، أي بعد سقوط قرطاج.

لا يخلوا هذا التأريخ للظاهرة الحضارية بالمغرب من حيثيات إيديولوجية استعمارية كذلك، (النشوي، 1996-1997: 783-793). لقد أراد هذا الطرح أن يبعد دور الحضارة البونيقية باعتبارها حضارة شرقية، وحصر تأثيرها في الأسماء والمعبودات واللغة، وقدم المغرب في عزلة عن كل التأثيرات الشرقية، ونفى أية علاقة مباشرة مع الشرق. لكنه اعتبر بالمقابل أن هذا التطور جاء كنتيجة ميكانيكية للتأثير الهليني والروماني الذي لعبت فيه غالبا الدور الأساسي، في حين قدم إسبانيا كمنطقة عبور فقط معتمدا في ذلك على وجود الفخار الكامباني ب،

وفخار أريزو وفخار غروفيزونك، والفخار الرمادي لأمبورياس (أوزنا، 1957 a: 50-51). لقد حدد أوزنا في إحدى مقالاته أهداف الحفريات التي كان يجريها هو وفريقه على الشكل التالي: "كانت الغاية الأساسية للدراسات الجديدة، التي بدأت مع طرديل سنة 1948 في شمال المغرب، والتي بدأتها أنا وأعواني جنوب نهر لكوس، إظهار أن الاندماج في العالم الروماني كان دون شك قد هيئ وسهل منذ القرن الثاني قبل الميلاد بفضل تقدم حضارة أصيلة يسميها طرديل بالحضارية البونيقية المورية، والتي أفضل أن أسميها بالمورية حتى لا أعطي للتأثير البونيفي دورا مهما لأنه كان قد انتهى خلال القرنين الثاني والأول لما قبل الميلاد اللذين ظهرت فيهما عناصر جديدة حلت بالتدريج محل الحضارة البونيقية"، (أوزنا، 1965: 261). بدأت أغلب الدراسات تقول بأن المغرب دخل مرحلة الترومن قبل الاحتلال الروماني، واتخذت كأهم حجة لدعم طرحها وقوف القاضي "ماركوس فاليريوس سيفيروس" إلى جانب روما في حربها ضد أيمنون على اثر اغتيالها لإمبطلومي واحتلالها للمغرب (توفنو، 1968-1972: 217-219؛ غاسكو، 1978: 109-124؛ غاسكو واكريستول: 1980: 329-345).

نال هذا الموضوع الجديد، موضوع رومنة المغرب قبل الاحتلال الروماني، أهمية كبرى من طرف الدراسات التي أنجزت خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات: ويمكن القول بأن غاسكو هو المؤسس لهذه النظرية والمدافع عنها، حيث اعتبر أن فلوريوس المنكور أعلاه كان يتمتع هو والأشخاص الذين كانوا مسجلين في قبيلة "اكلاوديا"، وقبيلة "غليريا"، وقبيلة "اكويرينا" بالمواطنة الرومانية قبل تحويل وليلي إلى بلدية، (غاسكو، 1978: 115). ولقد اتبع غاسكو منهاجا مقلوبا في تحليل طرحه الذي لا يعتمد إلا على تخمينات ضعيفة قريبة من الخيال منه للدلالة العلمية الملموسة: يقوم بتقديم فرضيات مبنية على حجج واهية، ويحولها بالتالي إلى حقيقة مؤكدة يبني عليها استنتاجاته تلك، (النشوي، 1996أ: 274-279).

وبشكل عام، تتقاطع الحفريات والدراسات الأثرية الفرنسية التي أجريت بالمغرب خلال مرحلة الاستعمار وتلك التي أجريت خلال مرحلة الاستقلال في نقطة جوهرية وهي إظهار دور وفضل الحضارة الرومانية على تقدم ونمو المغرب: عن طريق التأثير المباشر خلال الاحتلال الروماني وعن طريق التأثير الغير المباشر بعد القضاء على قرطاج. هذا الطرح نجده يتكرر كذلك عند الدارسين الفرنسيين الذين اشتغلوا على المغرب خلال العقدين الأخيرين ولا زالوا يشغلون إلى يومنا هذا، مثل "إليان لونوار" و"موريس لونوار" و"ريبيفا".

الدراسات الأثرية المغربية:

البيئة الثقافية، والعلمية والسياسية، والإيديولوجية التي أطرت ولا زالت تؤطر الفضول الفكري بشكل عام والدراسات التاريخية بشكل خاص تختلف جذريا بالمغرب عن البيئة الفرنسية الواردة أعلاه.

بدأت الدراسات الأثرية المغربية كمبادرة فردية، في شكل أطروحات جامعية أنجزت أغلبها بفرنسا: كل تلك الدراسات، لم تنعم بوجود محيط ثقافي وسياسي يملك مشروعا ورؤية واضحة لكيفية التعاطي مع إرثها الأثري والتاريخي، ولم تتمتع كذلك بوجود تقليد وطني راكم تجربة لا بأس بها في البحث في هذا المجال يمكن الاعتماد عليه في تحديد الإشكالية واختيار الموضوع... بل بدأت من فراغ تام، ولهذا لم تأت كاهتمام يريد البحث في قضايا وإشكالات وهموم واعية بالقضايا الحقيقية لتاريخنا وأثارنا وتراثنا، وأنت ربما كصدفة وكحس بأهمية الخوض في أسرار هذا العالم الجديد الذي ظل حكرا على الأجانب. ولم يجد الباحثون الشباب المغاربة الذين أرادوا الاشتغال بمجال علم الآثار أمامهم إلا أبواب الجامعات الفرنسية والأساتذة والمتخصصين الفرنسيين، والمنظومة المرجعية الفرنسية، فجاءت أعمالهم متأثرة بشكل كبير بهذا النقل على جميع المستويات، على مستوى الموضوع والتحليل والخلاصات.

لكن مع تأسيس المعهد الوطني لعلم الآثار والتراث سيحدث انقلاب كمي ونوعي مهم تمثل بالدرجة الأولى في تكوين أطر مغربية. إلا أن المعوقات الأساسية لا زالت قائمة، نظرا لعدم توفر إمكانيات مادية مهمة تخول للباحثين المغاربة القيام بأعمال الميدانية وبالنشر. أغلب الحفريات والتحريات الأثرية المهمة تتجز مع البعثات الأجنبية التي توفر الإمكانيات المادية، وأغلب الدراسات والمقالات التي ينجزها المغاربة، على قلتها، تنشر في أعمال المؤتمرات والندوات التي تنظمها المؤسسات الأجنبية: غالبا ما يجد علماء الآثار المغاربة عراقيل مادية وإدارية تمنعهم من المشاركة فيها. بخلاصة شديدة، يمكن القول أننا نعيش بداية ظهور وتبلور ما يمكن أن تسمية بمدرسة أثرية مغربية لكن هذا يبق رهين بتوفر شروط ذاتية تتمثل في الحوار الجاد والتعاون العلمي الهادف...، وشروط موضوعية مشجعة ومساعدة وذلك بخلق شعب لعلم الآثار بالمؤسسات الجامعية، وتوفير وعي وإرادة كافية عند كل المؤسسات المغربية المختلفة وعند المسؤولين السياسيين والثقافيين والاقتصاديين لدعم علم الآثار وإعطائه الأهمية التي يستحقها وجعله عنصرا أساسيا في التربية والتنمية الثقافية والسياحية والاقتصادية، (النشوي، 2000أ).

اشتغلت أغلب الدراسات على مخلفات الحضارة الرومانية، ودرست العلاقة بين فرنسا والمغرب، وأكدت على تطور هذا البلد الأخير وكل المغرب العربي على عهد الاحتلال الروماني. لقد كرر فداي مثلا في خلاصة أطروحته نظرية جليبر شارل بيكر وتلامنته الفرنسيين التي تقول بتطور وازدهار المغرب العربي خلال العهد الروماني: "إن، خلال هذه المرحلة وصلت افريقية الشمالية أوج ازدهارها: حصل تطور اقتصادي مهم نتيجة الثورة التي عرفتها عمليات استغلال الأرض وتقدم تقنيات الإنتاج، التي بدأت على عهد الفلايين. هذا التقدم حمل معه النمو السكاني ونمو المدن المزدهرة بالمعالم"، (فداي، 1992: 311). وتابع خطابه في الصفحة الموالية وانهى أطروحته بجملته أخدها عن "بيكار":

عرفت موريطانيا الطنجية، خاصة في القرنين الثاني والثالث، ازدهارا اقتصاديا واجتماعيا. وليلي التي كانت من إحدى المدن الكبرى لموريطانيا الطنجية لم تكن على هامش هذا التطور"، (فداوي، 1992: 312؛ أخذها عن بيكار، 1956: 9). نفس الطرح يدافع عنه كل من روبيفا وإليان لونوار في قراءتهم لنتائج التحريات الأثرية التي أجروها على نواحي وليلي وحوض سبو، (روبيفا، 1986: a: 633-666؛ b: 1966: 219-238؛ إيلان لونوار، 1986: 239-245؛ 1990: 219-229).

علماء الآثار المغاربة لم يستوعبوا فعوى هذا التحليل وخلفياته ولهذا نجدهم يكررون مع الفرنسيين نفس الطرح الذي إن كان صحيحا من الناحية الظاهرية، وصحيحا إذا ما اقتصر على العينات المدروسة نفسها، فلا مجال للشك ببق خاطئا عندما يعمم ليشمل ويسقط على كل البلاد. وجود الحي الشمالي الشرقي، أرقى أحياء مدينة وليلي، ووجود بعض الفيلات والضيعات وبعض معاصر الزيتون بنواحي وليلي وبحوض سبو ... لا يجب أن يخفي عسكرة الوضع العام وحالة الحرب الدائمة تقريبا نتيجة مقاومة السكان المحليين الذين لم يأت الإستعمار الروماني بمقوماته واستغلاياته وأحيائه الرقبة ليخدم مصالحهم أكثر من خدمة مصالحه وحل مشاكله، (توفنو، 1939: 20-28؛ 1945: 166-183؛ كاركوبينو، 1943: 270-272). كانت روما تهدف من وراء احتلال المغرب العربي توزيع الأراضي على الجنود القدماء، وعلى الإيطاليين الذين كانوا قد فقدوا أراضيهم التي تم توزيعها على الجنود بايطاليا، والسيطرة على الأراضي الخصبة، إضافة إلى أنها اتخذت المنطقة كذلك كمواقع أمامية لضمان أمن الإمبراطورية ضد الدول المتوحشة، (غاسكو، 1982: 140-141). تحولت مستعمرات المغرب العربي القديم منذ عهد "تيرون" إلى مخازن الحبوب للبليبيين الرومان، حيث كانت هذه المنطقة توفر ثلثي المتطلبات ومصر الثلث الآخر. كما كانت عبارة عن محصول حولي لروما، تمثل في المرحلة المبكرة في الحبوب أساسا، وفي المرحلة المتأخرة، ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، كان يتمثل بالأساس في الخبز إضافة

إلى الزيت، وابتداء من "أورليان" أصبح يشمل الخمر والفواكه المجففة"، (كاغناط، 1977: 205)، (النشوي، 1999).

عن موضوع التطور التاريخي والمديني بالمغرب نقول بأن البلاد كانت تتوفر على المقومات الحضارية في نفس المرحلة التي بدأت فيها تتطور المراكز التجارية بالمنطقة الغربية من البحر الأبيض المتوسط وتتحول إلى مدن. كل الدلائل الأثرية تشير إلى أن الحياة المدنية بدأت بالمغرب مع بداية القرن الثامن قبل الميلاد، أي في نفس المرحلة التاريخية التي بدأت فيها بالضفة الشمالية الغربية من البحر الأبيض المتوسط. لم ينتظر المغرب إلى أن يأتيه الرومان بالتحضر، كما حاول أن يبرهن علماء الآثار الفرنسيين، بل جاء كتقليد إنساني نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل لا تختلف كثيرا عن العوامل التي سببت فيه بالمناطق الأخرى للحوض المتوسطي الغربي: ظهرت به الفلاحة منذ مرحلة ما قبل التاريخ، وتوطدت علاقته التجارية مع البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي على الأقل مع قدوم الفينيقيين، أما الصناعة فقد تطورت في القرن السابع قبل الميلاد، (النشوي، 1996). وفيما يخص النظام السياسي مثلا فقد بدأ على الأقل في القرن الرابع قبل الميلاد، ولم ينته إلا باغتيال العاهل الموري "ابطوليمي". أغلب الدلائل الأثرية تؤرخ للمدن المغربية العتيقة بما قبل القرن الرابع قبل الميلاد، وتفيد إلى أن أغلب المدن التي كانت موجودة بالمغرب قبل الاحتلال الروماني تعرضت للتدمير على يد جيوش الاحتلال، وبعضها تحول إلى تكتلات عسكرية مثل تامودا وتاموسيدا. ويمكن القول بأن الاستعمار الروماني قد قام بزعزعة الاستقرار السياسي وبمسكرة البلاد وبشل حركة النمو الداخلي الطبيعية.

خاتمة:

إن القيام بدراسة تحليلية وتركيبية لتاريخ علم الآثار بالمغرب، موضوعا ومنهجيا وتحليلا، مسألة مهمة وأساسية في التعاطي مع هذا الإرث الثقيل، القديم والمتجدد، الذي لا زال يشكل المنظومة المرجعية الأساسية لمقاربة تاريخ المغرب

الحضاري والمادي. ويحق القول أن محاولة إعطاء صبغة مغايرة لتاريخ وحضارة المغرب، بعيدة عن النظرة الاستعمارية، تبدأ بالقيام بدراسة نقدية تركيبية لأكثر من قرن من الدراسات الأثرية التي شوهت بشكل كبير الصورة الحقيقية لتاريخ المغرب، (النشوي، 1996). نعتقد، "مثل عدد كبير من الذين يدرسون تاريخ علم الآثار، أن النظرة التاريخية توفر موقعا على غاية من الأهمية، يمكن من خلاله معالجة العلاقات المتغيرة بين التحليل الأثري وبيئته الاجتماعية"، (أريغر، 1992: 15).

نرى أن التراكم المعرفي التدريجي الذي اكتسبه ولا زال يكتسبه علماء الآثار المغربية، والحوار العلمي الجاد الذي لا شك أنه سيفرض نفسه أكثر في السنوات المقبلة قمينان بأن يلفتا الانتباه حول مجموعة من الطروحات التي كانت تعتبر إلى حدود أمس القريب حقائق ثابتة لا يشوبها الشك. ولربما، وهذا اعتقادنا، سيدفع ببعض الدارسين إلى تجديد الرؤية وتبني منهج جديد لمقاربة الإشكاليات من زوايا مغايرة، متعددة ومتكاملة، لأن النظرة المتبعة إلى حدود الآن تبقى في أقصاهم نظرة أحادية الجانب، ومتناقضة مع السياق الحضاري العام والخاص الذي عرفته ومرت به البلاد.

المراجع:

- العربي النشوي، 1998: "قرن من علم الآثار الاستعماري بالمغرب"، السياسة الجديدة، العددان 181-182.
- العربي النشوي، 1998ب: "التاريخ وعلم الآثار كانا دائما هدف العرب الحضارية الغربية ضد الأمة العربية"، جريدة العلم، العدد 17523.
- العربي النشوي، 1999أ: "البقايا الأثرية الرومانية وإيديولوجية الاستعمار الفرنسي"، جريدة السياسة الجديدة، العدد 257.
- العربي النشوي، 1999ب: "التطور الحضاري والاستعمار وعلم الآثار بالمغرب العربي"، جريدة العلم.
- العربي النشوي، 1999ج: "حركة التحرير المغربية وأجوبة مدرسة علم الآثار العربي النشوي"، 1999د: "الجنرال ليوطي وبداية الأوراش الكبرى للتقنيات الأثرية بالمغرب"، جريدة العلم.

الفرنسي بالمغرب"، جريدة العلم.

- سمير أمين، 1988: نحو نظرية للثقافة غير أوروبية التمركز، "الوحدة، العدد 51، ص. 124-

(125

Boube, J., 1967: "Documents d'architecture mauretanienne au Maroc", B.A.M., t. VII, pp. 263-367.

- Cagnat, P., 1977: "L'annone d'Afrique", Les cahiers de Tunisie, t. xxx, pp. 205-235.

- Camps, G., 1960: "A propos d'une inscription: les suffetes de Volubilis aux IIIe et IIe siècles av. J.-C. Notes et documents", BAM, t. IV, pp. 423-426.

- Carcopino, J., 1943: "Le Maroc Antique", Paris.

- Christol, M., et Gascou, J., 1980: "Volubilis, cite fedeer", M.E.F.R.A., t. 92. 1, pp. 329-345.

- Christol, M., 1985: "Les hommages publics de Volubilis: epigraphie et vie municipale". L'Africa Romana. Atti del convegno di studio Sassari, 13-15 dicembre 1985 a cura di Attilio Mastino, pp. 83-96.

- Christol, M., 1987: "Rome et les tributs indigenes en Mauretanie Tingitane", A.A., t. 23, pp. 306-337.

- Cintas, P., 1954: "Contribution a l'etude de l'expansion carthaginoise au Maroc", Publication de l'Institut des Hautes-Etudes marocaines, t. LVI, Paris.

- Doutte, E., 1914: "Missions au Maroc en tribu", Paris.

- En-Nachioui, 1995: "Las primiras excavaciones en Volubilis (Marruecos): Arqueologia, historia o simple colonizacion", Pyrenae, Numero 26, pp. 161-170.

- En-Nachioui, E., 1996: "Aportaciones al estudio de la romanizacion de la Mauritana Tingitana; un siglo de la arqueologia colonial", Tesis Doctoral, Departamento de Prehistoria, Historia Antigua y Arqueologia, Facultad de Geografia y Historia, Universidad de Barcelona, 12 fevrier 1996.

- En-Nachioui, E., 1996-1997: "Mauritania Tingitana: romanizacion, urbanizacion y estado de la cuestion", Homenatge al Dr. P. Palol i Salellas, a Girona, desembre de 1995 (Annals de l'Institut d'Estudis Gironins. Vol. XXXVII, pp. 783-793).

- En-Nachioui, E., 1997: "Historia del concepte d'urbanitzacio aplicat al Marroc", Cota Zero, Numero 13, pp. 117-124.

- En-Nachioui, E., 2000a: "Un bilan de recherche ethno-archeologique dans la zone de Chefchaouen, et perspectives pour la valorisation du patrimoine marocain", Colloque du Developpement durable au Maghreb, l'ouverture sur la Mediterranee et la valorisation du Patrimoine ecologique, humain et culturel, 27-29 avril 2000, Rabat, (en presse).

- En-Nachioui, E., 2001: "Approche a l'archeologie phenicienne et punique au Maroc", V Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici. Palermo.Marsala 2-8 ottobre 2000, (en presse).

- Euzennat, M., 1957: "Le temple C de Volubilis et les origines de la cite", BAM, t. II, pp.41-64.

- Euzennat, M., 1965: "Heritage punique et l'influence greco-romaines au Maroc a la veille de la conquete romaine", Huitieme Congres International, d'Archeologie.

Le Rayonnement des civilisations Grecque et Romaine sur les cultures periferiques, Paris, pp. 261-278.

- Faddadi, B., 1991: "Chapiteaux de Volubilis: etude de decor architectural", Aix-en-Provence.

- Fevrier, L.-G., 1955-56: "Inscription punique du Maroc", BCTH, pp. 29-35.

- Fevrier, P. A., 1989: "Approches du Maghreb romain, pouvoirs, differences et conflits", I. Aix -en-Provence.

- Gascou, J., 1978: "La succession des Bona Vacantia et les tribus romaines de Volubilis", A. A., t. 12, pp. 109-124.

- Gascou, J., 1982: "La politique municipale de Rome en Afrique du Nord. I. De la mort d'Auguste au debut du III siecle", Aufstieg und Niedergang de Romischen welt de Gruyter II-102, pp. 136-229.

- Lenoir, E., 1986: "Les fossiles directeurs et l'histoire des sites", Academie des Inscriptions des Belles-Lettres, pp. 239-245.

Lenoire, E., 1990; "Volubilis et son territoire au 1er siecle de notre ere: l'occupation des campagnes", Actes du Colloque sur l'Afrique dans l'occident romain, (Rome 1987), M.E.F.R., pp. 219-229.

- Luquet, A., 1956: "Prospection punique de la cote atlantique du Maroc", Hesperis, pp. 117-137

- Piquet, V., 1921: "Les civilisations de l'Afrique du Nord: Berberes-Arabes-Turcs", Paris.

- Rebuffat, R., 1986a: "Recherches sur le bassin du Sebou", Academie de Inscriptions et Belles-Lettres, pp. 633-661).

Rebuffat, R., 1986b: "Plaine et montagne en Tingitane Meridionale", Academie des Inscriptions des belles-Lettres", pp. 219-238.

- Roget, R., 1924: "Le Maroc chez les auteurs anciens", Paris.

- Sanine, A., 1911, "Le maroc il y a cent ans. (Souvenir du chirurgien W. Lempiere)", Paris.

- Taradell, M., 1960: "Historia de Marruecos: Marruecos punico", Tetuan.

- Thouvenot, R., 1939: "Les incurtions des Maures en Betique sous le regne de Marc-Aurele", R.E.A., pp. 20-28.

- Thouvenot, R., 1945: "Rome et les Barbares africains. A propos d'une inscription de Volubilis", P.S.A.M., VII, pp. 166-183.

- Thouvenot, R., 1949: "Volubilis", Paris.

- Tissot, Ch., 1877: "Recherches sur la geographie comparee de la Mauritanie Tingitane", Paris.

- Trigger, B. G., 1992: "Historia del pensamiento arqueologico", Barcelona.

أمل مجلتكم

اقرأها

ساندوها

اشتركوا فيها

العصور القديمة في المنظومة التربوية

عمر علمي امراني*

من بين الأنوار التي تتألق بالجامعة عامة نذكر الاهتمام بملامسة مناطق الإبداع في نوات مريديها، والعمل على تعهدها وصقلها مع الحرص على إضفاء رصانة البحث على المادة موضوع الدراسة.

ويترجم هذا الدور علمياً بضرورة تجاوز المعطى إلى البحث في الجنور وبالترفع عن الأجزاء إلى الكل وبوضع المادة على محك مقياس مدى درجة الانتفاع بها وتوظيفها في إطار يخدم الجامعة ومحيطها، وبهذا سنتجنب تقديم تعليم يلي تعليم آخر أو الاهتمام بملء الذاكرة عوض الاعتناء بتنقيف العقل.

وقد توقفت ورقة العمل التي تتعلق بهذا اليوم الدراسي "البحث في التاريخ القديم" في إبراز أهم القضايا التي ترتبط بهذا الموضوع ولا سيما أنه لأول مرة ينصب المجهود في محاولة لضبط المشاكل والمعوقات وتسجيل الملاحظات التي تهدف إلى العمل على تجاوزها.

في هذا الإطار يتم التعامل مع موضوع "العصور القديمة في المنظومة التربوية" انطلاقاً طبعاً، مما نسجله باستمرار من ملاحظات لها علاقة بالموضوع على مستوى التعليم الجامعي، من قبيل اتهام المادة بالصعوبة والتعقيد إضافة إلى مشكل المصطلح عامة وكذا تصور الزمن في علاقته بمسألة المنظور التاريخي عند المقارنة بين العصور القديمة والعصور الأخرى وما يثيره ذلك من تساؤلات. وإذا كنا ندرك بعض المشاكل المرتبطة بالموضوع في الجامعة عن قرب، فإنه يجب كذلك تتبع الموضوع في مرحلة ما قبل الجامعة، وهذا ما يدفعنا إلى طرح بعض الأسئلة مثل:

— ما هو موقع العصور القديمة في المقررات التعليمية لما قبل الجامعة؟ في محاولة لرصد ثم تجاوز المشاكل التي يمكن أن تعترض تدريس العصور القديمة بصفة عامة.

— وكيف يمكن تقريب مفهوم هذه العصور من التلميذ شكلاً ومضموناً ومنهجاً بطريقة علمية؟

فما المقصود بالعصور القديمة؟

إذا سلمنا بعملية التحقيب المتداول والتي يقسم الخط الزمني تبعاً لها، إلى عدة محطات؛ فإننا نجد العصور القديمة من بينها تشغل الحيز الزمني الأكبر ويقدر بآلاف السنين. إضافة إلى ما تتخللها من محطات حضارية تعتبر جد مهمة في سلم التطور الحضاري الإنساني. ويمكن حصر هذه العصور بين أقدم آثار خلفه الإنسان وظهور الكتابة في الألف الرابعة قبل الميلاد في أرض ما بين النهرين ومصر⁽¹⁾. وعليه يمكن التمييز فيها بين مرحلتين كبيرتين هما: مرحلة ما قبل الكتابة أو مرحلة ما قبل التاريخ ثم مرحلة أخرى ابتداء من ظهور الكتابة إلى بداية العصور الوسطى أو التاريخ القديم.

إن التعامل مع هذه العصور يعني الاهتمام بالإنسان في بيئته لأن الحضارة، بصفة عامة، نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته بظواهرها الجغرافية المختلفة حسب

الزمان والمكان⁽²⁾. وبهذا فالإنسان تاريخي بجوهره وهي خاصية تجعل منه يتعامل مع الماضي فيتذكره ويمكن أن يسجله بل أكثر من ذلك فهو مؤهل لكي يؤثر في الواقع ويتأثر به⁽³⁾. وهو أيضا تاريخي لأنه يعمل في الزمان بمعنى الزمن الإنساني "أي عمر الجنس البشري فوق كوكب الأرض"⁽⁴⁾.

والتعامل مع هذه العصور أو غيرها يتطلب أيضا وعيا صافيا ومجاوبة صادقة وعميقة لكي يصبح المهتم قادرا على الإنتاج. وهذا يفرض أن لا يكون التاريخ مجرد رواية للأحداث وتكرار للأخبار بل يتعداه إلى استجلاء معانيها وإلى تبيان آثارها في الحياة الحاضرة والمستقبلية بهدف تبين المصير وأعداده والتحكم فيه⁽⁵⁾.

فما هي الخطوة الأولى؟

تتمثل هذه في التثبيت بالنظرة العلمية الثاقبة التي لا تقبل غير العقل وسيلة وما يرتبط به من حقيقة كهدف. وهذا يقتضي التعامل مع الماضي بطريقة تبعد الفكرة المسبقة أو الفلسفة المفروضة أو الحكم الجاهز، وتعتمد على استحضار الماضي من أصوله اعتمادا على شواهد المادية والمكتوبة⁽⁶⁾. فتخضعها للفحص والتدقيق والنقد حسب قواعد العلم وأحكام العقل ثم العمل على ربط الحقائق النسبية المتوصل إليها فيما بينها لرسم صورة الماضي بمعنى الماضي الضروري لفهم الواقع والمفيد في صياغة المستقبل⁽⁷⁾. وكل هذا لتفادي كل حيرة أو اضطراب يمكن أن ينتج عن السؤال الخطير الذي يواجهنا باستمرار وهو أي ماض نريد إحياءه؟

العصور القديمة في مرحلة ما قبل الجامعة

سنركز على هذه المرحلة لأنها أساسية وأرضية ضرورية للتعامل مع الموضوع فيما بعد. فما هي المعطيات والأهداف المرسومة ثم الملاحظات أو المقترحات المرتبطة بالموضوع؟.

يلتقي التلميذ المغربي بأول إشارة عن التاريخ القديم عامة في السنة الأولى ثانوي، ويشتمل البرنامج في هذا المستوى عموماً على مدخل وثلاث محاور، وما يرتبط بالعصور القديمة لا يتعدى المدخل والمحور الأول.

ويهدف المدخل إلى « إعطاء نظرة عامة عن التطورات الحضارية الكبرى التي عرفها الإنسان الأول خلال عصور ما قبل التاريخ »⁽⁸⁾.

أما المحور، الذي يدور حول الملامح التاريخية والحضارية للعالم في العصر القديم، « فيتم التركيز فيه على نماذج اختيرت من الحضارات القديمة وخاصة منها حضارات منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، التي تعد من أعرق الحضارات العالمية »⁽⁹⁾. وترجم ذلك على شكل دروس كالاتي⁽¹⁰⁾:

— المظاهر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للحضارات القديمة.

— الحضارة القرطاجنية في شمال إفريقيا.

— شمال إفريقيا بين الممالك الأمازيغية والحكم الروماني.

إن الأهداف المرسومة والمسطرة في دليل البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بتدريس الاجتماعيات بالتعليم الثانوي⁽¹¹⁾ والمرتبطة بالعصور القديمة على الخصوص، تجعل المهتم يدرك أنها أهداف جد طموحة وجد هامة، إلا أن السؤال المطروح هو هل يمكن بلوغها حقاً؟ والسؤال هنا، طبعاً، يرتبط بمدى توفر الشروط الضرورية لذلك ولو على المستوى المعرفي الذي تركز عليه الأهداف النوعية لمادة التاريخ في هذا المستوى⁽¹²⁾.

لكن بعض الملاحظات تجعلنا نشك في ذلك، وتتلخص، في كون الحيز المخصص للعصور القديمة والمادة المقترحة لن تتمكن من بلوغ تلك الأهداف، لأنها قليلة جداً بالنظر لتلك الأهداف من جهة وكثيرة جداً إذا ما قورنت بالحيز الزمني المخصص لها في إطار مقرر السنة الأولى ثانوي من جهة أخرى؛ الأمر الذي سيحدث نوعاً من القلق إن على مستوى المرسل أو المستقبل، وهو اضطراب مرتبط بمحاولة إعطاء الكثير في وقت وجيز سيما إذا وضع جدول تاريخ الامتحان

كهدف رئيسي في العملية. ناهيك عما يمكن أن ينتج عن ذلك من خلل، أو تقصير عند إهمال بعض العناصر المساعدة لإنجاح العملية التربوية.

إن رسم أهداف معرفية تتطلب شروطا لبلوغها، فالمعرفة تقتضي، حسب بلوم، التذكير بالأحداث الخاصة والطرق والمناهج وكذلك البنيات النظرية. وعلى الذاكرة، من الناحية البيداغوجية، صيانة تلك المعلومات. إن في مرتبطة أكثر بالمرسل الذي يخبر، على خلاف الأهداف التكوينية كعناصر الفهم والتطبيق والتحليل والتركيب والتقييم التي ترتبط بالمستقبل كمساهم فعال في اكتساب الخبرة. إن عنصر المعرفة يتطلب شروطا أساسية مثل:

— معرفة المعطيات الخاصة، التي يتوخى منها التذكير بوحدة إخبارية وخصوصية كقاعدة ينطلق منها لتنمية أعمال أكثر تركيبا وتعقيدا: مثل معرفة المصطلحات أو معرفة الأحداث الخاصة كما جاءت في تصنيفات بلوم المشهورة. وإذا كانت المعطيات المرتبطة بعنصر المعرفة في هذا الاتجاه يعهد بها إلى ذاكرة التلميذ فإنه يمكن استعمالها فيما بعد في إطار تكوين فكري حقيقي. إلا أنه لتسهيل العمل على الذاكرة، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الحثيات الآتية:

— ضرورة ترتيب المادة ترتيبا منطقيا مع الإيجاز وتشجيع المستقبل إلى جانب التكرار واستغلال بعض العناصر التي تساعد المستقبل على التذكر. فهل تتوفر مثل هذه الأرضية للتلميذ لكي يستطيع ولوج أبواب عناصر التكوين في الثانوي أو في الجامعة؟ المهم أن نعمل دائما، في مستوى أعلى، على تفادي بعض الأهداف التي تم تجاوزها في مستوى سابق.

وإذا رجعنا لمستوى السنة الأولى ثانوي يمكن أن نعتمد ما جاء في المدخل كمثل ونبتأوله بعد أن نعيد ترتيب أهم عناصره كالاتي:

— ما قبل التاريخ: — الإنسان الأول — التطورات الحضارية الكبرى. وقد سبقت الإشارة إلى أن العصور القديمة عامة قسمان يفصل بينهما ظهور الكتابة. والتحديد في هذه العصور يتم أساسا اعتمادا على بعض الظواهر الحضارية، مثل الكتابة

هنا، لما تحدثه مثل هذه الظواهر من تحولات واضحة تجعل الباحث يدرك التغيير الذي حدث ويميز بين مرحلة سابقة وأخرى لاحقة أعقبها سلبا أو إيجابا. وهكذا فمرحلة ما قبل الكتابة أو ما قبل التاريخ تبتدئ مع أقدم ما عثر عليه من مخلفات الإنسان وليس بظهوره كما يتداوله البعض. وعليه فإن المهتم بهذه العصور سوف يركز على الشواهد المادية الصرفة، بينما المهتم بمرحلة ما بعد ظهور الكتابة على شواهد مادية وأخرى مكتوبة. ومن هنا جاء التمييز بين عصور ما قبل التاريخ وعصور التاريخ. الأمر يوضح أن هذين المصطلحين يحملان معنى منهجيا أكثر منه تقسيما زمنيا صرفا وإن كان هذا لا يتناقض مع ذلك أيضا لأن ما حدث يرتبط بالإنسان في الزمان والمكان.

انطلاقا من كل ذلك فإن دارس ما قبل التاريخ سوف يتعامل مع البيئة الطبيعية التي عاش فيها الإنسان منذ مراحل الأولى كما يهتم بمخلفاته لفهم ماضيه. وأنماط عيشه وما عرفه من تطورات خلاله. وكل هذا يفرض على هذا الباحث التعامل مع علوم أخرى لتساعده على القيام بذلك مثل علم الجيولوجيا والمناخ القديم والحفريات القديمة والأنثروبولوجيا والإنتولوجيا والأركيولوجيا، والنبات القديم والحيوان القديم والبيدولوجيا ثم العمل على التنسيق والتوفيق بين نتائجها المختلفة.

— الإنسان الأول⁽¹⁾ وهو الذي يتميز بصفة عامة بكونه منتصب القامة أي يقف على قدمين ويحسن استخدام يديه وله عقل يفكر به ولسان يتفاهم به مع غيره من البشر. وقد مر الإنسان بمراحل تطور مهمة تشهد على تلك التطورات التي عرفتتها جمجمته وأدواته وصناعاته المختلفة حسب العصور وكذلك حسب بيئاته المختلفة.

أما الحديث عن التطورات الحضارية الكبرى⁽²⁾، فيقتضي ضبط محطات التطور التي عرفها الإنسان القديم، حسب ما قدمه لنا الباحثون الأركيولوجيون والباحثون الآخرون كل في مجال تخصصه. وبعد تصنيف مختلف اللقى التي عثر عليها بمختلف المواقع القديمة، اتضح أن الإنسان مر بمرحلتين أو عصريين رئيسيين هما:

● مرحلة استخدام الحجر وتضم مرحلتين:

– العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) بأقسامه الثلاثة : الأسفل – الأوسط – الأعلى.

– العصر الحجري الحديث.

● مرحلة استخدام المعدن، ويقسم بدوره إلى:

– عصر نحاسي – عصر برونزي – عصر حديدي.

مع الإشارة إلى وجود فترتين مشكوك في أمرهما ربما لأنهما انتقاليتان ليس لهما بداية واضحة:

الأولى تعرف بفجر الحجري (أبوليتيك) قبل المرحلة والثانية هي العصر الحجري المتوسط (الميزوليتيك) بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. كل تلك العصور الحضارية لها خصائصها ومظاهرها في شتى المجالات كنتيجة موضوعية لتفاعل الإنسان مع بيئته⁽¹⁵⁾. مع إشارة مفادها أنه يجب أن لا نعتبر أي عصر حضاري عصرا مطلقا مرت به الإنسانية في كل مكان في وقت واحد، ذلك أن البداية والنهاية تختلف من إقليم لآخر.

أما فيما يتعلق بمجال التاريخ فإننا نجد المحور المتعلق به «يختص بالعصر القديم، حيث يتم التركيز فيه على نماذج اختيرت من الحضارات القديمة، وخاصة منها حضارات منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط التي تعد من أعرق الحضارات العالمية ...»⁽¹⁶⁾.

قبل كل شيء تجب الإشارة إلى أن الأزمنة التاريخية مرحلة قصيرة جدا بالمقارنة مع أزمنة ما قبل التاريخ بنسبة حوالي 1 على 100 أو أقل.

أما فيما يخص تلك المقدمة فإن ما يثير الانتباه فيها يتمثل في كونها تجمع بين تيارين متناقضين في دراسة الحضارة. فهي تختار نماذج من الحضارات القديمة فتركز عليها من جهة وتهتم أكثر بحضارات منطقة حوض البحر المتوسط من جهة أخرى، والتيار الأول نجده يساير الرأي الذي ينادي بوجوب «دراسة

تاريخ الأمم التي بلغت الحضارة فيها أعلى ذروة يمكن أن تصل إليها في أي مكان من العالم»⁽¹⁷⁾ وبالتالي فهو يدعو للاهتمام فقط بدراسة حضارات القمم وإهمال ما دونها، إلا أنه لو سرنا في هذا الاتجاه فإننا سوف نجحف بحق الحضارات "الأقل شأنًا" والمعاصرة لها⁽¹⁸⁾. ناهيك عما تحمله من معان لاستعراض القوة والتعصب واحتقار الآخرين. أما التيار الثاني فيدعو إلى دراسة التاريخ والحضارة على أسس التقسيمات الطبيعية وهو اتجاه مقبول على اعتبار أن الأساس الجغرافي يمثل علم المكان وهو ركن مهم من أركان الظاهرة التاريخية ولأن البيئة تعتبر مسرح العملية التاريخية⁽¹⁹⁾. وبهذا يمكن أن نتجاوز حتى المشاكل الأخرى التي يطرحها اعتماد الأساس العرقي أو اللغوي أو السياسي أو غيرها في موضوع دراسة الحضارات. صحيح يمكن أن يواجهنا في بعض الأحيان مشكل انتشار الحضارة على أكثر من إقليم إلا أنه يمكن تجاوزه بالتركيز على المنطقة الأم. وهكذا يبقى اعتماد أساس الإقليم الجغرافي الاتجاه الأقل خطورة بل والأسلم، وكمثال على هذا نجد منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط تشكل وحدة جغرافية وحضارية واضحة المعالم وهي التي تشمل حضارة مصر وساحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق وبلاد الرومان وإفريقيا الشمالية إضافة إلى الجزر ككريت وقبرص وجزر بحر إيجه.

التاريخ القديم كمصطلح.

ظل الدارسون في أوروبا زمنا طويلا يعتبرون تاريخ الإغريق والرومان يطابق التاريخ القديم، وكان هذا الاعتقاد، طبعاً، مرتبطاً بمسألة الانتماء الجغرافي والأساس الثقافي والموقف العاطفي⁽²⁰⁾. إلا أنه قد تم التراجع عن هذا الاعتقاد بعد الاطلاع على الحضارات الشرقية والتأكد بأن الحضارتين اليونانية والرومانية تشمل بدورها عناصر كثيرة ومتنوعة من الحضارات الشرقية⁽²¹⁾. وهكذا نستخلص أن مصطلح التاريخ القديم بمعناه الواسع حديث العهد. وإن استعملت مصطلحات أخرى في نفس معناه مثل:

— العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية.

— أو عصر ما قبل الإسلام في ش. ج. العربية وإفريقيا الشمالية.
— أو تاريخ الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق وسوريا وفلسطين وتركيا وإيران.

— أو تاريخ الإغريق والرومان في حوض البحر المتوسط..
إلا أن فحص كل مصطلح على حدة يبين لنا ما يمكن أن نقع فيه من خلط وسوء فهم إذا لم نضع تلك المصطلحات في إطارها الصحيح، ناهيك عما يمكن أن يحمله هذا المصطلح أو ذاك من التباس ومن أفكار مسبقة أو مواقف معادية لجماعات بشرية معينة أو لحضارتها؛ ذلك أن الاهتمام بالتاريخ القديم في بعض الأحيان اتجه اتجاهها لا يخلو من أهداف يمكن أن تصبح جد خطيرة إذا لم يتم التحكم في مناهجه وطرق تدريسه والبحث فيه، ومن بين الأمثلة على ذلك نجد أن الاستعمار الغربي قد شجع على إحياء هذا التاريخ بالمعنى القطري بهدف بعث العصبية القديمة وجعل كل قطر يفاخر البلد الآخر بمجده العريق، وهذا كاف لبث روح الإقليمية والشعوبية الضيقتين وخلق جيل من المتعصبين ثقافيا وسياسيا.

وكذلك الأمر بالنسبة لمصطلح "عصر ما قبل الإسلام" فإذا دققنا النظر في هذا المصطلح فسوف نجده يتعامل مع هذه العصور وكأنها لم تعرف رسالات سماوية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بل نجده كذلك لم يعط لكلمة إسلام بعدها ومدلولها التاريخي الاعتقادي. ويكفي أن نقرأ قوله تعالى: ﴿وأوصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون﴾⁽²²⁾.

وقال سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾⁽²³⁾.

وعلى لسان موسى عليه السلام: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾⁽²⁴⁾.

بصفة عامة، يبرز السياق في ثنايا هذا العرض التاريخي:

أن الإسلام - بمعنى إسلام الوجه لله وحده - كان هو الرسالة الأولى، وكان هو الرسالة الأخيرة... هكذا اعتقد نوح عليه السلام وهكذا اعتقد إبراهيم ومن بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى... ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين مع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ونستخلص من كل هذا أن مصطلح "ما قبل الإسلام" مصطلح في غير محله لأنه يجعل تاريخ المنطقة العربية تاريخا وثنيا جاهليا لا أثر فيه للإسلام ولا لرسالات سماوية قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ومن الأفيد استبداله بمصطلح "قبل البعثة المحمدية" أو ما قبل الفتح الإسلامي في منطقة شمال إفريقيا. وعن هذه المنطقة الأخيرة فإنه يبدو أن الموضوعين المشار إليهما في محور التاريخ القديم في مستوى السنة الأولى ثانوي لا يفيان بالغرض والمطلوب لإعطاء أرضية صحيحة وسليمة لدراسة تاريخ المنطقة في هذه المرحلة، ذلك أنه لا بد من دراسة المسرح الجغرافي للمنطقة منذ أقدم العصور ثم دراسة التطورات الحضارية التي عرفتها المنطقة أثناء عصور ما قبل التاريخ. إضافة إلى التغيرات التي طرأت على المجتمعات الرعوية الزراعية في شمال إفريقيا من عصر المعادن، وكذلك الأوبار التي لعبتها العناصر المهاجرة إلى المنطقة وما ترتب على ذلك إلى تأسيس المدن الفينيقية. بعد ذلك يمكن تتبع آثار الحضارة اليونانية الرومانية في المنطقة وانعكاسات الضغوطات الأجنبية على المنطقة في شتى المجالات ورفض سكان المنطقة الانحلال في حضارة الغزاة الذين احتلوا البلاد بالقوة وهو تعبير صحي عن إرادة الإنسان في التحرر من السيطرة الأجنبية والتمسك بالخصائص الذاتية والحضارية.

صحيح لا يمكن القيام بكل هذا إلا إذا أعيد الاعتبار لدراسة هذه العصور القديمة بدراسة علمية سليمة تأخذ بعين الاعتبار أبعادها المختلفة في الزمان والمكان مع تجاوز تلك النظرة السطحية التي تختزل آلاف السنين في بضع فقرات. وبصفة عامة فإن العصور القديمة جزء لا يتجزأ من الماضي وأساس للعصور التي أعقبتها، الأمر الذي سيجعل من دراستها ومحاولة فهمها بطريقة علمية، خدمة لهذه وإسهاماً في تطور البحث فيها وفي فهمها وحل بعض مشاكلها، ومن الواجب إعطاؤها ما تستحقه من عناية في منظومتنا التربوية.

المواشر:

- (1) — سرتون، تاريخ العلم، دار المعارف، مصر، ط 3، 1976، ج 1، ص. 76 و 152.
- (2) — د. رشيد الناضوري، تاريخ المغرب الكبير، ج 1، العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص. 49.
- (3) — قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1974، ص. 22.
- (4) — د. مصطفى أبو ضيف أحمد، منهج البحث التاريخي بين الماضي والحاضر، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1، 1987، ص. 8.
- (5) — قسطنطين زريق، المرجع السابق، ص. 23.
- (6) — عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالات المطبوعات، الكويت، ط 3، 1977، صص. 183 — 184.
- (7) — د. حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، دار المعارف، مصر، ط 4، 1976، ص 81 وما بعدها.
- (8) — برنامج وزارة التربية الوطنية المعتمد منذ 94، ط. 1999 — 2000، ص. 3.
- (9) — نفس المرجع السابق، ص. 3.
- (10) — نفس المرجع السابق، ص. صص. 16 — 46.
- (11) — البرنامج والتوجيهات التربوية الخاصة بتدريس الاجتماعيات بالتعليم الثانوي، 1994، صص. 9 — 11.
- (12) — نفس المرجع السابق، صص. 9 — 10.
- (13) — Jan Jen Linek, *encyclopédie illustrée de l'Homme préhistorique*, Gründ, Paris, 1975, Ch. I. II. III. IV.
- (14) — د. محمد رياض، الإنسان، دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية، ط 2، بيروت، 1974، صص. 88 — 119.
- (15) — نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات.
- (15) — د. محمد رياض، المرجع السابق، ص. 112 وما بعدها.

عبد الفتاح محمد وهيب، مصر والعالم القديم، جغرافية تاريخية، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص. 83 وما بعدها.

- (16) — برنامج وزارة التربية الوطنية للتاريخ، السنة الأولى الثانوية، المرجع السابق، ص. 3.
- (17) — سيد أحمد الناصري، قضية التاريخ القديم، المكتبة الثقافية، ع 272، 1971، ص. 52.
- (18) — المرجع السابق، ص. 53.
- (19) — مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص. 10.
- (20) — سيد أحمد الناصري، المرجع السابق، صص. 110 — 112.
- (21) — جورد سارتون، تاريخ العلم، المرجع السابق، ص. 242 و صص. 246 — 271.
- جعفر آل ياسين، فلاسفة يونانيون، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت، ط 2، 1975، ص. 17.
- (22) — سورة البقرة، الآيتين: 131 — 132.
- (23) — سورة يونس، الآية: 72.
- (24) — سورة يونس، الآية: 84.

دراسة التاريخ العربي القديم وأثره على الحضارة الإنسانية

علي العشاق*

مقدمة

تكمن أهمية التاريخ القديم في كونه الدعامة النظرية لكل ممارسة سياسية واجتماعية واقتصادية معاصرة. وفي محاولة معرفة الماضي الإنساني لاستخلاص العبر أولاً، والوقوف على ما حققته البشرية في سيرورتها التاريخية من تقدم في شتى المجالات التي تتماشى وطبيعة الإنسان(1).

أما الحضارة فهي مختلف أنشطة وسلوك الإنسان التي لا تعتبر أفعالاً انعكاسية فطرية أو غرائزية. وهي تشمل مظاهر متعددة منها اللغة والدين والأخلاق والنظم والعادات والتقاليد القانونية والاقتصادية والاجتماعية والفنون على اختلافها والصناعة وكل ما يجب على الإنسان أن يتعلمه من إخوانه أفراد مجتمعه(2).

انطلاقاً مما تقدم نستنتج أن التاريخ والحضارة مرتبطان أحدهما بالآخر أشد

* أستاذ باحث بكلية الآداب - مكناس.

ارتباط، ولا يستطيع الإنسان أن يتحدث عن الحضارة حديثًا معقولًا إلا إذا عرف ماهية التاريخ معرفة معقولة(3). لذا كانت دراسة الماضي أساسية لنهوض الدول خاصة وأن التاريخ القديم بوجه عام يشمل القسم الأعظم من تاريخ الإنسان حيث استغرق حوالي 96 % من تاريخ البشرية.

وقد بدأ هذا التاريخ في أقدم ظهوره قبل مئات الآلاف من السنين، أما نهايته فتختلف من منطقة إلى أخرى، وباعتبار الأحداث الهامة التي وقعت في كل منطقة من العالم وغيرت مجرى التاريخ العام.

زمنية التاريخ القديم

ففي الشرق الأدنى ينتهي التاريخ القديم عند الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي، وانتشار العرب المسلمين في مختلف أرجاء المنطقة ويبدأ التاريخ الحديث مع بداية التاريخ العربي الإسلامي. أما في أوروبا فقد عد تاريخ سقوط روما عام 476 م نهاية للتاريخ القديم فيها. وفي المناطق الأخرى من العالم تختلف نهاية التاريخ القديم حسب التطورات التاريخية الهامة في كل منطقة.

ومن التقسيمات الأخرى التي استخدمت للتمييز بين العصور المختلفة التي مرت على الإنسان، تقسيم العصور إلى عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية. وقد عد تاريخ ابتداء الكتابة كوسيلة للتدوين حدا فاصلا بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية. وحيث أن تاريخ الكتابة لم يكن في فترة زمنية واحدة في مختلف أرجاء العالم، لذا فإن بداية العصور التاريخية تختلف هي الأخرى من منطقة إلى أخرى تبعا لتاريخ ابتداء الكتابة في المنطقة المعنية. ففي العراق كان اختراع الكتابة أواسط الألف الرابع قبل الميلاد (3500 – 2833 قم)(4).

وفي مصر كان أواخر الألف الرابع قبل الميلاد(5). بينما في اليونان كان في حدود القرن التاسع قبل الميلاد. وفي الأجزاء الشمالية من أوروبا ظلت الكتابة غير معروفة حتى القرن الأول قبل الميلاد.

مصادر التاريخ العربي القديم

إلى غاية القرن التاسع عشر، لم يكن معروفاً عن هذا التاريخ سوى ما ورد في كتاب التوراة والمصادر الكلاسيكية لمؤلفين يونانيين ورومانيين، وما ذكره الرحالة والسياح الأوروبيين الذين أتوا للشرق الأدنى في زيارات متعاقبة منذ القرن الثاني الميلادي فصاعداً، أو ما كان رائجاً من أساطير وخرافات تحكي أحداث المنطقة ويتعلق أغلبها بالجانب العقائدي لسكان بلاد الشرق الأدنى القديم.

ولم تبدأ التحريات الأثرية ببلاد الشرق الأدنى إلا عام 1842 وكانت هذه البداية مرحلة تنقيبات الهواة التي تميزت بالنبس والحفر المشوش البعيد عن الأساليب العلمية المتبعة في علم الآثار. وكان المنقبون في هذه المرحلة قناصل لبلدانهم ووكلاء تجاريين. أما التنقيبات العلمية فلم تبدأ إلا سنة 1889 بالتنقيبات الألمانية بمدينة بابل العراقية (6).

وإذا كانت هذه هي مصادر التاريخ العربي القديم، فإن الحقائق التاريخية لم تصلنا كاملة ولا مطابقة كما وقعت. فقد نقلت إلينا من خلال كتابات وأعمال متعددة قام بها مؤرخون وغير مؤرخين، جلها كانت أوربية وبقيت إلى عهد قريب (القرنين الأخيرين)، حيث كان لمجموعة المؤسسات الفكرية والجامعية الغربية دور الريادة ولا يزال في الكشوفات الأثرية في المنطقة العربية منذ أكثر من قرن وبالضبط مع عهد الاستعمار – مع حملة نابليون بونابرت على مصر واكتشاف حجر رشيد وفك رموزه على يد شامبليون العالم الفرنسي – مما أتاح لها فرصة كي عنق الموروث التاريخي، في جانبه المادي والروحي والفكري لصالح أطماع استعمارية وصهيونية بالأخص – لأن عدداً من الرحالة والأثريين كانوا ممن نذر نفسه لخدمة أهداف الكتاب المقدس (7) – وكذلك لتبرير تطلعات الغرب في السيطرة وفي المراهنة على أقلية إثنية تستخدم كحصان طروادة الأسطوري. ويزكي ذلك، انتشار معاهد للآثار الشرقية في عدة أماكن من العالم، هدفها الأول هو البحث عن المواقع التي وردت أسماؤها في التوراة. ومن أبرزها:

- (1) American Palestine Exploration Society تأسست 1870.
- (2) American School of Oriental Research تأسست 1900.
- (3) Ecole Pratique d'Etudes Bibliques تأسست 1892.
- (4) Deutsche Evangelische Institut für Altertum Wissenschaft des Heigen Landes تأسست 1902.
- (5) The British School of Archaeology-Jérusalem تأسست 1919.

المستشرقون والتاريخ العربي القديم

وقد اعتمد علماء الآثار المشتغلون في هذه المعاهد على التوراة كمصدر تاريخي وحيد للعهد القديم، وقد اشتهر منهم ليبرايت وغلوك ورايت. إلا أن جهودهم الأثرية المبذولة بالخصوص في بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) (8)، لم تقدم أي دليل تاريخي يؤكد الأحداث التوراتية، ورغم ذلك ما زالت هذه المعاهد ماضية في رسالتها، حيث تمول كثيرا من البعثات الأثرية في الأراضي العربية، ولكن أعضاء هذه البعثات كثيرا ما أذهلتهم الحقيقة — أن حجم المكتشفات الكبير يجعل علم الآثار مستقلا عن الأحداث التوراتية المحدودة. وبهذا تبتعد عن أن تكون أساسا لمعرفة التاريخ. وحتى العلماء اكتشفوا في القرن الماضي أنه لا سبيل لتأكيد أحداث صغيرة وقد تكون خيالية والتي تحكمها العواطف الدينية (9). ومع ذلك نلاحظ أن الكتابات الأوربية حول حضارة الشرق الأدنى القديم (بلاد ما بين النهرين ومصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية) جعلت من تاريخ المنطقة تاريخا دوغماتيا وتاريخا مقسما — أو ممزقا — إلى عدة عصور مرتبة ترتيبا تاريخيا عشوائيا، ولا يوجد رابط حقيقي من صميم التاريخ العربي يربط هذه العصور ببعضها البعض لكي تكون لنا في النهاية تاريخا متكاملًا للمنطقة العربية.

فقد حاول الأوربيون إثبات عدم وجود وحدة قومية حقيقية تجمع شعوب المنطقة العربية قديما تأصيلا لفكرتهم الأساسية في تفتيت المنطقة العربية وتجزئتها عن طريق اعتبار الشعوب السامية، كشعوب مستقلة عن العبريين والكنعانيين

والفينقيين والأراميين والعرب والأكاديين، وتواريخ خاصة باليمن مستقلا عن شبه الجزيرة العربية. والهدف من كل هذا كما سبق ذكره هو تأكيد النزعة الإقليمية عند شعوب الشرق الأدنى العربي وتفتيت علاقاتها ببعضها البعض، فإذا كانت المعرفة التاريخية هي من إنتاج المؤرخ (لكن هذا لا يعني أنها خيال صرف أو أنها ملكا خاص له بل إن المادة التاريخية مستقلة عن ذهن المؤرخ) وأن له دور في بناء المعرفة التاريخية "الفرق بين الموضوعي والذاتي مرحلي ومتطور باستمرار في البحث التاريخي كما هو في غيره من البحوث العلمية" (10). فإن المستعمر الأوربي جعل من التاريخ العربي القديم تاريخا مصنوعا يبرز فصله باستعمار البلاد العربية. وأمام تشويبه وتقسيمه بقينا نحن معشر المؤرخين العرب تستأسرنا تقاليد جليلة قد عفا عليها الزمن، وتقوى عليها مهابة العلم الأوربي، فمكثنا عاجزين عن استعمال مكتشفات علم الآثار الحديث وتركناها وقفنا على الباحث الغربي والصهاينة، فجاء عدد كثير منا واعتمدوا هذا التاريخ المصنوع عفوا وغفلة أو قصدا واستنامة، فأصبح هذا التاريخ يمثل جانبا من ماضينا الضعيف المخزي، إلا أنه لا يدل على وعينا الحاضر ولا يوافق أملنا في الوثوب إلى مستقبل أليق بنا، فكانت الحضارة العربية أسيرة هذا التاريخ الذي رسم لها صورة غير صورتها الحقيقية وأثر على تطورها وتقدمها ومن بعد على الحضارة الإنسانية جميعها.

فحتى لما تحررت معظم البلدان العربية من الاستعمار التقليدي، وذلك ابتداء من النصف الثاني من القرن الماضي، بدأ المؤرخون العرب يكتبون عن تاريخ الحضارة العربية، إلا أن تلك الكتابات ظلت محصورة في مواضيع عن الحروب، والأبطال، والملوك، بل طبعته النزعة القبلية الضيقة، مما جعله تاريخا يفتقد الوحدة القومية والتواصل العربي، يربط أجزاء تاريخ الشرق العربي بعضها ببعض من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر. كما نجد كتابات انبهرت وعاشت في السحر الماضي والحنين إليه والاكتفاء به على أنه وحده المثل الأعلى، وعدم

الرغبة في تحطيمه وكذلك النظر إلى الحاضر والمستقبل بأفكار الماضي وسننه وأشكاله ودوافعه دون الانتباه إلى تغيير الظروف وتبدل الأحوال.

شروط إعادة كتابة تاريخ عربي موحد

وإذا كانت هذه العلة الأساسية – غياب الرؤية القومية في التاريخ العربي القديم – قد أصابت التاريخ العربي، فإن أسبابها تعزى بالأساس إلى :

1 – دور الاستشراق في التأثير على أسلوب ومنهج الكتابة التاريخية لدى المؤرخين العرب خلال القرنين الأخيرين، حيث عمل الاستشراق على تقوية النزعات الإقليمية من خلال القيام بكتابة تواريخ مستقلة للشعوب العربية، وتشجيع المؤرخين العرب على تناول تاريخهم تناولاً محلياً إقليمياً. وقد عمل المؤرخون من المستشرقين وأتباعهم على تدعيم النزعات الإقليمية من خلال تفسير التاريخ العربي تفسيراً يقوي انفصال الشعوب العربية عن بعضها البعض ويفتت أصول وحدتها في القديم ويدحض دواعي هذه الوحدة في الحاضر، ومن المعروف أن الاستشراق كحركة فكرية ارتبط بالاستعمار كحركة سياسية عسكرية واقتصادية – فقد حاول الغربيون من خلال العلم والفكر تسهيل الاستعمار في العالم العربي الإسلامي (11) – عن طرق تطوير الاتجاهات القطرية في تفسير التاريخ العربي القديم.

2 – التخلف العلمي ودوره في إهمال دراسة التاريخ العربي القديم. فرغم التقدم الذي عرفه علم التاريخ وعلم الآثار في القرنين الماضيين، ظل التخلف العلمي يطغى على العرب والمسلمين وشكل لهم عائقاً أمام الاهتمام وتتبع آثار التاريخ القديم، كما أن عدم توفر المادة العلمية الكافية لإثبات أحداث التاريخ العربي القديم والبرهنة عن أصالة هذا التاريخ، وإعادة كتابته في شكل متكامل يوضح الصلات العضوية الرابطة لشعوب المنطقة العربية قديماً وحديثاً، ترك التقدم في هذا المجال مقتصرًا على الغربيين.

فأمام هذه الوضعية لا بد أن تتظافر الجهود العلمية العربية في سبيل الكشف عن آثار شبه الجزيرة العربية وبقية المناطق المجهولة من المنطقة العربية القديمة

بما فيها شمال إفريقيا، وإعادة كتابة تاريخ عربي يتلاءم وطموحات شعوبه، وذلك بالوقوف على الماضي بروح الحاضر والمستقبل حتى يصبح التاريخ حافظاً يدفعنا إلى الأمام وينمي قابليتنا ويقوي مقدرتنا على صنع التاريخ الجديد (12)، إن عادت إليه الأجيال اللاحقة فقراته ووجدت فيه أسباب العزاء والسلوى، أكثر مما تجد فيه من أسباب التعاسة والبؤس (13). ولن يتم ذلك إلا إذا أخذ بعين الاعتبار ما يلي:

1 - توجيه الأبحاث التاريخية والعلمية المختلفة لخدمة هذا الهدف، وتنشئة جيل جديد من الباحثين المتخصصين في علمي الآثار والتاريخ والمدرسين على التكنولوجيا الجديدة.

2 - التأكيد على الوحدة الحضارية للمنطقة العربية منذ القدم (فترة ما قبل الإسلام: 3000 ق م) والعمل على إثبات صلات القربى بين شعوبها، واستمرارية هذا في التاريخ إلى وقتنا الحاضر.

3 - البحث عن خصوصية تاريخية خارجة عن القياسات الأوروبية (خصوصية قومية قديمة قدم هذه الحضارة)، تسترشد خطاها من مقومات أخرى يلعب الدين واللغة والعادات ووحدة الأصل دوراً كبيراً فيها (14).

4 - دراسة الأصول المكتوبة انطلاقاً من اللسان والكتابة العربيين، بحيث يمكن أن نبين بوضوح مغزاها التاريخي كروابط حيوية بين شعوب المشرق وحضارته.

5 - وضع إطار تاريخي موحد قادر على استيعاب التاريخ العربي بكامله. وتقسيم العصور التاريخية تقسيماً جديداً ينطبق على تاريخ الإسلام خاصة.

6 - تنقية التاريخ العربي من الإسرائليات وكر البصر في تاريخ العبرانيين لأنه تاريخ مصنوع.

7 - الابتعاد عن الكم والانتقال إلى الكيف وذلك باختيار الأحداث التي تركت أثراً حضارياً باقياً (15).

والتأكيد على هذه النقط من شأنه تسهيل مهمة المؤرخ العربي تجاه تحقيق مصلحة الأمة العربية في التاريخ فتبرز استقلالية الأمة العربية من جهة، وفصلها على التاريخ الإنساني العام من جهة أخرى.

وفي نفس الوقت ينمحي أثر الاستشراق على أسلوب ومنهج الكتابة التاريخية لدى المؤرخين العرب، ويعوض إهمال المؤرخ العربي لدراسة تاريخه القديم، بالوقوف عليه وجعله حافزا يدفعه إلى الأمام وينمي قابليته على صنع تاريخ عربي جديد.

الموامش:

- (1) — وول ديورانت، قصة الحضارة، ج 1، ترجمة محمد بدران، بإشراف جامعة الدول العربية، 1955.
- (2) — حسين مونس، الحضارة، سلسلة عالم المعرفة، العدد الأول.
- (3) — عمر فروخ، تجديد التاريخ في تعليقه وتلويحه، طبعة أولى، دار الباحث، بيروت — لبنان، 1980.
- (4) — محمد وحيد عياط، فجر الحضارة في سومر، السلسلة التاريخية، ص. 24.
- (5) — عامر سليمان وأحمد مالك الفتیان، محاضرات في التاريخ القديم "موجز في تاريخ العراق ومصر وسوريا وبلاد اليونان والرومان القديم"، بغداد 1978، المكتبة الوطنية.
- (6) — أحمد سوسة، حضارة وادي الرالدين بين الساميين والسومريين، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980.
- (7) — محمود طالب، آثار الأردن وفلسطين، 1977، ص. 8.
- (8) — نفس المصدر، ص. 20.
- (9) — عفيف البهنسي، انعكاسات على اكتشاف وثائق إبلا التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، مجلة الفكر العربي، عدد 52، 1988، ص. 94.
- (10) — عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المفاهيم والأصول، ج 2، بيروت، 1992، ص. 317.
- (11) — محمد خليفة أحمد، الوحدة الثقافية للمنطقة العربية في التاريخ القديم، مجلة الوحدة، عدد 42، سنة 1988، ص. 19 — 110.
- (12) — قسطنطين زريق، لحن والتاريخ، طبعة 3، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.
- (13) — حافظ الجمالي، ملاحظات حول التاريخ، المعرفة السورية، العدد 170، نيسان 1976.
- (14) — وول ديورانت، قصة الحضارة، ج 1، القاهرة، 1955.
- (15) — عمر فروخ، تجديد التاريخ في تعليقه وتلويحه، ص. 14.

فسيفساء المغرب القديم بين ضراوة الأحكام المسبقة ، هاجس التخصص، وتعددية المشارب

البيضاوية بلكامل.

آثرت المشاركة بموضوع « فسيفساء المغرب القديم بين ضراوة الأحكام المسبقة ، هاجس التخصص، وتعددية المشارب » رغم وعي بأن الأعمال المغربية لم يمض عليها بعد عقدين من الزمن ، وقناعتي بأنها تتدرج جميعها في إطار أبحاث جامعية ⁽¹⁾ ، وبعضها فقط عبارة عن مداخلات في إطار ملتقيات علمية ولكن لم يكتب لمعظمها النشر لأسباب تخرج عن إرادة المساهمين بها . ، لم يتحقق حولها الانتشار والمعرفة اللذين يسهمان في اطلاع المهتمين أو عموم القراء بمستجداتها ⁽²⁾ .

وفي اعتقادنا الخطوات الأولى هي التي تحتاج لتقويم من أجل استشراف المستقبل . فالنقد البناء وحده الكفيل بإعادة الهيكلة ، أي تصحيح مسار البحث ، أو تنبيئه ، بمعنى آخر التشجيع على المضي قدما في النبش لخلق التراكمات اللازمة .

بديهي ، أن هذه الابحاث المغربية لم تتطرق من فراغ ، بل انبنت على إرث عمره يزيد عن قرن ونيف لأن أقدم إشارة لفسيفساء المغرب القديم تعود لسنة 1880 يتعلق الأمر بفسيفساء أورفي (ORPHEE) من طنجة⁽³⁾ . وبعد هذا التاريخ وإلى حدود الثمانينات من القرن XX كانت الكتابات أساسا أوربية ، اتسم بعضها بصبغة العمومية⁽⁴⁾ ، وتضمن بعضها الآخر تحاملا واضحا على هذا الميدان⁽⁵⁾ .

ومن قبيل المفارقات ومن المغربيات أن تعتبر الفسيفساء فنا رومانيا⁽⁶⁾ وتحشر فسيفساء موريطانيا الطنجية ضمن الفن المحلي⁽⁷⁾ . ويكون مؤشرا أو دليلا على بربرية (Barbarisme) أصحابها⁽⁸⁾ . أما أول مقال حول الفسيفساء بقلم مغربي فيعود لسنة 1983⁽⁹⁾ .

ومقالنا هذا هو ثاني مقاربة لموضوع الفسيفساء باللغة العربية بعد كتابات الباحث التونسي منجي النيفر⁽¹⁰⁾ . وإذا كان مشكل لغة الكتابة هو أول تحدي يواجه الباحث العربي⁽¹¹⁾ ، في نظري، تشكل اللغات وعاءا والوعاء لا ينظر لزخرفه فقط بل لنفعه أيضا، لأنه إذا كان ما يحتويه غثا أو هشا سيقضم وإذا كان مثينا فسيفرض نفسه بغض النظر عن لغة الكتابة .

على كل ، إذا اختار الكاتب الكتابة بالعربية فلا شك بأنه ستنظره معيقات لا تقل حدة عما سبق ذكره يتعلق الأمر بزخم المصطلحات التقنية التي قد لا تتوفر حولها على أرضية تشكل مرتكزا له . ولذا فما عليه إلا نحث لغته لوضع تحليله في قالب أنسب . ترى هل الابحاث المغربية التي نحت هذا المنحى حققت نجاحا على مستوى المصطلحات ؟ ...

وإذا سلمنا بأن المنشغل بحقل الفسيفساء سيستقي مادته من لغتين أو ثلاثة . وإذا انضافت لذلك لغات ميتة (إغريقية ، لاتينية) فليس من اليسر الإحاطة بها جميعا ، وبذلك لا مناص له من الاستعانة ب مترجمين هم بدورهم لا يسلمون من عنق المصطلح لأنهم لم يهيأوا لمثل هذه الحقول المعرفية ، وبذلك بات التكوين حتميا . وأصبح تدارس إشكالية المصطلح أمرا استعجاليا⁽¹²⁾ .

وإذا لم نعد لذلك ، طبيعي أن يعزف المبتدئون عن ميدان كهذا مركب ومتشعب، وهو سيفرض عليهم إضافة لما ذكرنا إماما بتقنيات أخرى لا تقل صعوبة عما سلف ، ونعني بذلك لزوم اعتماد الرفوعات والقياسات والرسوم والتصاووير . فهي أعمال يدوية يتخذ بعضها طابع الرقابة⁽¹³⁾ . مما يجعل الممتنهن العرضي يكل ويمل منها .

وهذه الأمور ضرورية لضبط تركيب الفسيقساء وموادها لمعرفة أصولها . وهذه الترسانة من المعارف والمدارك التقنية لن تهم إلا شكل الفسيقساء (Le contenant) فحسب .

أما بالنسبة لمضمون الفسيقساء (contenu) فإنه يضع الباحث وسط رهان آخر يتمثل في ضرورة أن يغترف من مجالات معرفية أرحب لا تقتصر على المقاربات بمجال الفسيقساء وحدها بل يلزمه أن يعود لينهل من الآثار بكل أنواعها ثابتة ومنقولة من معمار ورسم وفخار وتوابيت ونقود وما إلى ذلك . وهو مدعو كذلك لأن يرجع للأدبيات بشتى فروعها ودروبها مادامت الجدلية قائمة بين بعض الأدبيات و الآثار⁽¹⁴⁾ . ألم توحى معركة إيسوس (ISSOS) للرسام فيلوكسينوس الإريترى بفكرة لوحته ، وللفسيقسائي أن يخلدها بمكعباته ؟ .⁽¹⁵⁾

هل كل الأعمال الأدبية والأثرية متوفرة ببلده ؟

قطعا لا ، فما على المهتم إلا أن يشد الرحلة للتطواف . وهل تتوفر الإمكانيات والدعم المادي اللازمين لانتقال الباحثين بين ربوع المتاحف والمواقع الأثرية للعوالم القديمة ؟ فالتقديرات المطلوبة - حتى باعتماد أسلوب النقشف - ليست بالهينة .⁽¹⁶⁾

المعاينة بمجال الفسيقساء ليست مجرد فسحة فكرية بل هي لازمة لان الآثار تحتاج أن تمس باليد ، وترى بالعين المجردة ، وأيضا بالأجهزة المواتية⁽¹⁷⁾ .

وإذا سلمنا بأن الباحث تزود بالمادة الخام المناسبة ، سيواجه عوائق من أنواع أخرى . سيزداد طينه بلة إذا كان محتوى فسيقساته لا يقتصر على المشاهد الميثولوجية المعروفة ، بل استلهم القديماء مادتهم من الواقع بأفراحه ، وأتراحه⁽¹⁸⁾ . وبما أن المشاهد النوعية ، أو المشاهد التاريخية ليست جميعها بمثل وضوح لوحة انتصار الإسكندر المقدوني على داريوس الفارسي - اللوحة الأنفة الذكر - ستطرح أمام الباحثين قضايا أخرى من نحو : هل هو أمام مشاهد واقعية حقيقية (Des réalités) ، أم هي تمثيلات للواقع (Des réalismes) ؟⁽¹⁹⁾

فمثلا ، أين نضع فسيقساء مارس وريا - سلفيا من موقع ليكسوس ؟ هل نعتبرها المؤشر الدال على الرومنة الكاملة لساكنة هذا الموقع ، أم هل هي تهم فقط صاحب السكنى ، أي مالك المنزل المعروف باسم منزل مارس وريا - سلفيا ؟⁽²⁰⁾ بعد كل الذي نكرناه ، هل يلزم حصر مادة الفسيقساء في خانة العلوم التي تستدعي التخصص الصرف ؟ . كلا ، فالبحث في أي موضوع من موضوعات الفسيقساء يعد بحق عملا فسيقساتيا⁽²¹⁾ . فالفسيقساء فن تقني ، هي معين لا ينضب من المعلومات . فتعدد زخارفها ، وتشعب أصول مشاهدتها ، وتنوع موضوعاتها تحيلها إلى "لابيرنت فكري"⁽²²⁾ .

أضف إلى ذلك أن الانتقال - ليس عبر الأدبيات فحسب - من موقع إلى موقع ، ومن متحف إلى آخر لازمين ، بما أن المعاينة - وكما أسلفنا توضيحه - شرط وجوب . وبذلك ، فإذا اتسمت أعمال المهتمين بهذا الحقل المعرفي بالموسوعية ، فالموسوعية هي بدورها ليست مجرد فسحة ، بل واجب مؤكد تفرضه طبيعة المادة⁽²³⁾ .

التجربة المغربية في أولها⁽²⁴⁾ ، والمنشغلون بها على رؤوس الأصابع⁽²⁵⁾ . ترى ، ما هو المنحى الذي اتخذته أعمالهم ؟

اختار الدارسون المغاربة الكتابة بشكل متواز ، أومسترسل في اتجاهين، هما : -
 اتجاه أول : يتلخص في الخوض في إشكالية المفاهيم ، وعلى رأسها مصطلح
 "فسيفساء" نفسه ، ثم إنجاز الحصيلة بتقويم الكتابات السابقة لاستشراف المستقبل⁽²⁶⁾
 - اتجاه ثان : تميز بدراسة نماذج محددة . والامثلة على ذلك كثيرة ، من ذلك
 دراسة فسيفساء الفصول وفسيفساء أورفي ، والنريدات ، والحيوانات الضارية .
 أو دراسة فسيفساء موقع معين وكمثال فسيفساء موقع ويلي ، أو أشكال خاصة
 كالفسيفساء الهندسية⁽²⁷⁾ .

قد نفهم لماذا اهتم الدارسون المغاربة بالنمطين الأولين من الكتابة ،
 فبطبيعة الحال ، الاهتمام بالتعاريف ، والقيام بالحصيلة أمران أساسيان . فلا يمكن
 القفز على المراحل السابقة ، بل يلزم معرفتها ورصد ثغراتها لإقامة بنيان سليم ، أي
 يلزم فهم الميدان ومعرفة ما كتب حوله⁽²⁸⁾ مادامت العلوم الإنسانية سلسلة من
 التجارب . ولكن لماذا يتم التوقف عند نماذج محددة ؟

كان الاهتمام ببعض النماذج في البداية عرضيا ، وصدفويا⁽²⁹⁾ . وتبين
 بعد ذلك بأن دراسة نماذج دقيقة هي الحل الأمثل للتعرف من جهة ، على مجال
 الفسيفساء الذي لم يكن يعرف عنه المغاربة أدنى شيء إلى حدود الثمانينات . ومن
 جهة أخرى تتيح هذه النماذج عقد مقارنات ومقاربات مع فسيفساء لها نفس
 الموضوع ولو أنها منتمية لفضاء أرحب هو ربوع العالم القديم . وتستدعي
 الفسيفساء القيام بمقاربات مع آثار أخرى ، كما سبق وأسلمنا قوله⁽³⁰⁾ .

كل هذه الترتيبات هي بمثابة تريبصات . فهي من جهة أدوات لضبط
 مصادر الفسيفساء المغربية ، ومن جهة ثانية فهذه المقاربات تساعد على الإحاطة
 بإشكالية لا تقل حدة ، ولا أهمية عن ما نكرناه ، يتعلق الأمر بالتأريخ .

فهل أمكن بعد سلسلة التراكمات هاته حل هذا الإشكال ؟

بطبيعة الحال ، لا تقضي المقاربات إلا إلى حصر النماذج المدروسة ضمن
 فرشة كرونولوجية واسعة⁽³¹⁾ . وبذلك بات الاقتناع كاملا بضرورة إجراء أسبار

ودراسة عينات من المادة، وضبط علاقة الفسيفساء بالمبنى الذي توجد ضمنه في محاولة لتطويق الإشكال ، أي التزود بمؤشرات أقوى ، وأمثن بالنسبة لقضية التاريخ .

وأسارع فأقول : مهما فعلنا ، فلن يكون قطعيا ⁽³²⁾. ولكن هذه الإجراءات ستفضي بنا لتضييق الهوة . ففي هذا المضمار بالذات يصعب تقديم تواريخ مضبوطة بما أننا أمام مادة قد تواكب المبنى عند اكتمال إنشائه ، أو تلحق به بعد تعميره . ثم إنها قد تشهد ترميمات عديدة عبر مراحل مختلفة من تاريخ المبنى ، كما يحصل تماما اليوم على كل ، سنحصل على تواريخ ليست مديدة.

إلى جانب إسهام المقاربات في قضية التاريخ ، تتيح البث في إشكال أصالة النموذج المدروس، أو رتابته . كما تساعد على فهم الخلفية الذهنية للقضاء مالكين ومنفذين (commanditaires et éditeurs (propriétaires et mosaistes) ⁽³³⁾.

الدراسة المغربية لم تتبع من فراغ . فكان ضروري للمهتمين تجميع شتات ما كتب حول الموضوع خلال ماينيف عن قرن ، والانتباه إلى ضراوة الأحكام المسبقة الناجمة عن سطحية في الدراسة ⁽³⁴⁾، أو عن أغراض مبيتة ⁽³⁵⁾.

كان الدارسون أمام تحديين إثنين : إما الاعتراف بأن الفسيفساء فن زخرفي ليس إلا ، أي أنها شكل من أشكال التبليطات التي سادت خلال الفترة الرومانية بهدف أن تكسب أرضية المنازل الصلابة بنوعية المواد المستعملة ، والجمالية بزخارفها سواء كانت أشكالا هندسية ، أم مشاهد مصورة .

وإذا كانت الفسيفساء مجرد أداة نفعية ، وعديمة الأصالة فما الجدوى من

الاهتمام بها ودراستها ؟

وللأسف ، هذا المنحى هو المهيمن ، هو رأي توفنو ومن سار على دربه ⁽³⁶⁾. وبذلك اقتصر اهتمام هذه الطائفة على الفسيفساء المصورة على حساب الأشكال الأخرى .

أما المنحى الثاني فلا ينفي أصحابه عن هذا الفن أصالته رغم كونه ينتمي لأصول متباينة إفريقية ، ومشرقية ، وأوروبية ويستمد مادته من مصادر مختلفة أدبية ، وأثرية تستدعي التزود بالمناهج المناسبة في محاولة لتطويق لغة الفسيفساء .

وإذا كان لويس شاتلان من رواد هذا الاتجاه عندما عمد منذ سنة 1935 إلى وضع جرد للفسيفساء المغربية المكتشفة بين سنتي 1916 - 1935 بمختلف المواقع الكبرى والصغرى⁽³⁷⁾ ، فهو أيضا أول من آمن بفكرة اعتمادها الجنرال اليوطي واعتبرها " فكرة نيرة " وتتمثل في الإحتفاظ بالآثار في أماكن الكشف عنها، على اعتبار أن موقعها الأصلي هو أفضل متحف⁽³⁸⁾.

ولكن جرد شاتلان تجوز بكثير لكون التقيبات اللاحقة أتت بالمزيد من النماذج⁽³⁹⁾. فكان من الطبيعي أن يعود الباحثون خلال 1960 فيدعون إلى ضرورة وضع مدونة للفسيفساء المغربية . وكان بعضهم جازما بأنها ستتم في أقرب وأسرع وقت بحكم عدد الفسيفساء المغربية المحدود⁽⁴⁰⁾. ولكن فسيفساء المغرب سهل ممتنع.

والجدير بالذكر أن أصحاب هذا المنحى التالي ، لم تكن بين أيديهم فهرس (Des répertoires) موحدة حول المصطلحات الفسيفسائية ، وبالأساس حول التراكيب والعناصر الزخرفية الهندسية ، وبذلك ليس من اليسير معرفة أوصافهم ، خصوصا عندما يتعلق الأمر بنماذج تعرضت للتلف بعد استخراجها ، وجردها⁽⁴¹⁾.

لن تبدأ المدونة (Corpus) بشكل فعلي إلا انطلاقا من التسعينات من القرن المنصرم في إطار بعثة مشتركة مغربية - فرنسية ترأسها عن الجانب المغربي الزميلة زهراء قنينبة ، وعن الجانب الفرنسي الباحث الفرنسي جون بيير دارمون الذي كان رئيسا للجمعية العالمية للفسيفساء الإغريقية - الرومانية⁽⁴²⁾.

وبما أنه أتحت لنا إمكانية المشاركة في هذا العمل في مراحل الأولى فقد وقفنا عن كثب على الصعوبات التي تخللت إنجاز بعض أطواره في غياب

يوميات الحفر بالنسبة لفلسفء نقل معظمها خارج المجال الذي اكتشفت به وأعني بذلك فسفسء موقع ليكسوس⁽⁴³⁾. وأترك للمسؤولين عن هذه البعثة الحديث عن النتائج المرتقبة أنيا ، أو عندما سيرى هذا العمل النور في مستقبل نود أن يكون أقرب .

هل المدونة ستحل الاشكالات المذكورة ؟ ما هو دورها ؟.

المدونة هي أداة عمل هامة ، هي وسيلة تواصل ، وهي أس كل الأعمال المستقبلية لأنها ستحفظ للأجيال القادمة إرثا هو عرضة للتلف المستمر . فإذا تحققت المدونة ، وقدر لها الانتشار الواسع آنذاك يحق للمهتمين المغاربة الاعتزاز بأنهم دخلوا المسار الصحيح . فهي أحد أبرز "باروميترات" التقدم المعرفي . فهي ستحفظ على الدرس ، وستمكن كل من تعذرت عليه المعاينة المباشرة ضبط خصوصيات الفسفسء المغربية⁽⁴⁴⁾ .

وإذا تعمم الوعي بهذا الإرث لذا الأجيال القادمة⁽⁴⁵⁾، وإذا يسرنا له لغة التواصل - ولم لا العربية - بحكم أن ثلثي الفسفسء توجد ضمن بلدان العالم العربي . آنذاك سنضمن إلى جانب هذا ، وذلك منفذا آخر في مضمار الحرف وأيضا في مجال السياحة⁽⁴⁶⁾. وإذا أهملنا هذا الحقل المعرفي لن نحيد عن الأحكام المسبقة من قبيل أن كل ما هو رديئ مصدره حرفي الضفة الجنوبية ، وما هو جيد هو من صنع الفنان الإغريقي - الروماني⁽⁴⁷⁾.

خاتمة :

فسفسء المغرب القديم آيلة للإندثار لأن ما جمعه شاتلان ليس هو كل ما وصل إلينا ، بل ما رأيناه بأم أعيننا خلال بداية انشغالنا بالموضوع ضاع منه الكثير . والباقي عرضة للتلف لقساوة العوامل الطبيعية من جهة ، ولا مبالاة العنصر البشري من جهة ثانية . ما فقدها من هذا الإرث الحضاري سيضيع للأبد . ولكن ، ما درس بالسبل المثلى سيحفظ لأجيال ، وقرون أخرى . وأعني بالسبل المثلى اعتماد المناهج المخصصة لهذه النوعية من الدراسة ، مع ضرورة نبذ الأحكام المسبقة الناجمة عن مقارنة سطحية للموضوع ، أو أحكام مبيتة .

قد يشفع لتوفنو - ومن جاعوا بعده خلال بداية القرن الماضي - إصدارهم لأحكام جزافية عدم توفرهم على مدونات . وبالتالي ، عدم تعمقهم في الموضوعات المدروسة . وهم أسهموا - وهذا دور لن ننسأه لهم - في حفظ ما يمكن حفظه من النماذج .

يلزم الاقتتاع - وبعد مرور أكثر من قرن عن الكشف عن أول فسيفساء بالمغرب - بأننا أمام مصدر متعدد المشارب . فمن العبث الإيمان بالتخصص الضيق في هذا الحقل ، فهو أكثر الحقول المعرفية حاجة للموسوعية .

وإذا كانت الموسوعية غير ممكنة أمام استفحال موضة التخصص في مضمار العلوم الإنسانية . فحقل الفسيفساء هو أبرز مجال يحتاج إلى ترسانة من العلوم ، وطقم من المتخصصين (La Multidisciplinarité) ، وبذلك فهو أصلح وسيلة أمام المبتدئين في حقل التاريخ القديم للتوسع في فضاءات معرفية أرحب . وإذا كانت الأبحاث المغربية تتأرجح بين الإقدام ، والإجحام ترى ماذا هيأنا للمستقبل⁽⁴⁸⁾ ، خصوصا والحفريات المغربية في تصاعد مستمر ، والأمل كبير في أن تكشف عن نماذج جديدة .

صحيح ، أن ما كتب حول الفسيفساء المغربية بأقلام مغربية محدود عـددا واعتمد أصحابه أسلوب التحري والموضوعية . وأفضت نتائج دراسة نماذج محدودة بالإعتراف بأصالتها - بالرغم من اغتراف القدمات لجل مشاهدهم من الميثولوجيا الإغريقية - الرومانية - وبذلك ، فهذه النتائج محفزة على المواكبة بالرغم من المعيقات الذاتية ، والموضوعية .

أما بالنسبة للغة الكتابة ، فليست مشكلا يكفي أن يصل الخطاب للمجتمع المدني - وباللغة التي يفهمها هو - ويضحى هو على بيئة بترائه في كافة تجلياته . فتتحقق المصلحة ، فهي المرجوة من وراء كل الأبحاث . والغاية تبرر الوسائل .

هوامش

- (1) هي أبحاث لنيل الإجازة في الآداب أو د. د. ع. م. أو دكتوراه السلك الثالث أو دكتوراه الدولة وتتوفر معظم هذه الأبحاث برفوف مكبات الرباط ، بكلية الآداب وبالمعهد الوطني لعلم الآثار والتراث ، وهي بالعربية والفرنسية .
- (2) شاركنا بمداخلات منذ 1989 في موائل مستديرة وملتقيات علمية مع وزارة الثقافة والمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وبرحاب كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس بالرباط ، والقاضي عياض براكش ، وأيضاً بمدينة الكاف بتونس. وأسهمت زميلتنا زهراء قبينة بدورها في ملتقيات علمية ، وننتظر أن يتحقق النشر. (أنظر جرداً يعظها هامش 26)
- (3) يمكن رصد الجيولوجيا للتلطفة بفلسفء أوربي بطبعة ومعرفة أقدم ما كتب حولها من خلال :
- M. PONSICH, "Tanger, Une mosaïque d'Orphée" B.A.M.I.V, 1966, pp. 479-481
- (4) معظم الكتابات هي عبارة عن تعاريف . وأشهر في هذا الصدد لأعمال شاتيلان وتوفرو خلال النصف الأول من القرن XX .
- (5) لقرأ مثلاً ما كتبه توفرو تم لوكتي .
- R. THOUVENOT, « L'Art provincial en Maurétanie Tingitane », ME.F.R LIII, 1936, pp. 35-36, LUQUET, Volubilis, éd. Marocaine et Internationales, pp. 49-51
- G. CH. PICARD, « Un art Romain , La mosaïque », B.C.T.H, 1966, pp. 506 ss.
- R. THOUVENOT, « L'Art provincial en Maurétanie Tingitane », ME.F.R LIII, 1936, pp. 25-36
- (6)
- (7)
- (8) نفس المراجع المذكورة هامش (5) .
- (9) البضاوية بلكامل " الفسفاء (تعريف ، تاريخ ، وتقنية) " ، مجلة تاريخ المغرب ، 1983 ، ص. 63-67.
- (10) إذا كانت أول كتابات الزميل منحي النيفر بالعربية فهي بمثابة تعاريف ، في حين أن كتاباته بالفرنسية اتخذت طابعا التحليل والمقاربات أي طابع التخصص . لقد أحرب في الأستاذ النيفر في لقاءنا بتونس سنة 1992 عن فناعته بالكتابة بالعربية والفرنسية ، وأساسا بالفرنسية ليكتب لصلته الانتشار الأوسع ، وهو عبق في ذلك . ويكفي الرجوع للدونات الفسفاء التونسية (Corpus des mosaïques) فلا يكاد يفتو عدد من إسهاماته . كما أن مشاركاته في مؤتمرات دولية عديدة تنم عن ألعينه .
- (11) نعد للمشاركة في المؤتمرات الدولية حول الفسفاء بكل اللغات إلا العربية لأن الباحث المغربي على سبيل المثال إذا كتب بالعربية فلن يجد إلا محاورين محدودي العدد (بعض باحثي تونس) . ومن المقاربات أن 2/3 الفسفاء توحد بالعالم العربي !
- (12) حربنا من جهتنا الاعتماد على مترجمين ، ولكن لم نعد بالترجمات إلا طار الحام .
- (13) انظر في هذا الصدد للدونات ، إذ ستجد ما فيها يخص وصف الفسفاء نفس المسطرة التي ستكرر بحسب عدد الفسفاء مما يكسب البحث طابع الألية ، أي أن القوالب الجاهزة الخاصة بوصف كل نموذج ، وتكرر ذلك بالنسبة للباقي تدعو للنفور .
- (14) حول استلهام الآداب من الآثار ، والمكس ، انظر في هذا الصدد :
- .METZGER , La céramique grecque , Coll. Que - sais-je ,Ed. P.U.F , Paris , 1973.
- شاركنا من جهتنا في ملتقى تطوان حول التاريخ القديم الذي نظمته كلية الآداب عبد الملك السدي ، شبة التاريخ في 07 دجنبر 1997
- بموضوع " الانتقال من الصورة إلى النص ، الممكن والمستحيل " (لم ينشر العمل)
- (15) للأسف لا تتوفر على كل للدونات التي تم إنجازها لاستخراج الموضوعات التاريخية . واللوحة الفسفاءية حول معركة ليموس

- وجدناها بمرجع عام حول المحاضرات .
- (16) تكلفة صيانة كل فسيفساء ليست بالأمر اليسير ، ولذا هناك العديد من النماذج التي ضاعت ، وأخرى وضعت بالمستودعات على أمل أن يتم إنقاذها .
- (17) حتى إذا سلمنا بأننا أمام مثال ملون (polychrome) ، هل سنعرف نوعية حجارته وجماليتها من خلال المدونة فحسب .
- (18) يسهل معرفة المشاهد الميثولوجية لأن الرموز (Attributs) تساعد على التمييز بين كل إله على حدة ، وتميز بينهم وبين الأبطال . وبذلك أضحت الأرباب وتسمياتها والدورات البطولية معروفة عند المهتمين بهذا المجال .
- (19) حول هذا الموضوع ، انظر على سبيل المثال المقال التالي :
- CH.PICARD , « Mosaique et société dans l' Afrique Romaine , les mosaïques d'El Alia " , L'Afrique dans l' Occident Romain , I er siècle IV .ap » , Rome , 1996 , pp. 3 - 14 .
- (20) أثر لقاء إله الحرب الروماني مارس (MARS) بالكاهنة رها- سلفيا ولادة الثوأمين روميس وروميليس مؤسسي روما حسب كتاب الأساطير ومنهم الشاعر اللاتيني أولفيد (OVIDE) . فهل تحول ليكسوس إلى مستمرة رومانية محفل في رومتها ، وانتقالها للعالم الغربي عوض الشرقي ؟
- (21) تكرر مذكراته بحث الأطروحة التي عنوانها : " مظاهر اقتصادية من خلال فسيفساء الشمال الإفريقي " ، أنظر ص. XXI .
- (22) أحسن ما قبل في الفسيفساء ما كتبه القديس أغسطين . أنظر نصه من خلال المقال التالي :
- LASSUS, « la technique de la mosaïque selon Saint Augustin » , Libyca VII , I er sem , 1959 , pp. 143 - 146
- (23) على سبيل المثال لا يمكن تقويم مشهد قصص الوحش ، وضبط آلياته وأهدافه بدون الرجوع للمصادر المكتوبة ، وليالي الآثار .
- (24) مذكراته سلفا (هامش 1) بأن معظمها أبحاث جامعية .
- (25) صحيح أن عدد المقاربة الذين أسهموا بأبحاث حول الفسيفساء في تصاعد مستمر ن تجاوز اليوم العشرات . ولكن المنشغلون لا يتعدى عددهم اليوم خمسة ، وثلاثة منهم في بداية المشروع (هم بصفه أمين أبحاث لنيل الدكتوراه الوطنية برحاب كلية الآداب بالرباط) .
- (26) البضاوية بلكامل ، " الفسيفساء (تعريف ، تاريخ ، وتقنية) " ، مجلة تاريخ المغرب ، 1983 ، ص. 63 - 69 .
- " " ، " أوليات حول فسيفساء ليكسوس " ، المائدة المستديرة حول ليكسوس ، العرائش ، 1989 (لم ينشر)
- " " ، " دراسات متعلقة بفسيفساء موريطانيا الطنجية " ، محاضرة أقيمت أمام طلبة السلك الثالث ، المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث ، الرباط ، 1992 . (لم تنشره) .
- " " ، " من أشكال تخطيط الأرضيات بموريطانيا الطنجية : الفسيفساء " ندوة حول العمارة في تاريخ المغرب ، جامعة القاضي عياض ، مراكش ، 1994 (لم ينشر) .
- " " ، " فسيفساء شمال إفريقيا : أشكال وإشكالات " ، محاضرة أقيمت أمام جمعية الطلبة الباحثين في التاريخ ، كلية الآداب ، الرباط ، 1996 (لم تنشره) .
- زهراء فنيبة ، " فسيفساء أورلي " ، ندوة حول العمارة في تاريخ المغرب ، جامعة القاضي عياض ، مراكش ، 1994 (لم ينشر) .
- " " ، " فسيفساء موريطانيا الطنجية : الحصيلة " ، ندوة دولية بعنوان 100 سنة من البحث الأثري بالمغرب ، الرباط ، (قيد النشر) .
- لمياء البشوري وحفيظة دهندي ، فسيفساء موريطانيا الطنجية : أشكال وإشكالات ، بحث لنيل د.د.ع.م ، تحت إشراف بلكامل البضاوية ، كلية الآداب ، الرباط ، 2000 .
- معظم هذه الأعمال لم يكتب لها النشر لأسباب تفرج عن إرادة المساهمين بهذه المقالات .

- (27) جميع الأعمال المشار لعناوينها في الفقرة المتعلقة بالنسخة الثاني هي لنيل شهادات جامعية ، ومعظمها موجود بمكتبة كلية الآداب بالرباط ، وبمعهد التاريخ بنفس الكلية ، وبمكتبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث . والبحث المتمق بوليلي اطلعنا على نسخة من مختبر الأركيولوجيا (شارع للمم) ، بباريس .
- (28) رغم تقدم الأبحاث العلمية حول الفسيقساء مع ذلك لا زالت نطلنا أعمال ترفيحية لهذا الحقل موجهة للطبقة وعموم القراء . ونفسر ذلك بتقدم الأبحاث التي يترتب عنها تغير في المفاهيم والمواقف .
- (29) لا ننسى بان اهتمامنا بالفسيقساء جاء صنفويا في إطار الخطة التي سعت لها من جهة شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط ، ومن جهة ثانية السؤولين آنذاك عن المتحف الأثري بالرباط الأستاذة بسنيمان حودية حصار ، والأستاذ عبد العزيز التوري . لقد حرصوا كل الحرص على هذا البناء المتكامل بانفتاح طالب (ة) التاريخ على الحقل الأثري . فأى إسهام في هذا الصدد هو بمثابة رسالة شكر لهم جميعا .
- (30) أنظر ما ذكرناه في الأوراق التقديمية ضمن هذه المدخل . فلا يفت الإهتمام بالفسيقساء عند الشكل بل بتعاطفها للمحتوى .
- (31) المقاربات الفنية (Les rapprochements stylistiques) تؤدي إلى حصر النموذج ضمن مرحلة زمنية مديدة قد تكون قرنا وأكثر .
- (32) لو وجدت نقوش عليها تاريخ وضع (La pose) الفسيقساء لما اعتبر التاريخ إشكالا . والأمثلة التي تتوفر على إتيات للملاكيها أو صانعيها قليلة جدا ، أنظر : البضاوية بكامل ، مظاهر اقتصادية ... ، ص. 290 - 292 .
- (33) أنظر مذكرته موروند ضمن عملها التالي :
- MORAND , *Idéologie , culture et spiritualité chez les propriétaires ruraux de l' Hispagne Romaine* , Ed. De Boccard , P Paris , 1994 .
- ولأسف ، مدخلنا بمدينة الكاف التونسية لسنة 1992 بعنوان " الحفاظ على الهوية من خلال نموذج آثري : فسيقساء أعمال هرقل بوليلي نموذجها " لم يكتب لها النشر .
- (34) تغرت منهج الدراسة من مرحلة لأخرى . فإذا كان الأوائل اهتموا أساسا بالأشكال المشخصة ، اكتفوا بالوصف العام للفسيقساء فإن الباحثين المعاصرين استدلوا في دراستهم على ترسانة من العلوم تباينت مناهجها .
- (35) أنظر على سبيل المثال مذكرته توفنو ضمن مقاله التالي :
- . THOUVENOT , « L'art provincial en Maurétanie Tingitane » , M.E.F.R LIII , 1936 , p. 35
- (36) صحيح أن توفنو تراجع عن بعض آرائه ، ولكنه اعترف بأصالة (originalité) نماذج دون أخرى .
- (37) أنظر مقاله التاليين :
- CHATELAIN , « Mosaïques de Volubilis » , P.S.A.M I , 1935 , pp. 1 - 10 .
- L , « Inventaire des Mosaïques du Maroc » , P.S.A.M I , 1935 , pp. 67 - 89 .
- (38) CHATELAIN , *Le Maroc des Romains , étude sur les centres antiques de la Maurétanie Tingitane* , Eds . De Boccard , 1968 , p. 151.
- (39) يمكن تتبع باقي الإكتشافات من خلال مقالات توفنو وطراويل . ولد استحضرنه ضمن بحثنا لنيل د.د.ع المتنون : فسيقساء الفصول بموريطانيا الطنجية ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب ، الرباط ، 2 يوليوز ، 1986 ، (أنظر الجيولوجيا المتعلقة بالفسيقساء)
- (40) CHEVALLIER , « Pour un corpus des mosaïques du Maroc » , M.E.F.R 72 , 1960 , pp. 237 - 241 , sp. p.241 .
- (41) وضعت الفهارس في النصف الثاني من القرن العشرين . وقبل ذلك كان كل باحث يصف الأشكال وفق ما يراه هو . وبذلك كثرت المصطلحات الدالة على نفس العنصر الزخرفي . وهكذا فبعض النماذج التي تحطمت لأسباب طبيعية ، أو بشرية ولا تتوفر على صور لها من الصعب في بعض الحالات تمييز عناصرها الزخرفية .
- (42) انصب اهتمام البحث على موقع ليكسوس بحكم أن نماذجه غير موصوفة بشكل مضبوط ، وحلها لا تعرف أماكنها الأصلية لكونها نقلت إلى متحف

- تطوان ولا نزلتها بطلقات تعريفية ، كما أنه لا تتوفر حولها يوميات الحفر. وللإشارة فالبحث بدأت نجرها انطلاقا من سنة 1992 .
- (43) محاولة معرفة الغرف التي تنتمي لها كل فلسفء على حدة ليست بالأمر السهل ، فكان من اللازم القيام بسلسلة قياسات بمنحف تطوان وموقع ليكسوس ، وأيضا تجميع كل الوثائق التي تميز في هذا الجانب ، ومن ذلك الصور الجوية .
- (44) حول المدنات ، أنظر :
الضاربة بلكامل ، مظاهر اقتصادية، ص. XVIII - XV .
- (45) تحدث عن استفحال الامة الأندلسية ونجارها . وندعو لحفظ الأثار ونكتب حوله بلغات التخصص . فمنق سنهنا المجمع المدن ؟.
- (46) يكفي مقارنة عدد السواح المتردين على موقع ويلي من الفاهين لموقع ليكسوس (ولو أنه لا أوجه للمقارنة) . لمعرفة مدى أهمية حفظ الأثار في أماكن الضور عليها بالرغم من المشاكل التي تعرض لها ، والتي تستدعي العناية المستمرة .
- (47) لا أحتج بأنني بدوري اعتمدت مؤشر " رصد الأسطء " بحيث ليبل د.د.ع المنون " فلسفء الفصول بموريطانيا الطنحية . ولكني أقتنع بأنه مؤشر واه عندما جئت للمصادر الإسلامية التي تعلمت منها تقوى الحرفين على مفاهيم الصناع " البيزنطيون " . ونحن اليوم بصدد تجميع شذرات حول الفلسفء القديمة من خلال مختلف المصادر الإسلامية .
- (48) صحيح أن الإهتمام بفلسفء موريطانيا الطنحية هو في تصاعد مستمر . يتأكد ذلك في إدراج مادة الفلسفء ضمن المواد المدرة بالمعهد الوطني لعلوم الأثار بالرباط منذ 1988 ، وبكلية الآداب الرباط ضمن المواد المدرة لطلبة وحدة شمال إفريقيا القديم : تاريخ وأركيولوجيا ، خلال السنة الخامسة 1999 - 2000 . ورغبة الهيأت العلمية الدولية في التزود بنماذج من الفلسفء المغربية التي تدرجها في إطار الفلسفء الراقعة التي من المرتقب أن يعضها المعرض الإسبان كما ذكر لي ذلك مشكورا السيد محافظ المتاحف بالمغرب الزميل حسن ليمان .

مساهمة الأعلاميات في معرفة تاريخ المغرب القديم

مصطفى الغيثي*

مقدمة

يجب قبل أن نتطرق إلى هذا الموضوع، أن نشير بإيجاز إلى إشكالية ترجمة المصطلحات الأجنبية إلى اللغة العربية في ميدان التاريخ وبالأخص التاريخ القديم. نعلم جيدا الصعوبات التي تواجه المختص في هذا الميدان لنقل المعارف اللاتينية إلى اللغة العربية، خاصة عندما يتعلق الأمر بمفردات وكلمات لها مدلول قانوني، إداري، أو مصطلح تاريخي، كما هو الشأن عندما ندرس الحضارة الرومانية أو الإغريقية. إلا أن إشكالية الترجمة ليست عائقا أمام البحث، بل حافزا على إغناء اللغة العربية، شريطة أن تكون الصيغة المترجمة مقبولة الشكل يراعى فيها الجانب العلمي والجانب الجمالي على حد سواء.

إن كلمة الأعلاميات هي ترجمة لكلمة "الأونوماستيك" (Onomasticon) اللاتينية والمقتبسة بدورها من اللغة الإغريقية. وتقاديا لإعطاء ترجمة تركيبية مثل "دراسة

* أستاذ باحث بكلية الآداب مكناس.

الأسماء" أو "الدراسة الأونوماستيكية"، اقترحنا أن نترجمها بالأعلاميات التي هي في الحقيقة قريبة من مصطلح الأنثروبونيمية (Anthroponymie) أكثر من مصطلح Onomasticon.

التعريف بالأعلاميات في أربع نقاط كبرى:

- 1- يتطلب من الباحث في هذا الميدان، وخصوصا في حقل التاريخ الروماني أن تتوفر لديه نسبة كبيرة من الأسماء يمكن حصر عددها على الأقل في خمسمائة اسم(1). كلما ازداد العدد، يكون البحث أكثر شمولية (أي يتخذ اتجاهات متعددة في مناهج التاريخ)، كما تكون النتائج المتوخاة من هذا البحث ناجحة نسبيا.
 - 2- إن الأعلاميات في التاريخ الروماني مرتبطة إلى حد كبير بالإبيغرافيا، بدليل أنه لا يمكن التطرق إلى الأعلاميات دون التركيز أولا على الدراسة بالإبيغرافية(2). فهي التي تمدنا بالمعطيات التاريخية للمنطقة في جميع نواحيها الإدارية، العسكرية، الاقتصادية، والاجتماعية. بهذه الطريقة الأولية يمكن لنا مقارنة الخصائص الإبيغرافية لكل مدينة وتأثيرها على المدينة الأخرى في هذا المجال.
 - 3- مراعاة الجانب الباليوغرافي(3) في هذا الصدد، أي دراسة كيفية طريقة الكتابة التي تمت بها النقائش اللاتينية.
 - 4- تأريخ النقائش اللاتينية(4): يعتبر هذا العامل أحد ركائز الأعلاميات. فهو عمل مضمّن وشاق في بعض الأحيان إذا كانت نسبة النقائش مرتفعة، خاصة إذا علمنا أن جل النقائش اللاتينية بالمغرب (باستثناء النقائش الرسمية) لا تحمل في ثناياها تاريخا زمنيا. و للتأكيد مرة أخرى على هذا العامل الأساسي، فإنه لا يمكن مطلقا أن تكون هناك دراسة أعلامية بدون تأريخ، وإلا سيكون البحث في هذا الصدد بحثا لسنيا ويخرج عن نطاق التاريخ.
- هذه هي النقاط الأربع الكبرى التي يمكن الاعتماد عليها في الدراسات الأعلامية. أما بخصوص مكنزمات الدراسة الأعلامية في موريطانيا الطنجية، فنورد البعض منها، وهي كالتالي:

- 1- جرد و إحصاء (5) جميع الأسماء الواردة في النقائش اللاتينية والمجموعة في "جامع النقائش اللاتينية"، (2- Corpus des inscriptions antiques du Maroc) بما فيها الاسم الشخصي Praenomen، الاسم العائلي Nomen أو Gentilicium ثم اللقب Cognomen. والمعلوم أن هذه الأسماء الثلاثة هي التي تميز المواطن الروماني عن غيره و تسمى Tria nomina. وفي أواخر القرن الثالث الميلادي ظهر اسم جديد هو النبز Signum الذي سيحل تدريجيا مكان الأسماء الثلاثة؛ خاصة بعد تعميم المواطنة الرومانية (6) على جميع السكان الأحرار فقط سنة 212م.
- 2- إحصاء جميع أشكال البنايات (7) Monuments التي تحمل كتابة إيغرافية وحصر الأسماء الواردة فيها و ترتيبها.
- 3- مقارنة الأسماء الموجودة بالمغرب مع باقي الأسماء المسجلة في الجامع الكبير للنقائش اللاتينية Corpus Inscriptionum Latinarum، مع الإحالة إلى السنة الإيغرافية L'Année Epigraphique عندما يستعصي الأمر أو نرى تقاطعا في قراءة النقيشة.
- 4- تم التركيز في آخر المطاف على مقارنة الأسماء بموريطانيا الطنجية والقيصرية وكذلك إسبانيا بدون أن نغفل إيطاليا.
- مجلد القول، هذه بعض التطبيقات المتبعة في دراسة الأعلام (8) بموريطانيا الطنجية في مختلف المدن كويلي، طنجة، بناصا، وسلا، إضافة إلى بعض النقائش المنتشرة في بعض المراكز الأثرية.

النتائج:

يمكن تصنيفها إلى نوعين:

أ- النوع الأول:

- 1- بالنسبة للبنايات Les monuments وجدنا اختلافا بين المدن الأثرية المغربية، فعلى سبيل المثال، فإن بناية "الصندوق" (9) "Caisson" لا توجد إلا بمدينة ويلي وتتعدم في المدن الأخرى، وهي ملاحظة جديرة بالاهتمام. إن نوع

هذه البناية الجنائزية الذي يتخذ أشكالا متعددة، لم يتم استعماله إلا في أواخر القرن الثاني الميلادي وبداية القرن الثالث الميلادي. هناك الآن عدة دراسات تحاول البحث في أصل البناية: هل هي أفريقية أم إيطالية الأصل؟

2- أما النقائش على الرخام (10) في ويلي، فإنها لا تهم سوى النقائش الرسمية (11). بالمقابل نجد الرخام مستعملا في بناصا، سلا، وطنجة. هذا شيء طبيعي، حيث لم يعثر لحد الآن على محجر للرخام بمنطقة ويلي، و أغلب الظن أنه كان مستوردا.

3- كذلك في ما يخص بناية "قاعدة التمثال" "Base de statue"، فإنها شهدت استعمالا مكثفا في مدينة ويلي مع منتصف القرن الأول الميلادي وبداية القرن الثاني الميلادي، و ستمحي بالتدريج وينقلص عددها أواخر القرن الثاني الميلادي. أما الفئة التي كانت تستعمل هذا النوع من البناية فهي بطبيعة الحال تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية نظرا لتكلفة هذه البناية من الناحية المادية.

4- أما البناية على شكل مذبح "Autel" فإنها لم تظهر على ما يبدو إلا في منتصف القرن الثاني الميلادي.
ب.- النوع الثاني :

بخصوص النتائج التي تهم الأعلاميات بالمغرب فهي عديدة، سواء تعلق الأمر بانتقال الأسماء وتووعها من فئة إلى أخرى، أو بروز أسماء و اختفاء أخرى حسب المقتضيات السوسولوجية في تلك الفترة. نورد بعض النتائج التي تهم الجانب التاريخي:

1- غياب أسماء المعتقين الذين يحملون اسم C. Iulius Iuba في مدينة ويلي بالمقارنة مع مدينة قيسرية Caesarea (12) التي اكتشف بها عدد هائل من المعتقين الذين كانوا يعملون في بلاط العاهل يوبا الثاني. والسبب في هذا الغياب هو نتيجة حتمية، بحكم أن مدينة ويلي لم تكن عاصمة ليوبا الثاني. وهنا يجب التفريق بين الإقامة والعاصمة.

2- نسجل كذلك عدم وجود الأسماء الإمبراطورية *Noms impériaux* بكثرة، خاصة في ما يتعلق بالإمبراطور كلاوديوس *Claudius* الذي أصبح المغرب الأقصى في عهده ولاية رومانية.

3- بالنسبة لمجموعة "اليوليين" *Iulii* بالمغرب التي يرى البعض (13) أنها اقتبست هذا الاسم من الإمبراطور أوغسطس، فهي في الحقيقة لم تظهر بشكل مكثف إلا في القرن الثالث الميلادي. إن الاسم *Iulius* ستحتضنه بعض العناصر المسيحية (14) أواخر القرن السادس الميلادي وبداية القرن السابع الميلادي.

بالنسبة للتركيبة الاجتماعية لسكان المغرب، سنقتصر على بعض

الملاحظات الهامة:

1- الحضور القوي لأرسقراطية سكان ويلي في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي، واتخاذها أسماء لاتينية محضة. في هذه الفترة نسجل كذلك غياب الأسماء الإغريقية باستثناء اسمين: الأول ينتمي لأحد المعتقنين *M. Valerius Antiochus*، و الثاني ينتمي إلى الفئة الأرسقراطية الحاكمة *Q. Caecilius Plato*. والغريب في الأمر أن هذا اللقب الإغريقي *Plato* نادر جدا في الإمبراطورية الرومانية ونجده ممثلا عند شخص آخر بوليبي.

2- في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي، نلاحظ تراجع الفئة الأرسقراطية وبروز الطبقة الوسطى التي تضم المعتقنين وأصحاب الجمعيات الحرفية و المكلفين (15) بالسهر على عبادة الإمبراطور. كذلك نسجل في هذه الفترة ظهور الأسماء الإغريقية. ومما يثير الانتباه في هذه الفترة بالضبط، ظهور مجموعات إثنية نخص بالذكر منهم السوريين و العرب الذين كانوا يعملون في الجيش الروماني.

3- ندرة الأسماء الليبية أو البربرية بين السكان ولا نجدها إلا عند رؤساء القبائل و أبنائهم. ونضيف إليها بعض الأسماء الأخرى مثل : *Caia ou Gaia, Didei, Pullut,*

.Bebulus, ASABAR ?, Babus

4- كذلك يلاحظ قلة الأسماء البونية و لا تتعدى في مجملها خمسة أسماء: Bargbal, Matun, Bidbal, Bostar ، ونضيف إليها اسما آخر هو Idibal. وفي الختام، لابد من الإشارة إلى أن أعلاميات موريطانيا الطنجية كانت متأثرة بأعلاميات إسبانيا، خصوصا في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي.

المراجع:

- (1) - H.G.Pflaum, " Considérations sur la méthode des "sondages" épigraphiques locaux en onomastique latine (d'après les inscriptions africaines)", in l'onomastique latine, 13-15 octobre 1975, Colloques internationaux du CNRS, Paris, ed. CNRS, 1977, pp.320-324.
- (2) - R.Cagnat, Cours d'épigraphie latine, 4ème édition, Paris, 1914. H.Thylander, Etude sur l'épigraphie latine, lund, 1952.
- (3) - L.Robert, "Epigraphie et paléographie", CRAI, 1955, pp.195-223. L.Mallon, " L'Ordinatio des inscriptions", CRAI, 1955, pp. 126-136. J.Marcillet-Jaubert, " Philologie des inscriptions", Revue des Etudes Anciennes, 62, 1960, pp.362-382. Marc Mayer, "Epigrafia y Paleografía. Una integración lenta y difícil", XI Congreso Internazionale di Epigrafia Greca e Latina, Roma, 18-24 settembre 1997, Roma, 1999, pp.495-518.
- (4) - JM.Lassère, Recherches sur la chronologie des épitaphes païennes de l'Africa, Antiquités Africaines, 7, 1973, pp.7-151. R.C.Knapp, Latin inscriptions from central Spain, Classical Studies, Vol.,34, University of California Publications, 1992, 476p. "The problem of dating", pp.339-384.
- (5) - M.Brillo, "Une expérience de recherche historique à partir de l'analyse d'un corpus d'inscriptions funéraires latines", Antiquités Africaines., 9, 1975, pp.127-144. J.Aguilella Almer, "Détermination de la représentativité des inscriptions latines grâce à la statistique inférentielle", Antiquités Africaines, 9, 1975, pp.115-126.
- (6) - G.Alföldy, " Note sur la relation entre le droit de cité et la nomenclature dans l'empire romain", Latomus, 25, 1966, 37-57. G.Sanders, "L'onomastique et l'épigraphie. Population autochtone et population étrangère dans le monde romain tardif", in Acta Centri Historiae, tena antiqua balcanica, 1987, pp.315-333. E.Badian, Foreign Clientelae (264-70 B.C.), Oxford, 1972. 342p.
- (7) - J.N.Bonneville, "Le support monumental des inscriptions: terminologie et analyse", in Epigraphie Hispanique. Problèmes de méthode et d'édition, Paris, 1984, pp.117-152.
- (8) - M.El Rhalti, Recherches sur l'onomastique de la Maurétanie tingitane, Thèse de doctorat (N.R.), sous la direction d'Ed.Frézouls et de J.M.David, Strasbourg, (décembre 1996), soutenue le 17 mars 1997.
- (9) - D.Julia, " Les monuments funéraires en forme de demi-cylindre dans la province romaine de Tarragonaise", Mélanges de la Casa de Velásquez, I, 1965, p.29-74.

- J.Gascou, " inscriptions de Tébessa", M.E.F.R., 81, 1969, pp.537-599. P.A.Février, "Remarques sur les inscriptions funéraires datées de Maurétanie Césarienne orientale ", M.E.F.R., 76, 1964, 1, pp.105-172.
- (10) - F.Braemer, "Les marbres à l'époque romaine", Revue Archéologique, 1971, fas.1, pp.167-174. M.H.Balance, "The origin of Africano", Papers of British School at Rome, vol., 34, (New series), Vol.,21, 1966, pp.79-81.
- (11) - IAM2: 394-402-404-413-420.
- (12) - Ph.Leveau, Caesarea de Maurétanie. Une ville romaine et ses campagnes, .Coll.de l'Ecole Française de Rome, 70, 1984, 556p.
- (13) - Y.Le Bohec, " Onomastique et société à Volubilis", Africa Romana., t.6, Atti del VI Convegno di Studio Sassari, 16-18, 1988, (1989),pp.359-357.
- (14) - قراءة إيغرافية جديدة للنقائش المسيحية بموريطانيا الطنجية. انظر: محمد المبكر، المسيحية و الترومن في شمال أفريقيا من عهد ديوكليتيانوس إلى الغزو الوندالي (284م-429م)، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ القديم، الجزء الأول، كلية الآداب و العلوم الإنسانية - فاس - 1999، صص. 181-189.
- (15) - R.Duthoy, " Recherches sur la répartition géographique et chronologique des termes sevir augustalis, augustalis et sevir dans l'empire romain", Epigraphische studien, 11, 1974, 143-214.

البحث في التراث القديم: بين تقاليد الماضي وآفاق المستقبل

المصطفى مولاي رشيد*

من خلال عنوان مساهمتي في اليوم الدراسي الخاص بالبحث في التاريخ القديم، تعمّدت استعمال لفظ تراث ولا كلمة تاريخ. لماذا؟ لأنه، في اعتقادي، شكّل فترة ما قبل التاريخ رصيذاً أساسياً ومفيداً من التراث العتيق. وهي الحقبة الطويلة المدى والتي توحى إلى عناصر هوية وطنية معينة. ويجب من باب الإنصاف، أن نستحضر نشاط تلك الجمعية التي انكبت خلال سنوات طويلة على فترة ما قبل التاريخ المغربية، وكان جورج سوفييل G. Souville (1) من أعضائها المرموقين. حبذا، لو توبعت تلك الممارسة العلمية من جانب باحثين مغاربة.

أما ما يهم التاريخ القديم، ففي الحقيقة، أخذ العصر الروماني من علماء الآثار، الاعتناء الواسع فضاء وحده. ولكن، لم تقتصر مبادرات هؤلاء الأثريين بصفة عامة، خلال عهد الحماية وبداية عهد الاستقلال، على الرومان فحسب، بل تمّ

تسليط الأضواء من جانب بعضهم، أيضاً على الفينيقيين والقرطاجيين والأمازيغ والرحلات البحرية والعلاقات الخارجية مع باقي بلدان إفريقيا الشمالية وبعض المجالات من إفريقية الجنوبية. وأعتقد أن المساهمات وافرة في هذا المضمار. غير أنه، قد عشنا منذ السبعينات أزمة التاريخ القديم بصدد تلك العملية التحويلية أو بتعبير آخر بشأن تلك المبادرات الهادفة إلى مغربة التاريخ القديم لا سيما ما يخص أطراً استيعابه وتبليغه. سبق لي أن أشرت إلى هذا الإشكال خلال الحفل التكريمي الخاص بالأستاذ إبراهيم بوطالب(2). فقلت آنذاك إن الجواب واضح، لأنه، وبكل موضوعية، لم يكن من تقاليدنا المعرفية العتيقة أو المُحدثة، الالتفات إلى التراث القديم(3) وذلك لأسباب عدة: عقيدية واجتماعية ومنهجية.

يظل في نظرنا، من المفيد المحافظة والسعي نحو إغناء تراث ذي قيمة جمالية وبشرية. ففي هذا الإطار، يفتخر العلم القديم بحق، لكونه اكتشف بالتدرج قواعد التفكير والبحث والاتصال والنقد، قواعد لولاها، لم يتسم العمل الفكري العتيق بأية قيمة تُذكر. وهانحن أمام ماضي، كان قبل كل شيء، حياة واقعية وتمريناً نافعاً لسيرة الفكر نحو العلوم الإنسانية. وبالتالي، كيفما كانت الإشكالات التي تظهر بمناسبة الدراسة قصد استيعاب الفكر القديم، فهي على أية حال، أكثر قصوراً من الصعوبات التي تهبها طبيعة المستندات المتوفرة لدينا. فالمبادرة في هذا المضمار، ليست مستعملة ومُنجزة في حينها. فمن اللازم على الأقل، ترجمة نص أو تأويل نقاش أو دراسة لمدة طويلة، مجموعات نقدية واستتطاق صخور قديمة؛ وقد لا يتسم هذا الاستيعاب على الإطلاق أو من النادر جداً، فما هو موثوق به وفي أتم الوضوح والدقة. وهكذا، يصير التراث القديم، الميدان العلمي الأقل ضبطاً وصحة مما قد يكون عليه. غير أنه عكس ذلك، قد يبدو أكثر جانبية بحكم وازع الشك نفسه في معلوماته، حيث تبرزها مفارقة هذه المادة التي تتطلب بطبيعة هشاشتها، أقصى ما يمكن من العمل الجاد والتقنيات والمناهج الدقيقة والصائبة.

مع أنه نلاحظ وبدون منازع تقدم المعرفة الخاصة بالتاريخ القديم. فمنذ قرون تقريباً، أظهر تأويل النصوص المنجزة جيداً رؤية جديدة، كما نمت العلوم التكميلية بصفة موازية، وفوق كل هذا وذاك، أغنى استعمال المناهج الدقيقة معلوماتنا بشكل جدّي، الأمر الذي جعل التاريخ القديم يتحول أكثر فأكثر كأغلبية الأنشطة الإنسانية إلى مادة علمية.

فما هي ميادين (4) هذا التاريخ؟ فمن المفيد في نظري نكرها ولو بإيجاز.

• الهياكل السياسية: إنها تقترب من الأنظمة المعاصرة من أجهزة أرسنقراطية، طغيانية وديموقراطية فمن آلاف السنين ومنذ وجدت مجتمعات، ظل من الأکید حكمها وتسييرها. لنبادر في هذا الإطار في محاولة التفكير في النظم المبدعة التي عاشت ميلاد وتطور العلوم المختلفة وفي الحقب — عكس ذلك — التي تميزت بالركود والانحطاط. ومن اللازم ممارسة في هذا الباب عملية الاستنتاجات الأساسية.

• المصادر الأدبية: يوفر لنا العدد الكثير من المؤلفين القدماء، دون أن يمارسوا أشغال المؤرخين، معلومات هي بمثابة مستندات نفيسة بواسطة الرؤية العاجلة للأحداث.

• المصادر الغير الأدبية:

— العلماء القدماء.

— المؤلفون التقنيون Vitruva.

— الجغرافيون وأصحاب الرحلات.

— العلماء البيزنطيون.

— الوثائق الرسمية القديمة.

• تاريخ الإغريق والرومان.

• العلوم المعروفة بالتكميلية:

- علم الآثار: ليس بالإمكان أن يُطلقَ عليه اسم "علم تكميلي" فهو ليس مستقلاً فحسب، بل صار مكتسحاً بالنسبة للعلوم الأخرى.
- علم النقائش: نثرأ وشعراً وحتى ما يتعلق بقصائد الهجاء .
- علم النقود.
- علوم الإنسان من أنثروبولوجيا وإيتنوغرافيا واليوغرافيا.
- * ميادين أخرى جديرة بالبحث:
 - فلسفة وتاريخ الأفكار.
 - العلوم الحقة: من رياضيات وعلم الفلك، فيزياء، كيمياء، جيولوجيا، علوم الأرصاد الجوية.
 - الزراعة، تربية المواشي، المعادن، هندسة المياه.
 - علم النباتات والحيوانات.
 - علم البيئة.
 - الطب والصيدلة وطب الحيوانات.
 - الحرف.
 - الفن العسكري.
 - الصيد، الرياضة والألعاب المختلفة.
 - التاريخ:
 - التاريخ القديم العام.
 - تاريخ العالم القديم في علاقاته مع روما وبلاد الإغريق.
 - التاريخ الهلنستي أو الهلياني.
 - تاريخ مصر الإغريقية - الرومانية.
 - القورينائية والطرابلسية.
 - شمال إفريقيا.
 - شبه الجزيرة الإيبيرية.

• تاريخ الأدب:

— التاريخ العقيدى والأسطوري.

— تاريخ النصوص.

— اللسانيات وفقه اللغة.

فعلى ضوء هذه المقترحات التي تحمل أيضاً في طياتها إشكالات البحث في التاريخ القديم، قد برزت في اعتقادي آفاق جديدة، تخص المبادرة العلمية في هذا الإطار. وهنا، من الأليق أن نترك جانبا — ولو مؤقتاً — النطاق الوطني خصوصاً وشمال إفريقيا على العموم، للاهتمام بما حدث قديماً في مجالات مختلفة من العالم المعمور طبقاً لآليات واختصاصات فروع التاريخ القديم عبر الجامعات المغربية. وسيؤدي لا محالة هذا الانفتاح على الخارج إلى تطور ملموس بالنسبة للبحث في التراث العتيق. ولنتذكر في هذا المضمار ما آلت إليه الدولة الإسلامية في كل من المشرق والأندلس من حضارة وازدهار بعد احتكاكها بالتراث المعرفي القديم.

الموامش:

(1) — أنظر أعمال ج. سوفيّل الخاصة بفترة ما قبل التاريخ المغربية، لا سيما ما يتعلق بالمغرب الأطلسي. ألقى هذا العالم بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، محاضرات خاصة بهذه الحقبة، لطلبة شهادة التاريخ القديم من الإجازة إلى حدود سنة 1965.

(2) — يومه السبت 21 أبريل 2001 زوالاً بدار المريني بالرباط المدينة.

(3) — وفق ما جاء في نص ورقة العمل: «إن تاريخ المغرب في الفترة القديمة (فترة ما قبل الإسلام) تاريخ مسكوت عنه في الكتابات التقليدية المغربية».

(4) — أنظر فيما يتعلق بالمنشورات الخاصة

محاولة في رصد حصيلة الأبحاث الأثرية حول المغرب القديم قبل العهد الروماني

محمد مجنوب*

نقترح في هذا الموضوع دراسة مختصرة حول المراحل التاريخية المتعارف عليها بالنسبة لتاريخ المغرب القديم قبل خضوع البلاد للرومان. وسنتبع كل مرحلة على حدة باستعراض مقتضب للإشارات الواردة في المصادر التاريخية، ثم سنقدم نتائج الأبحاث الأثرية حول كل مرحلة على حدة.

المرحلة السابقة عن العهد الفنيقي

إنها مرحلة يتجاهلها الدارسون، بينما نعتبرها منطلقاً أصلياً لحضارة المغرب القديم بعد عهود ما قبل التاريخ (1). فلقد تواترت بعض الإشارات عند الكتاب الإغريق حول هذا العهد الغابر منذ الشاعر هوميروس. ومنهم من أكد أنه استقى معلوماته عن هذه المرحلة من مصر الفرعونية. تفيد هذه الإشارات من جهة أن المغرب عرف قبل مجيء الفنيقيين نموا حضارياً، في الفلاحة والعمارة والعلوم والديانة والسياسة، ومن جهة أخرى فإن هذا التقدم الحضاري كان له إشعاع وتأثير بليغ في العالم الإغريقي، الأمر الذي أثار حفيظة المينويين، فصاروا

* أستاذ باحث بكلية الآداب - المحمدية.

أندادا ومنافسين للإله الليبي بوسدنيوس Poseidonius والد أقدم أبطال وملوك المغرب وهما أنتايوس Anthaeus وأطلس Atlas. وغني عن البيان أن القصة الأسطورية حول مصارعة هرقل لأنتايوس تتطوي على هذه المنافسة مع العالم الإغريقي. ونقدر أن مرحلتنا هذه معاصرة على الأقل للمملكة الفرعونية الوسطى وللمقدمات الحضارية في العالم الإغريقي، المعروفة بالحضارة المينوية بجزيرة كريت والحضارة الموكينية في أطراف شبه جزيرة البيلوبونيز. إن هذا الافتراض يسمح لنا حاليا بحصر تاريخ المرحلة التي تهمننا، ما بين الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد حتى حدود القرن الثاني عشر، حيث ظهر الفنيقيون على مسرح الأحداث في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

إن الكتاب القدماء أشاروا إلى بعض من آثار هذه المرحلة، على أنها كانت موجودة في وقتهم. يروي بومبونيوس ميلا في هذا الصدد ما يلي: "كان أنتايوس ملكا على موريطانية، وما يؤكد ذلك وجود ربوة تحتوي على ضريح هذا العملاق. ويبدو شكلها على هيئة إنسان نائم على ظهره". وفي حديث الكاتب عن طنجة قال: "إنها مدينة قديمة جدا أنشأها أنتايوس. والدليل على ذلك توفر المدينة على درع ضخم مصنوع من جلد فيل، وهو لا يناسب أي إنسان حاليا، بينما يؤكد السكان أن العملاق كان يستعمله"⁽²⁾. وقد أثارت هذه المخلفات المادية التي كانت معروفة في القديم فضول القائد الروماني سرطريوس، فنقب في ضريح البطل أنتايوس بناحية طنجة حوالي سنة 82 ق.م⁽³⁾.

والجدير بالذكر أن الإغريق والرومان اعتادوا على تصوير مصارعة هرقل وأنتايوس في مشاهد مختلفة⁽⁴⁾، كما أشار إلى ذلك بعض الكتاب القدماء⁽⁵⁾. وقد حظي المغرب بنصيبه من هذه الآثار التي تعود للعهد الروماني. فبمدينة ويلي يظهر هذا المشهد في فسيفساء منزل أعمال هرقل. وفي مدينة لكسوس تم العثور على تمثال برنزي يعالج هذه الفكرة⁽⁶⁾.

ومن قبيل الذكرى الخالدة لعهد أطلس المزدهر ما أثار اهتمام بيدور الصقلي في تناوله لموضوع ليبيا. وهذا قوله: "إن الأطلسين Atlantes رعايا أطلس هم أكثر الليبيين حضارة في هذه النواحي. فهم يمتلكون أرضا مزدهرة ومدنا كثيرة". ومن بين هذه المدن نكر نفس الكاتب مدينة كرنى Kerné، التي حطمتها النساء الأمزونات Amazones في حملتهن المظفرة على بلاد الأطلسين. وبعد الصلح الذي تم بين الطرفين، والولاء الذي أبداه الأطلسيون لهذه النساء، فإن ملكة الأمزونات، التي تدعى مورينة Murina أعادت بناء المدينة وأطلقت عليها اسمها (7). فإلى أي حد يكون اسم مورينة قريبا في اشتقاقه من اسم الموريين Mauri، وهم سكان المغرب القديم، الذين أطلق اسمهم على بلادهم Mauretania (8).

وهنا نشير إلى أن ذكرى موقع كرنى ظلت خالدة في الجغرافية التاريخية للمغرب القديم. على أنها جزيرة طاف بها حنون في رحلته (9). وتحدث سكولكس عن التجارة التي كانت تقوم بها مع الفنيقيين (10) وظن أحد الكتاب أنها كانت تزخر بالذهب (11). ثم نقل بلنيوس الشيخ عن بوليبيوس، ما يفيد أن الجزيرة المذكورة كانت تقع في أقصى جنوب موريطانية، وهي متقابلة مع جبال الأطلس، تفصلها ثمانية ستادات stades عن الساحل (12) بينما لاحظ سترابون أن الجزيرة لم يعد لها أي أثر (13). لكن بطليموس حاول إيجاد موقع لها خارج نطاق موريطانية (14).

غير أننا لا نتوفر حاليا على أية مخلفات مادية حول الوسط الأثري لهذه المرحلة الغابرة من تاريخ المغرب القديم، في لكسوس خاصة، لأنها مرشحة أكثر من غيرها من المدن لاحتواء هذه المخلفات. والمسألة تتطلب مزيدا من التحري والتقيب عن آثار هذه المرحلة الغابرة، التي تركت بصماتها في واقع المغرب الجغرافي والثقافي والحضري، ضمن ما تختزنه ذاكرة الناس. والأمر يتعلق بذكرى الملك أنتايوس المتمثل في خلود اسم مدينته طنجة. وباقتران اسم أطلس بالأطلسين الذين سكنوا المغرب قديما. وما زالت ذكرى هذا الاسم خالدة في جبال المغرب ومحيطه. كما ترتبط ذكرى البطل أطلس بخلود مدينة لكسوس، التي مازال نهر اللكوس ينطوي

على اسمها العتيق. وهي المدينة التي اشتهرت بحدائق الهسبريات Les Hespérides المنسوبة لبنات هذا الملك. كما اعتبرت المدينة عاصمة الملك أنتايوس وله فيها قصر. كل ذلك يفيد أن حضارة المغرب القديم تستمد جذورها من هذه المرحلة التي ازدهرت فيها البلاد قبل الفنيقيين.

المرحلة الفنيقية

ينفرد نص رحلة سكولكس بنعت مدينتين موريتين بكونهما فنيقيتين. والأمر يتعلق بلكسوس المعروفة حالياً، وتمياترية Thumiateria الواقعة على نهر كرابيس Krabis وهو واد سبو. وأثار هذه المدينة مازالت مجهولة. ولقد ميز سكولكس بين لكسوس كمدينة فنيقية ومدينة أخرى وصفها بالليبية دون ذكر اسمها، محددًا موقعها على الضفة اليسرى لنهر لكسوس. كما نجد صاحب الرحلة ملماً بالمبادلات التجارية التي كان يقوم بها الفنيقيون في جزيرة كرني Kerné على المحيط الأطلسي (15).

بالنسبة لمدينة لكسوس نتساءل عن تجاهل سترابون لماضيها الفنيقي نظراً لاهتمامه بالوجود الفنيقي في البلاد. بل اكتفى بالإشارة إلى المراكز الفنيقية، محددًا مجالها جنوب لكسوس، ومستغرباً من مبالغة مصادره في تقدير عددها. وهذا قوله: "في جنوب لكسوس ورأس كوطيس يوجد خليج يدعى بالأمبوري Amporikos لأنه يحتوي على مراكز للتجارة الفنيقية Amporias". وفي سياق آخر أورد نفس الكاتب خبراً اعتبره من قبيل المعلومات المغلوطة مفاده: "أن الخلجان الواقعة جنوب الخليج الأمبوري تحتضن حوالي ثلاثمائة مدينة كان يمتلكها أهل صور لكن ليس لها اليوم أي أثر، لأن الفاروسيين والنكريتين حطموها عن آخرها، ويقال إن مواطن هذين القومين تبعد عن لكسوس بحوالي ثلاثين يوماً من المشي" (16).

إن نفس التساؤل يطرح حول عدم اكتراث بلنيوس الأكبر بالماضي الفنيقي لمدينة لكسوس، بينما نجده مهتماً بواقعها قبل العهد الفنيقي، بالإشارة التالية: "إن القدماء جعلوا من لكسوس موضوعاً لقصص عجيبة، فجعلوا فيها حدائق الهسبريات وقصور أنتايوس وفيها تصارع مع هرقل... لكن أشجارها من التفاح الذهبي المشهورة في

الأساطير ليس لها أي أثر باستثناء الزيتون البري" (17). ثم أضاف نفس الكاتب في سياق آخر ما يلي: "تقع مدينة لكسوس على بحيرة تبعد عن المحيط بحوالي مائتي قدم. إنها قرب معبد لهرقل وهو أقدم من معبد نفس الإله في كاديس Gadis حسب ما يقال" (18). والجدير بالذكر أن الدارسين اعتمدوا هذا النص الأخير للتسليم بالهوية الفنيقية لمدينة لكسوس، على أن تاريخ إنشائها مترامن مع تاريخ إنشاء الفنيقيين لمدينة كاديرة Gadeira أو كاديس في إسبانيا منذ أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد (19). وهنا نتساءل عن التسمية الفنيقية لبعض المدن وهي روسادير Rhysaddir المتوسطية والأطلسية ومعهما روسبيس أو روتبيس Rousibis (20)، فهل تعكس نكري المراكز الفنيقية في المغرب القديم، التي علم سترابون بشأنها في النص السالف ذكره.

أيا ما كان الأمر، فالمواد الأثرية الفنيقية متوفرة في عدة مواقع مغربية. والأمر يتعلق بنوع خاص من الأمفورات وبخزف مطلي بلون أحمر *céramique à engobe rouge* ومعها في نفس الوسط الأثري قطع من خزف آتيكي. بدأ التعرف على هذه السلع الفنيقية في جزيرة مكدور وتم التأريخ لها ما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد (21). وتميزت مكدور عن غيرها من المواقع، باحتوائها لكتابة فنيقية منقوشة على قطع من الأواني الخزفية، وعلى قطع أمفورات، يتراوح تاريخها ما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. ومن بين ما كتب على هذه القطع أسماء أشخاص مركبة مع معبودات فنيقية مثل بعل وإشمون وتانيت، فضلا عن اسم شخص يدعى مكدور، وهو علم اشتهر فيما بعد بقرطاجنة (22). وقد دلت هذه المكتشفات على مصداقية سكولكس في إشارته إلى كون الفنيقيين كانوا يبيعون خزفا آتيكيا للسكان في جزيرة كرنى Kerné. وبرغم أننا لم نتيقن بعد من مطابقة الجزيرة البائدة مع الجزيرة الحالية، فلا شك أن مكدور كانت تشهد رواجاً مماثلاً لما كان يجري في كرنى.

أعد طراديل استراتيجرافية مدينة لكسوس في استبار الخروب وحدد الوسط الأثري للمواد الفنيقية في المستوى الأسفل، لكنه تأثر برأي سنتاس في اعتبار أقدم آثار لكسوس لا تتعدى القرن السادس قبل الميلاد(23). بينما دلت دراسات متأخرة على أن أقدم مواد لكسوس تعود للقرن الثامن قبل الميلاد(24). اكتشف طراديل أيضا بعض المواد الفنيقية في موقع سيدي عبد السلام ببحر بناحية تطوان(25). بينما تجاهل نفس المنقب هذه المواد في أمسة بنفس الناحية(26)، تم التعرف عليها مؤخرا في دراسة مواد الموقع(27). ثم اكتشف بونسك قطعاً من الخزف الفينيقي في موقع جرف الحمراء بناحية طنجة(28). ولاعتبارات استراتيجرافية، يتضح من الطريقة التي قدم بها المنقبان نتائج استباراتهما في المنطقتين معا، أن هناك خلافا منهجيا يقتضي إعادة دراسة هذه المواقع(29). وأهم إشكال يطرح بالنسبة للموقعين الفينيقيين في ناحية تطوان هو عدم توصلهما بالخزف الأتيكي، الذي تم اكتشافه في بعض المواقع الأطلسية مثل بوتي بوا Petit Bois بناحية طنجة ولكسوس والأقواس وبناسة ومكدور. وقد دام رواج هذا الخزف في المواقع المورية ما بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد(30). ومن جهة أخرى يطرح المشكل السترترافي حول قطع أمغورات فنيقية تم اكتشافها في تاهدارت(31) وبناسة(32).

غير أن الأبحاث الأثرية لم تكشف بعد على ما يؤكد تغلغل الديانة الفنيقية بموريطانية كما هو عليه الحال في إسبانيا(33). برغم ترجيح الدارسين أن هرقل الذي أشارت النصوص إلى تقديسه في لكسوس هو الإله الفينيقي ملقارط(34). بينما لاحظ المتخصصون في دراسة النقود أن الإله المذكور لا يظهر على العملة المورية مثل ما هو عليه الحال بالنسبة لعملة كاديس(35). وهنا أخطأ بونسك في اعتبار الشخص المرسوم على عملة طنجة هو ملقارط(36). ومن جهة أخرى يرى بعض الدارسين أن المعبد المائل على عملة لكسوس يوحى بنكري معبد هرقل المذكور في النصوص(37). أما اعتبار المعبد H بلكسوس فينيقي الأصل ويرجع تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد(38)، فقد دلت دراسات متأخرة على مغالطة

ارتكبتها بونسيك في هذا التأريخ(39). وهي مغالطة تضاهي اعتباره أن مقابر ناحية طنجة فنيقية، مؤرخا لها ما بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد حسب هوا(40).

المرحلة القرطاجية

نعرف الوجود البوني القرطاجي في موريطانية بواسطة نص وحيد هو رحلة حنون التي وقعت في القرن الخامس قبل لميلاد(41) ، حيث ورد نكر ست مستوطنات قبل إن حنون أنشأها، بين مضيق أعمدة هرقل ونهر لكسوس(42). والراجح أن حنون شاء أن يخلد المدينة الفنيقية تميائية لما أطلق اسمها على أولى مستوطناته وهي تمياتريون Tumiatérian. أما اسم المستوطنة الثانية كاركون تيخوس Karikon Teichos ومعناها السور "الكارى"(43) ، فيوحي بنكري الآثار الإغريقية بالناحية، والتي ترجع في الغالب إلى فترة المنافسة بين الإغريقين والفنيقيين في استيطان الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. غير أن الوجود الإغريقي في موريطانية لا نجد له صدى واضحا في النصوص. بينما تحدث إفور عن هذه المدينة في القرون الثالث قبل الميلاد قائلا: "كاركون تيخوس مدينة ليبية تقع على يسار أعمدة هرقل"(44). والراجح أن نكر الكاتب المذكور لهذه المدينة يوحي بأنه علم من مصادره بالآثر الكاري في موريطانية، وهذا شأن تاريخي يهم الكاتب لكونه ينتمي إلى مدينة كوميس Cumes الواقعة في هذه المنطقة الآسيوية من العالم الإغريقي.

ثم هناك نص هيردوت حول تجارة الذهب بين القرطاجيين وسكان المغرب. وهذا قوله: "يتحدث القرطاجيون عن بلد في ليبيا وراء أعمدة هرقل. فعندما يصلون إليه يعرضون بضائعهم على الشاطئ ويعودون إلى سفنهم حيث يشعلون نارا. وحينما يراها السكان يأتون بالذهب ويضعونه بجانب السلع القرطاجية وينسحبون بعيدا عن المكان. بعدئذ ينزل القرطاجيون لفحص كمية الذهب، فإذا كانت كافية أخذوها وانصرفوا تاركين أمتعتهم. وإذا كانت غير كافية تركوها وعادوا إلى مراكبهم. وحينئذ يأتي السكان فيضيفوا شيئا من الذهب. وقد تتكرر العملية إلى أن يحصل

التراضي في صمت. ويؤكد القرطاجيون أن الطرفين يلتزمان بالإخلاص في معاملتهما، فهم لا يمسون الذهب إلا إذا وجدوه كافياً لقيمة سلعهم، والسكان بدورهم لا يأخذون شيئاً من البضائع قبل أخذ القرطاجيين للذهب" (45).

وآخر ما ندلي به في الشأن القرطاجي بموريطانية، إشارة إلى مقارنة الكتاب الإغريقين واللاتينيين بين لكسوس وقرطاجة، في نص قال فيه بلنيوس الأكبر ما يلي: "لا داعي للاستغراب كثيراً من تخيلات الإغريقين حول موضوع حدائق الهسبريات ونهر لكسوس، إذا علمنا أن كتابنا ألفوا مؤخرًا حول المدينة روايات خارقة للعادة. وإذا صدقنا كلامهم فإن لكسوس كانت أكثر قوة وأعظم من قرطاجة الكبرى" (46). وهذه إشارة هامة في تقديرنا، نرجح أنها تعكس المنافسة بين القرطاجيين والموريين، الذين حرصوا على مصالحهم في السيطرة على الملاحة التجارية بالمحيط، بمنع غيرهم من ارتياد بحارهم. وهذا ما يعكسه نص هيرودوت حول تجارة الذهب بشروط تتم عن قيود فرضها الموريون على زبائنهم في تبادل هذه المادة. وهو ما نلمسه من الفراغ الذي شهدته جزيرة مكدور بعد اتصال الفنيقيين بها بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد (47). ثم إن واقعة عقاب الموريين للتاجر والمستكشف أوكس الكوزيكي Eudoxe de Cyzique، توضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الموريين تحكموا في الملاحة بالمحيط الأطلسي، وكانوا يزجرون كل من لم يحترم مجال نفوذهم أو لم يراعي مصالحهم (48). قال سترابون في هذا الصدد: "لما وصل (أوكس) سالما إلى مورويسة Maurusia باع مراكبه. ثم قصد بگوس Bogos (بگوس الأول) وهو ماشيا، وعرض عليه أن يتولى الإشراف عن الرحلة البحرية التي يعتزم القيام بها. لكن أصدقاء بگوس تشبثوا بالرفض، محذرين ملكهم من مغبة جعل البلاد عرضة للغزو إذا صار الطريق معروفا عند الغزاة الأجانب". وفي النص إشارة إلى أن الموريين قرروا نفي الرجل إلى جزيرة مهجورة" (49). إن هذه المؤشرات تعكس فرضيتنا حول الوساطة المورية بين العالم المتوسطي وبلاد الإثيوبيين الغربيين، التي اشتهرت بثنى الثروات ومن بينها

الذهب. ولعدة اعتبارات لا يسمح المجال بالإسهاب فيها هنا، نرجح أن الموريين باحتكاكهم مع الفنيقيين وغيرهم من الشعوب، قد لمعوا في ميدان الملاحة التجارية قبل خضوع البلاد للرومان(50).

وبالنسبة للعلاقات السياسية بين الموريين وقرطاجة، فأقدم خبر حول هذه النقطة يفيد أن ملكا موريا أغفل المصدر نكر اسمه، قد ساعد أثرا قرطاجيا يدعى حنون، في تاريخ قُدْر بحوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد(51). وهذا يدعو إلى الاعتقاد بأن العلاقة كانت سيئة بين البلدين. ونجد امتدادا لعداوة مضمرة بين البلدين في مساعدة الموريين للملك الماسيسولي سيفكس Syphax سنة 213 ق.م. لما هاجمه الملك الماسولي كايا Gaia بدعم من قرطاجة(52). ثم ساعد الملك الموري باكّا Baga الأمير الماسولي مسنيسا بن كايا Massinissa سنة 206 ق.م. لكي يعود إلى بلاده لاسترجاع ملكه الذي سلبه سيفكس بتأييد قرطاجة أيضا(53). والواضح أن هذه المساعدات المورية للجيران النوميديين، تنعكس سلبيا على الأهداف التوسعية لقرطاجة، ولا ريب في أن هذه المواقف تدل على عدم انسجام الموريين مع تطلعات القرطاجيين في فرض هيمنتهم على الملوك الأفارقة.

ثم هناك إشارات في النصوص يستفاد منها أن الموريين التزموا مواقف الحياد في الصراع القرطاجي الروماني، والرجال الموريون الذين شاركوا في الحربين البونيتين الثانية والثالثة هم في الغالب مرتزقة(54)، لا تتحمل السلطة المورية مسؤولية انخراطهم في الجيش القرطاجي(55).

لم تسفر التحريات الأثرية لحد الآن على مخلفات أكيدة تركز هذا الوجود القرطاجي في موريطانية(56). وهنا نسجل أن آثار المراكز القرطاجية التي أنشأها حنون قد اختفت منذ التاريخ القديم، كما يشهد على ذلك بلنيوس الأكبر، في سياق حديثه عن مدينة لكسوس قائلا: "إن معظم الكتاب الإغريق وكتابنا أيضا يتحدثون عن أساطير من بينها أن حنون أنشأ عدة مدن في هذه الناحية. لكن ليس هناك أي أثر لها، ولا أحد يتذكرها"(57). فهل يبرر هذا النص إشارة المنقبين في مكنور وناحية

طنجة إلى عدم عثورهما على آثار قرطاجية في حفريتهما (58)؟ أم أن هذه النتائج السلبية ترجع إلى قصور في البحث؟ أيا ما كان الأمر، فإن الدارسين عجزوا عن التمييز بين المرحلة القرطاجية والمرحلة البونية واصطلحوا لذلك بعض المفاهيم مثل قولهم بالفترة البونية المورية (59).

وبالإضافة إلى ذلك نجد عند الدارسين تصورات لا تستند إلى دليل مقنع حول الوجود أو النفوذ القرطاجي بموريطانية، الذي يعد في نظر جودان استمرار للوجود الفنيقي بالمغرب (60). ومن قبيل هذه الأوهام، التكهن بأن مدينة روسدير قد شيدها القرطاجيون (61). وأن روتيبس Rutubis أو روسيبس Rousibis قد أنشأها البونيون قبل رحلة حنون (62). أو اعتبار تيط موقعا بونيا مطابقا للمدينة المذكورة، مع التأكيد على أن الأحواض المحفورة في الصخر بأحواز تيط تؤلف مقبرة بونية لسكان المدينة العتيقة. ناهيك عن التكهن باندثار المراكز البونية على الساحل الأطلسي نظرا لكونها مبنية بمواد هشة ونظرا لعوامل التعرية البحرية والانجرافات الواسعة التي تسببها (63). ومن قبيل هذه التصورات قول جودان التالي: "يبدو أن موقع مكدور صار مهجورا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، في نفس الوقت الذي تركز فيه تغلغل البونيين في شمال المغرب، وذلك في لكسوس وبناسة" (64). إنه رأي يتناقض مع زعم الكاتب نفسه بأن "مكدور هي بلا شك إحدى المراكز التي أنشأها حنون في القرن الخامس قبل الميلاد" (65). ويتناقض خاصة مع تأكيده بأن الجزيرة لم تستيقظ من سباتها إلا في عهد يوبا الثاني (66). وهذا حكم له مصداقيته بالنسبة للمتخصص للمواد الأثرية التي اكتشفها المنقب نفسه في الجزيرة، مع إشكالية خاصة يطرحها وجود شفتين لأمفورتين من النوع Mana D نشك في اكتشافها بالجزيرة (67).

ثم نجد نفس التخيلات عند بونسيك في قوله التالي: "استجابت قرطاجة لقوانين الجغرافية بإهمالها للساحل المتوسطي نظرا لضعف انفتاحه على الملاحية. بينما استقرت على الساحل الأطلسي حيث عملت على تطوير المراكز الفنيقية وإنشاء مراكز جديدة" (68). إنه رأي لا يستند على أي دليل مادي، ومناقض لإشارة بولبيوس

إلى كون مجال نفوذ قرطاجة لا يتعدى أعمدة هرقل (69). وهذا الخبر يفيد أن القرطاجيين أكثر ارتباطا بالواجهة المتوسطية، مع استثناء المجال الأطلسي الموري من الهيمنة التي تعتمد الكتاب القدماء والمحدثون إضفاءها على قرطاجة. ومن قبيل المجازفة كذلك القول التالي: "تأسست طنجة خلال رحلة حنون، واستطاع البونيون أن يجعلوا فيها ميناء تجاريا وتصبح في عهدهم مدينة بولة" (70). وعن موقع الأقواس ود نفس الكاتب أن يزعم ما يلي: "يعد موقع الأقواس محطة رئيسية في رحلة حنون، ونظرا لقربها من طنجة، تحولت مبكرا إلى مركز صناعي" (71). ناهيك عن الظن بأن بناسة ووليلي مستوطنتين بونيتين (72). وأخيرا نشير إلى المجازفة في تسمية بعض المخلفات الأثرية بالبونية، ونختار من ذلك مثال إطلاق صفة البونية على مدفن مغوغة الصغيرة (73). كما أطلق هذا النعت على أمفورات مورية محضنة صنعت في أفران الأقواس وهي النوع Mana A4 أو Kouass 2-3 (74) وشمل هذا المفهوم بعض القطع الذهبية، مثل قطعة تم العثور عليها في بناسة ضمن وسط أثري يعود للفترة الرومانية، ومع ذلك قدر تاريخ هذه التحفة بالقرن السادس قبل الميلاد (75). وأخيرا وصفت مبخرة تم اكتشافها بوليلي بكونها بونية (76). وقيل إن آثار بناية تم اكتشافها مؤخرا في هذه المدينة هي لمعبد بوني (77).

إن هذه المفاهيم تصطدم مع نتائج البحث الأثري، الذي لا يمكننا لحد الآن من ضبط مرحلة بونية واضحة المعالم في المغرب. وهنا نلاحظ مثلا من نتائج التنقيبات في مكدور، أن الجزيرة لا تحتوي آثارا بونية. بل على العكس من ذلك عرفت الجزيرة فراغا منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وذلك في فترة المد القرطاجي. غير أن هذا الفراغ المتمثل استراتيجيا في الطبقة الثالثة، فإنه لا يعد فراغا تاما، لأن هذه الطبقة تحتوي أمفورات الأقواس العتيقة من النوع المشار إليه أعلاه (78). ويعد ذلك في تقديرنا مؤشرا على وجود فعلي للموريين في مجالاتهم الساحلية.

والواقع أن هناك تلميحات في مصدرين إلى كون موريطانية كانت مستهدفة في مشروع التوسع القرطاجي (79)، الذي نعلم بتحقيقه في إسبانيا بعد الحرب البونية

الأولى. وهذا ما يعكسه مصدر يفيد أن إسبانيا هي وحدها التي شملها توسع قرطاجية (80). كما دلت نتائج الأبحاث الأثرية في إسبانيا على خضوعها للهيمنة القرطاجية منذ القرن السادس قبل الميلاد، حيث ركزت قرطاجية نفوذها على جزيرة إيبيزا (81). وتعزز ذلك بإنشائها لمدينة ملاكا (82).

وفي هذه الفترة نلمس بموريطانية نموا عمرانيا واقتصاديا، نسوق مثالا واضحا يهيم النشاط التجاري للموريين خارج المجال البوني. يتعلق الأمر بصناعة أمفورات ضخمة في أفران الأقباس مخصصة لنقل الكاروم Garum، وهي النوع Mana A4 أو Kouass 2-3. وقد تم اكتشاف هذه الأمفورات في بعض المدن اليونانية ضمن وسط أثري يعود للقرن الخامس قبل الميلاد (83). ولقد عمت هذه الأمفورات كل المواقع المورية التي كانت معمورة في فترة رواجها ما بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد، أي قبل استعمال أمفورات مورية جديدة نعرف أنها صنعت في أفران بناسة والأقباس هي النوع Dr. 18.

أما بالنسبة للعلاقات التجارية بين موريطانية وقرطاجية، فنذلي هنا بملاحظة طر اديل حول كون قرطاجية لم تتوصل بأمفورات الأقباس العتيقة من النوع Mana A4 أو Kouass 2-3 الذي عثر عليه في موقع أمسة، وفسر المنقب هذه الظاهرة بضعف الروابط بين البلدين (84). وفي مقابل ذلك نسجل ندرة النقود القرطاجية في المغرب (85). بينما توزعت هذه النقود في عدة آفاق نذكر منها الجزائر وإسبانيا وفرنسا (86). كما أن الأمفورات البونية المشهورة في مجال النفوذ القرطاجي فهي نادرة في المغرب (87). وقد تم التعرف مؤخرا على نماذج قليلة من هذه الأمفورات البونية في مواد موقعي أمسة وسيدي عبد السلام بليجر (88). وهنا نشير إلى أهمية التحريات الجديدة في موقع عزيب السلاوي، برغم نتائجها المحدودة، فإن الفترة المورية ممثلة بأمفورات الأقباس العتيقة من النوع السالف ذكره (89).

وهذا يوحي بأن موريطانية أقل اندماجا في تجارة العالم البوني على مستوى الاستيراد على الأقل (90). ويوازي ذلك ما تتطوي عليه النقائش البونية من ضعف

ارتباط موريطانية بالمعتقدات القرطاجية، عكس ما هو عليه الحال في بقية المناطق التي تتدرج في المجال البوني(91).

غير أن في البلاد مخلفات تتم عن تغلغل التأثيرات الثقافية البونية، التي استمرت حتى بعد سقوط قرطاج سنة 146 ق.م. يتجلى ذلك في الكتابة باللغة على العملة المورية قبل سيادة التأثيرات الثقافية الرومانية(92). واستعمال نفس الكتابة على النقائش(93). ومن بين هذه النقائش نموذج له علاقة بنظام الحكم والإدارة تم اكتشافه في ويلي، يعكس فعلا تغلغل التأثيرات البونية. فالنقيشة تعرفنا على أسوة توارث أفرادها بوليلي منصب الشوفيط المشهور في قرطاج(94). وقد خلدت نقيشة لاتينية هذا الشأن الإداري بالإشارة إلى أن ماركوس فالوريوس سفروس Marcus Valerius Severus شغل المنصب المذكور في نفس المدينة قبيل خضوع البلاد للرومان(95). كما نلمس تأثيرات في الميدان الحرفي، تتجلى في صناعة الأمفورات المورية من النوع Dr. 18 التي كانت متداولة في قرطاج قبل سقوطها سنة 146 ق.م(96). وقد ظن أحد الدارسين أن صناعة هذه الأمفورات نقلها قرطاجيون التجأوا إلى موريطانية بعد تحطيم مدينتهم(97). كما يتجلى هذا التأثير في استعمال مبخرات بمدينة تمودة تشبه نماذج بونية صنعت على هيئة آمية، من خلال رسم رأس امرأة في أعلاها، يقال إنها تمثل رأس الإلهة ديمتر Demeter (98). والجدير بالذكر أن مدينة تمودة أنشئت على ما يبدو في فترة أفول الدولة القرطاجية(99).

المرحلة المورية

تمثل المرحلة المعروفة من سيادة الملوك الموريين على موريطانية ما بين أواخر القرن الثالث قبل الميلاد وحوالي سنة 40 م. والمجال لا يسمح بتناول الموضوع من كل جوانبه، ولذلك وجب التركيز على بعض القضايا الأساسية(100).

اهتمت النصوص بتحديد الخريطة السياسية للمملكة المورية، وهي تتحصر بين المحيط ونهر ملوثة Mulucha وبين المضيق وجبال الأطلس، التي تفصل الموريين عن جيرانهم الإثيوبيين الغربيين. ومن جهة أخرى أفادت المصادر بأن مجال

الموريين الواسع صار بعد منتصف القرن الأخير قبل الميلاد مقسما إلى مملكتين يفصل بينهما نهر ملوشة (101). غير أن هذه النصوص لم تسعفنا في معرفة تسلسل حكم الملوك الموريين كما هو الشأن بالنسبة لملوك نوميديّة. بالإضافة إلى إهمال الأوضاع الداخلية وإغفال ذكر عاصمة موريطانية (102).

المواد الأثرية لم تقدم توضيحات ذات أهمية حول ملوك موريطانية، إذ لم يتم العثور بعد على نقائش ترتبط بهم، كما هو الشأن بالنسبة لملوك نوميديّة (103).

ثم نجد تلميحات في العملة إلى واقع الموريين السياسي والاقتصادي والديني والثقافي. والعملة المورية في حد ذاتها تنقسم إلى صنفين أحدهما يحمل أسماء الملوك وثانيهما يحمل أسماء بعض المدن الساحلية. وبالنسبة للعملة الملكية فهي تعرفنا عن أربعة ملوك قبل يوبا الثاني هم بكوس الأول ومستانسوس وبكوس الثاني وبكود (104). في حين لا نعرف عملة للملك باكا الذي حكم في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد وهو معاصر للملكين النوميديين سيفكس ومسنيسا اللذان كانت لهما عملة معروفة، وكانت نقود هذا الأخير متداولة في موريطانية (105). وعدم وجود عملة باكا يدعو إلى الاعتقاد أنه حكم مدة قصيرة، وهذا احتمال مستبعد لاعتبارات تتعلق دائما بموضوع العملة، التي لا تعلمنا بملك غيره قد حكم قبل بكوس الأول (106).

وبواسطة العملة تعرفنا على نسب بكوس الثاني (107)، حيث ورد اسمه باللاتينية كما يلي: (Rex Bocchus Sosi F(ilius)، ومعناه "الملك بكوس بن سوس". ويرجع الفضل إلى جيمس ففري في تفسير هذا المعنى الذي انطلق على مزار (108). والراجح أن سوس اختصار لاسم مستانسوس. وبنفس الطريقة كتب اسم هذا الملك باللاتينية Rex Sos على قذائف من الرصاص كانت تستعمل في المقاليع تم اكتشافها بوليلي (109).

أما الملك بكود فقد أفادتنا عملته باسمه الحقيقي وهو بوكوت Bocut (110) ونرجح أن لهذا الاسم قرابة مع قوم البكواطين Baquates، ولعلمهم يمثلون العصبية التي ينتمي

إليها هذا الملك (111). والبكواطيون من عناصر السكان الذين نكرهم بطليموس (112). ونعرفهم بواسطة نقائش لاتينية تم اكتشافها في وليلي، وهي تفيد أن لهم علاقات دبلوماسية مع السلطة الرومانية في موريطانية الطنجية (113). ثم إن عملة الملكين بكوس الثاني وبكود المكتوبة باللاتينية تعكس تغلغل التأثيرات الرومانية التي ساهمت في تراجع التأثيرات الثقافية البونية، كما دل على ذلك استبار حديث في وليلي، حيث تم العثور على نقيشة بونية مكسرة في وسط أثري يرجع لأواخر الفترة المورية (114).

ومن جهة أخرى فإن العملة تطرح إشكالا خاصا يتعلق باسم شمش المكتوب بالبوننة على ظهر عملة بكوس الأول (115)، وهي نقود ترجح أن الملك أصدرها قبل حرب يوغرطة (116). كما كُتب هذا الاسم وحده على عملة خاصة (117). وقد ظن الدارسون أن شمش اسم ثان لمدينة لكسوس. وبرروا ذلك بنعت أطلال لكسوس في الفترة الإسلامية باسم شمس (118). لكن المتخصصين في العملة بدأوا يرتابون في المطابقة بين الاسمين (119). وانطلاقا من هذا الاعتبار رجح ربوفا أنه إذا تعلق الأمر بموقع ما فهو يطابق أكثر موقع كيلة أو وليلي (120). والجدير بالملاحظة أن النصوص القديمة التي تناولت الجغرافية التاريخية للمغرب لم تتطرق لاسم شمش.

أما أهم القضايا التي نستقيها من النصوص فهي الأتوار التي لعبها الموريون في حروب الرومان. خاصة في القرن الأخير قبل الميلاد. سبق أن أشرنا إلى عدم تورط الملوك الموريين في الصراع القرطاجي الروماني في معالجة الفترة القرطاجية. أما العلاقات السياسية بين موريطانية ورومة فبدأت خلال حرب يوغرطة. وهنا نشير إلى التطابق بين النصوص ونتائج الأبحاث الأثرية في كون العلاقات التجارية والسياسية بدأت بين موريطانية ورومة في القرن الأخير قبل الميلاد، وذلك من خلال ندرة المواد الرومانية التي عمت بلدان البحر الأبيض المتوسط ما بين القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد (121). وبعد هذه الحرب صار الملك بكوس الأول صديقا وحليفا للرومان. وزكت رومة استيلاءه على القسم

الغربي من نوميديّة. غير أن هذا الانفتاح الرسمي على رومة أنكى تناقضات داخلية بين الموريين. فشنوا ثورة ضد بكوس الأول رافضين سياسته الجديدة. لكن الملك أحبط هذه الانتفاضة وتثبيت بموقفه(122).

وبعد بكوس تورط الملوك الموريون في الحروب الأهلية الرومانية بين ماريوس وسولا، الأمر الذي سمح لبومبيوس بفرض هيمنته على الملكين الموريين بكوس الثاني وبكود، وعلى آخر ملوك نوميديّة وهو يوبا الأول. ولما اندلع الصراع بين بومبيوس وقيصر تمكن هذا الأخير من استمالة الملكين الموريين لينفصلا عن حليفهما بومبيوس. وقد أبلى كل ملك على حدة في تدعيم قيصر. فبكوس الثاني غزا مملكة يوبا الأول سنة 46 ق.م. وبعد تحقيق قيصر للانتصار كافأ الملك الموري بتوسيع مجال نفوذه في نوميديّة، ليصير نهر أمبساكا Ampsaga حدا شرقيا لمملكته. أما الملك بكود فقد ساهم في انتصار قيصر بإسبانيا خاصة في معركة موندا Munda سنة 45 ق.م(123).

أما بالنسبة للصراع بين أنطونيوس وأكتافيوس فقد اختلف الملكان الموريان في مواقفهما لأسباب لا ندرها. وكان ذلك وبالا على الملك بكود نظرا لسوء حظه في التحالف مع أنطونيوس، الذي منى بالهزيمة في هذا الصراع. لقد تدخلت قوات أكتافيوس في موريطانية ضد بكود وأطاحت بعرشه سنة 38 ق.م. وبعدها سمح أكتافيوس لبكوس الثاني بضم موريطانية إلى مجال نفوذه. وإثر وفاته سنة 33 ق.م. صار أكتافيوس يتحكم في مصير البلاد، وحاول ضمها إلى مجال نفوذ الامبراطورية الرومانية، لكن الموريين شنوا ثورة ضد سياسته، غير أن مقاومتهم باءت بالفشل أمام التدخل العسكري العنيف لقوات أوكتافيوس في موريطانية، وإثر ذلك أنشأ اثنتي عشرة مستوطنة رومانية في المجال الذي كان خاضعا لبكوس الثاني، منها أربعة في موريطانية، هي طنجة وزليل وبابة وبناسة. وفي سنة 25 ق.م اضطر أكتافيوس إلى تنصيب يوبا الثاني ملكا على الموريين، ثم خلفه ابنه بطليموس سنة 23 م. إلى أن اغتاله الإمبراطور الروماني كليغولا Caligula سنة

40م. وبعد ذلك ضم الرومان مجال نفوذ الموريين وأحدثوا فيه ولايتين رومانيتين هما موريطانية الطنجية في بلاد الموريين الأصلية وموريطانية القيصرية في القسم الغربي من نوميديا الذي كان خاضعا لسلطة الموريين، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه. ومن جهة أخرى كشفت الأبحاث الأثرية على مخلفات ترتبط بمقاومة الموريين ضد رومنة بلادهم قبل خضوعها للرومان. والأمر يتعلق بتحطيم عدة مواقع في القسم الشمالي من المغرب بين تمودة ولكسوس. والراجح أن التحطيم الأول الذي تعرضت له هذه المواقع يرجع إلى تدخل أكتافيوس العنيف لقمع ثورة الموريين بعد وفاة بكوس الثاني (124).

تعكس النصوص ما تحقق في موريطانية من تقدم عمراني، من خلال إحصاء أكثر من أربعين موقعا موزعة بين الساحل والداخل، لكن المواقع المعروفة حاليا قليلة، وما زالت تتطلب مزيدا من التنقيب والدراسة للكشف عن تطورها التاريخي والإمام بمخزونها من المواد الأثرية (125).

وهنا نكتفي بإثارة بعض الإشكاليات التي ترتبط بالمواد الأثرية التي لا زال وسطها الأثري غير مضبوط في جل ما سبق من التنقيبات. وأهم مثال هو الأمفورات المورية من النوع Dr 18 التي ظهرت في العالم البوني منذ القرن الثاني قبل الميلاد. أما الدراسات ذات الطابع الستراتغرافي المتعلقة بالمغرب فتوحي برواج هذه الأمفورات بموريطانية في القرن الأخير قبل الميلاد (126). وتضاف إلى ذلك مسألة ضبط الوسط الأثري للسلع الرومانية في المغرب. فجل المنقبين والدارسين دأبوا على اعتبار الخزف الكمباني قد توزع في البلاد منذ القرن الثالث قبل الميلاد، أما في الواقع فجل المواد الرومانية من خزف وأمفورات ونقود وصلت إلى موريطانية في القرن الأخير قبل الميلاد (127). لقد دلت على ذلك دراسات موريل حول الخزف الكمباني (128). والدراسات المتعلقة بالنقود الرومانية في المغرب (129). واتضح الأمر بالدراسات الستراتغرافية في تموسيدة وزليل وسلا (130). واتضح نفس

الشيء في استبارات حديثة بوليلي، حيث تؤكد أن الانفتاح على الرومان يرجع للقرن الأخير قبل الميلاد(131).

وفي هذا الصدد نشير إلى أن المصادر أغفلت الحديث عن الأنشطة الاقتصادية. لكن الأبحاث الأثرية كشفت عن مخلفات تهم بعض المرافق الاقتصادية، أهمها مصانع إنتاج الكاروم منذ الفترة المورية، لكن التاريخ لبداية هذه الصناعة غير مضبوط حالياً(132). وبارتباط مع هذه الصناعة هناك اليوم أدلة قاطعة حول انتماء الأمفورات Dr 7-11 لموريطانية(133)، وهي التي عوضت النوع Dr 18 في تسويق الكاروم الموري(134). كما لا نجد في النصوص إشارة إلى إنتاج الحبوب في موريطانية، غير أن العملة المورية تشهد بذلك، من خلال سنابل القمح المائلة على شتى أصناف العملة(135). أما عنقيد العنب المرسومة على العملة وحدها أو مع السنابل(136)، فهي تشهد على وفرة الدوالي في موريطانية والتي وصفها سترابون بقوله: "يوجد في مروسية صنف ضخم من الدوالي يعجز شخصان معا عن ضم جدوعها، وهي تنتج عنقيد عنب يقدر طولها بدراع"(137). وقد ترسخت ذكرى هذه الثروة الفلاحية في جغرافية شمال موريطانية، من خلال رأس كوطيس Kotes، أو أمبلوسيا Ampelousia، ومعناه في لغة الموريين رأس الكروم، وهو نفس المعنى الذي تؤديه كلمة أمبلوسيا في الإغريقية، كما أكد ذلك بومبيوس ميلا(138).

في الختام نشير إلى أن مجال البحث الأثري في المغرب ما زال واعدًا بنتائج هامة في مواصلة التنقيب بالمواقع المعروفة، لضبط الوسط الأثري للمراحل التاريخية التي حاولنا تقديم معالمها، وذلك في ضوء تطور الحياة الحضارية. كما أن مواصلة التحريات الأثرية هي مشجعة وتكتسي أهميتها الخاصة، قصد ضبط خريطة أثرية شاملة للبلاد. ومن مجالات البحث الأثري التي مازال الاهتمام بها محتشما في المغرب، التنقيب في أعماق البحار واكتشاف المقابر القديمة التي لا زال جلها مجهولا.

العوامش:

(1) — هناك محاولة لمعالجة بعض الجوانب من هذا الموضوع في المقالات التالية:

بمحدوب 1995 - ص. 150 - 152 (1) ، 1998 ، ص. 29 - 31 ثم مقالة تحت الطبع.

- (2) - Pomponius Méla 1,25,26 3,10, 106.
- (3) - Strabon 17,3,8 , Plutarque – Sertorius 9,6.
- (4) - Carcopino, 1948, p. 68.
- (5) - Jwenal, Satires 2, 89 Pausanias 1,10,9,10.
- (6) - Tarradell, 1959 , p. 74.
- (7) - Diodore de Sicile 3,54, 1, 4-5.
- (8) - Pline L'Ancien 5, 17.
- (9) - Periple d'Hannon
- (10) - Periple de Scyla 112.
- (11) - Polaiphatos, apud Desanges 1978 , p. 64.
- (12) - Pline l'Ancien, 6,199 ; 10,22.
- (13) - Strabon, 1,3,2.
- (14) - Ptolémée, 4,6,14
- (15) - Périple de Scylax, 112.
- (16) - Strabon, 17, 2-3 et 8.
- (17) - Pline l'Ancien, 5,3
- (18) - Idem, 19,63.
- (19) - Carcopino, 1948, p. 24 ; Tarradell, 1960, p. 26-7 et 131 ; Jodin, 1978, p. 65 ; Fantar, 1992, p. 121.
- (20) - Pline l'Ancien, 5,9 et 18 ; Ptolémée, 4,1,3.
- (21) - Villard, 1960, p. 14-15 ; Jodin, 1966 (1), p. 77-88, 122-32.
- (22) - Xella, 1992, p. 142 ; Amadasi Guzzo, 1992, p. 170.
- (23) - Cintas, 1954, p. 62; Tarradell, 1960, p. 147-53.
- (24) - Lopez, 1990, p. 37-9 ; 1996, p. 268 ; Niemeyer, 1992, p. 49-50 ; Habibi, 1992, p. 238 ; Aranegui, sous presse.
- (25) - Tarradell, 1960, p. 89-94.
- (26) - Idem, Ibid, p. 81-5.
- (27) - Majdoub, sous presse 3.284. ص. 1998 (2) ، بمحدوب
- (28) - Ponsich, 1964, p. 243-4.
- (29) - Majdoub, sous presse 3.
- (30) - Tarradell, 1960, p. 149, 155 ; Villard, 1960, p. 14-5 ; Ponsich, 1964, p. 239 ; 1966, p. 465-8 ; 1968, p. 8-9 ; 1970, p. 185-6 ; 1981, p. 73 ; Rouillard, 1992, p. 207-8.
- (31) - Jodin, 1966 (1), p. 43 et 130.
- (32) - Idem, Ibid, p. 191 ; Girard, 1984, p. 59.
- (33) - Bonnet, 1992, p. 126 ; Xella, 1992, p.40. 139-40.
- (34) - Carcopino, 1948, p. 24 ; Tarradell, 1960, p. 27 ; Fantar, 1992, p. 116 ; Bonnet, 1992, p. 124, 129.

- (35) - Bonnet, 1992, p. 125 ; Alexandropoulos, 1992 (1), p. 253.
- (36) - Ponsich, 1982 (1), p. 802.
- (37) - Bonnet, 1992, p.129.
- (38) - Ponsich, 1981, p. 105.
- (39) - Gras, 1992, p. 27 ; Niemeyer, 1992, p. 49-50 ; Bonnet, 1992, p. 126 ; Habibi, 1994, p. 238.
- (40) - Ponsich, 1967 (1), p. 23-4.
- (41) - Jodin, 1966 (1), p. 191.
- (42) - Périple d'Hannon, 2 et 5.
- (43) - نسبة إلى منطقة كاريا في آسيا الصغرى التي شملها الاستيطان الإغريقي.
- (44) - Ephore apud Roget, 1924, p. 21.
- (45) - Hérodote, 4, 196.
- (46) - Pline l'Ancien, 5,4.
- (47) - Jodin, 1957, p. 39 ; 1966 (1), p. 187 ; 1967, p. 13.
- (48) - مجدوب، 1993، ص. 37-38.
- (49) - Strabon, 2,3,4.
- (50) - مجدوب، 1993، ص. 39-40 ؛ (2) 1998، ص. 140-149.
- (51) - Gsell, T 2, p. 255 ; T 5, p. 91.
- (52) - Tite Live, 24,49,5-6.
- (53) - Idem, 29,30,1-4.
- (54) - Polybe, 3,1,33 ; 15,11,1 ; 38,2,7 ; Tite Live, 23,26,11 ; 29,14 ; 30,14 ; 24,15,2 ; 30,33,5 ; 10;13; Appien, Lib., 40 ;111.
- (55) - مجدوب، (1) 1990، ص. 62 ؛ (2) 1990، ص. 88.
- (56) - Luquet, 1956, p. 117-32 ; 1973-5, p. 237-93 ; Rebuffat, 1974, p. 25-49 ; Jodin, 1960, p. 27 ; 80-66. ص. 2000، مجدوب،
- (57) - Pline l'Ancien, 5,8.
- (58) - Jodin, 1966 (1), p. 72 ; Ponsich, 1970, p. 176.
- (59) - Ponsich, 1982 (1), p. 802 ; 1988, p. 46.
- (60) - Jodin, 1987, p. 293.
- (61) - Gsell, 2, p. 166.
- (62) - Carcopino, 1948, p. 94.
- (63) - Roget, 1938, p. 69 ; Cintas, 1954, p. 25 ; Luquet, 1956, p. 124 ; 1973-5, p. 242 ; Desanges, 1980, p. 112.
- (64) - Jodin, 1957, p. 39.
- (65) - Idem, 1966 (1), p. 191.
- (66) - Idem, 1957, p. 39 ; 1966 (1), p. 193 ; 1967, p. 15.
- (67) - مجدوب، (2) 1998، ص. 308-309.
- (68) - Ponsich, 1975, p. 668.
- (69) - Polybe, 3,39,2.
- (70) - Ponsich, 1970, p. 221 ; 1982 (1), p. 792 ; 1982 (2), p. 434.
- (71) - Idem, 1967 (2), p. 385-7 ; 1970, p. 81.
- (72) - Luquet, 1960, p. 138 ; Jodin, 1966 (2), p. 90 ; 1987, p. 229, 291 ; Ponsich, 1982 (2), p. 441.
- (73) - Jodin, 1960, p. 36-8.

- (74) - Ponsich, 1964, p. 240 ; 1967 (2), p. 376-80 ; 1968, p. 9-11 ; 1970, p. 185-7 ; Jodin, 1966 (1), p. 187 ; 1978, p. 76 .
- (75) - Jodin, 1966 (2), p. 58-64.
- (76) - Idem, 1966 (3), p. 501-5.
- (77) - Behel, 1997, p. 24-41.
- (78) - Jodin, 1957, p. 16 ; 1966 (1), p. 187-8 ; 1967, p. 173.
- (79) - Justin, 19,2 ; Paule Orose, 4,9,9.
- (80) - Sénèques, Dialogues, 7,2.
- (81) - Gomez Bellarsd, 1991, p. 112 ; 1992, p. 308-9 ; Gras, 1989, p. 227.
- (82) - Gran-Aymerich, 1991, p. 908-9 ; 1992, p. 63-4 ; Aubet Semmler, 1992, p. 78.
- (83) - مجدوب، 1991، ص. 29 ؛ Rouillard, 1992, p. 211 .
- (84) - Tarradell, 1960, p. 93.
- (85) - Marion, 1960 (1), p. 452 ; Jodin, 1987, p. 24 et 287 ; Alaxandropoulos, 1992 (2), p. 140 ; Boube, 1992, p. 255.
- (86) - Fischer, 1978, p. 74-108 ; Marchetti, 1978, p. 369-71 ; Salama, 1879, p. 125-37 ; Villaronga, 1983, p. 57-66.
- (87) - Majdoub, sous presse 1.
- (88) - مجدوب، (2) 1998، ص. 284 و 286 ؛ Majdoub, sous presse 3 .
- (89) - Akerraz, 2000, p. 1656-7.
- (90) - Majdoub, sous presse 1.
- (91) - Fantar, 1992, p. 116-7 ; Xella, 1992, p. 138 ; Amadasi Guzzo, 1992, p.172.
- (92) - مجدوب، 1992، ص. 53-57 .
- (93) - Fevrier, 1966, p. 82- 132.
- (94) - Camps, 1960, p. 423-6.
- (95) - Euzennat, 1982, p. 284-7.
- (96) - Cintas, 1950, PL. 26, n° 312-3 ; Humfrey 1976, p. 109-10 ; Carrié, 1979, p. 136-8 ; Dietz, 1979, p. 74-9 ; Lancel, 1979 (1), p. 70,76-81 ; 1979 (2), p. 217, 222 ; 1982 (1), p. 19-31 2 ; 1982 (2), p. 127-8, 139 ; Chelbi, 1980, p. 38 ; Morel, 1982, p. 192-4 ; Lund, 1988, p. 105-11.
- (97) - Van Der Werff, 1978, p. 178.
- (98) - Tarradell, 1960, Lam. XIII.
- (99) - Idem, Ibid, p. 116.
- (100) - مجدوب، (2) 1990، ص. 40-64 ؛ 1995، ص. 154 .
- (101) - نفسه، (2) 1990، ص. 18-21 ؛ 1999، ص. 7-9 و 15-17 .
- (102) - نفسه، (2) 1990، ص. 52-59 .
- (103) - Fevrier, 1953, p. 649-52.
- (104) - مجدوب، (2) 1990، ص. 64-70 ؛ 1992، ص. 51-59 .
- (105) - Marion, 1960 (1) , p. 452 ; Jodin, 1968, p. 218.
- (106) - مجدوب (2) 1990، ص. 70-73 .
- (107) - Mazard, 1955, n° 116-20.
- (108) - Fevrier, 1961, p. 9-15.
- (109) - Marion, 1960 (2), p. 488-90 ; Makdoun, 2000, p. 1712.
- (110) - Mazard, 1955, n° 103-6.
- (111) - مجدوب، (2) 1990، ص. 165-166 و 175 .

- (112) - Ptolémée, 4,1,5.
 (113) - Euzennat, 1982, p. 214-28.
 (114) - Majdoub, 1994, p. 287.
 (115) - Mazard, 1955, n° 113-7.
 (116) - مجلوب، 1992، ص. 55-132857 ; 1998, p. 294 .Majdoub,
 (117) - Mazard, 1955, n° 643-8.
 (118) - Marion, 1972, p. 72.
 (119) - Alexandropoulos, 1992 (1), p. 252-3.
 (120) - Rebuffat, 2000, p. 897-8.
 (121) - مجلوب (1) 1990، ص. 61-67 ؛ (2) 1990، ص. 85-91 ؛ 1993، ص. 35-36 . ; 1996, p. 288-94
 .Majdoub, 1992, p. 235-6
 (122) - نفسه، (1) 1990، ص. 75-77 ؛ (2) 1990، ص. 112-115 ؛ 1992, p. 236-7 .
 (123) - Majdoub, 1998, p. 1321-8.
 (124) - Idem, Ibid, p. 1729-1 ; sous presse 3.
 (125) - مجلوب، 1995، ص. 155-156 ؛ (2) 1998، ص. 246-280.
 (126) - نفسه (2) 1998، ص. 103-108.
 (127) - Majdoub, 1998, p. 297.
 (128) - Morel, 1965, p. 108 ; 1968, p. 69-70 ; 1992, p. 224-5.
 (129) - Marion, 1960 (1), p. 450-5 ; 1967, p. 102 ; Boube, 1992, p. 225.
 (130) - Morel, 1965, p. 108-9 ; Akerraz, 1982, p. 193-7, 201-8 ; Boube, ; 1985-6, p. 194-95 ; 1987-8, p. 184-6 et 162.
 (131) - Majdoub, 1994, p. 286 ; 1998, p. 297 ; sous presse 2.
 (132) - مجلوب، 1991، ص. 27-30 ؛ 1998, p. 300-1 .Majdoub,
 (133) - Liou, 1987, p. 68-9 ; 1993, p. 140-3.
 (134) - مجلوب، (2) 1998، ص. 114-118.
 (135) - Mazard, 1955, n° 107-17 ; 579-651.
 (136) - Idem, Ibid, n° 99-100; 107-17 ; 582-8; 630-651.
 (137) - Strabon, 17,3,2.
 (138) - Strabon, 17,3,4 ; Ptolémée, 4,1,2-3. Pomponius Mela, 1,5,25 ; Pline l'A ncien, 5,18.

أدوات البحث في تاريخ المغرب القديم واقع وأفاق (العمل البيبليوغرافي نموذجاً)

حميد عرايشي *

شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين مقاربات متنوعة ومحاولات عديدة لتقييم "صورة المغرب والمغاربة" في الإنتاج الكولونيالي، سواء تعلق الأمر بالتاريخ أو الأدب أو السينما، ساعية بذلك إلى إبراز عيوبها والخلفيات التي تتحكم في إنتاجها ومنتجها.

وبخصوص حفل التاريخ، فقد كان للصرخة التي أطلقها الأستاذ عبد الله العروي (1)، منذ ثلاثة عقود مضت، صدى داخل وخارج الوطن، تمثلت، بالنسبة للمغرب في إرجاع مادة تاريخ شمال إفريقيا القديم ضمن مقررات التعليم بجامعاتنا، وإنشاء معهد للأثار، كان من نتائجهما ارتفاع نسبة عدد الطلبة والباحثين المغاربة ومساهماتهم في هذا المجال، وخاصة في العقود الأخيرة.

وقد تلت هذه الصرخة، صيحات أخرى (2) تمثلت في بلورة السؤال التالي:

* أستاذ باحث كلية الآداب وجدة

كيف يُمكن إعادة كتابة تاريخ المغرب وتدرسه في جامعاتنا بعيداً عن التصور الكولونيالي والتعصب الوطني.

مما لا جدال فيه أن المتبع للكتابات التي اتخذت من تاريخ شمال إفريقيا القديم عامة، أو المغرب خاصة، موضوعاً لها، يلاحظ أن نسبة المساهمات المغربية والمغربية عامة في إرتفاع متزايد ومستمر. ومن حقنا أن نتساءل اليوم عما إذا كانت الصورة التي نقدمها عن أنفسنا هي أقرب إلى الموضوعية من تلك التي قدمها ولا زال يُقدمها عنا غيرنا؟ سؤال يجرنا بالضرورة إلى طرح أسئلة أخرى: هل يمكن الحديث فيما يخص التاريخ القديم عن بداية تراكم كمي وكيفي في مسار البحث التاريخي المغربي بقدر كاف لإصدار حكم على واقعه وآفاقه؟ هل مجمل الإصدارات لها نفس القيمة العلمية؟.

إن الذي ينظر إلى تلك الكتابات بعين فاحصة، إذا ما تركنا جانباً أعمال الترجمة والتقارير الأثرية، يمكنه أن يميز عموماً بين أربعة أصناف من الدراسات المغربية أو المغربية الصادرة منذ ثلاثة عقود:

— **الصنف الأول**، إهتم بنقد وتقديم حصيلة للكتابات الكولونيالية وحاول الرد عليها أحياناً، والتبنيه إلى أهميتها، رغم النوايا التي تحكمت في إنتاجها، والإصرار على ضرورة قراءتها ونقدها نقداً علمياً. إلا أن حصره لمجموع الإنتاج في ما اصطلح على تسميته بالإنتاج الكولونيالي دون غيره، جعله لا يعكس دائماً الوجه الحقيقي لإصدارات المرحلة التي تتميز بالتعدد والتنوع والاختلاف.

— **الصنف الثاني**، والذي يغلب عليه طابع السرد، اعتنى ببسط الآراء والأطروحات أو عكسها أحياناً، أكثر مما اهتم بمجادلة أصحابها.

— **الصنف الثالث**، اكتفى بالإجتراء والنقل والتكرار مع ما يحمله هذا النهج من سلبيات.

— **الصنف الرابع:** وهو جد قليل إن لم نقل نادراً، ويتميز عن غيره في طريقة طرحه للإشكاليات، وتوظيفه للمصادر والتشكيك في صحتها وما ينتج عن ذلك من تأويلات.

ومهما يكن من مستوى هذه الإصدارات والمساهمات التي تشكل الأغلبية، فهذا لا يعني تجريدها من أي اعتبار، بل على العكس من ذلك، إذ أن قراءتها تكشف لنا عن بعض أوجه المشاكل التي كانت وما تزال تحول دون انطلاق البحث التاريخي ببلاننا، خاصة عصوره القديمة، سواء تعلق الأمر بالتوازن المعرفي، أو بالمناهج المتبعة في التحليل واستغلال المصادر والمراجع، أو على مستوى تصوير الأحداث ومقاربتها بشكل عام.

ولعل من ضمن تلك الأسباب التي ما زالت تعوق هذه الانطلاقة، غياب الأدوات الضرورية للبحث. من هنا كان وما زال اهتمامنا بهذا الموضوع، والذي اخترنا، في هذه المداخلة، العمل البيبليوغرافي نموذجاً له، لاعتباره الخطوة الأولى في حقل البحث. وقبل تقديم فكرة حول الفهرس البيبليوغرافي الذي هو في طور الإنجاز، نرى من الضروري تسليط بعض الأضواء حول أهم مراحل البحث في تاريخ المغرب القديم.

تعود الاهتمامات الأولى بتاريخ بلدان شمال إفريقيا القديم إلى القرن الثامن عشر، غير أن بداية العقد الرابع من القرن التاسع عشر تشكل منعطفاً في هذا الباب؛ ذلك أنه إلى غاية هذه الفترة ظل التاريخ القديم، على المستوى المعلوماتي، مرتبطاً أساساً بالنصوص الأدبية من جهة، ومن جهة أخرى عرف هذا الاهتمام — الذي اقترن بالواقع السياسي الجديد للمنطقة — تزايداً كبيراً. وقد أدى هذا الوضع إلى ظهور أطروحات ظلت تتناقلها بعض الأقلام، بلا ملل، خلال القرن التاسع عشر وطيلة القرن العشرين. لقد ارتبطت الطريقة التي تمت بها قراءة ودراسة وتصوير أو معالجة تاريخ شمال إفريقيا القديم عامة، والمغرب خاصة، منذ البدايات وما تزال بمجموعة من الفرضيات حول التطور التاريخي الحضاري بالمنطقة.

الفرضية الأولى هي عقم المجال وقصور (أو عجز) السكان الأهالي على تحقيق وحدة سياسية والمساهمة في الحضارة الإنسانية. وقد ظهرت هذه الأطروحة، التي نجد لها جنوراً في الفكر الإغريقي – اللاتيني، خلال القرن الثامن عشر وظلت قائمة طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين.

الفرضية الثانية، وهي مرتبطة بالأولى وناجئة عنها، وتتخلص في اعتبار كل من الفينيقيين والقرطاجنيين والعبريين أو بعض ملوك وأمرء الأمازيغ والرومان خاصة، المحرك الأساسي والعناصر التي عملت على "إخراج الأهالي من الظلمات إلى النور".

الفرضية الثالثة، وهي نتيجة منطقية للفرضيتين السابقتين، هو اعتبار الأمازيغ عناصر "مُشاغية" لا تتوانى في انتهاز الفرص "للصيد في الماء العكر" أو "التملص من أداء الضرائب"، أو "التقلب في المواقف" لمساندة هذا الطرف أو ذاك أو التخلي عنه ومحاربتة. وقد أتت هذه الفرضية أيضاً إلى تكوين أو طرح فرضية أخرى وهي أن "قتل" الاحتلال الروماني بموريطانيا الطنجية خاصة، قد يجد مصدره وأسبابه في طبيعة المجتمع الأمازيغي، مما أدى بالمؤرخين والباحثين وكل المهتمين إلى البحث عن أسباب هذا الوضع في طبيعة المجال وطبائع السكان، للتوصل إلى وجود قوة مضادة "للتمدن" ومعادية "للحضارة".

وقد شكل موقف الأهالي من التدخلات الأجنبية عامة، والاحتلال الروماني خاصة، موضوعاً أساسياً في الإسطغرافيا المعاصرة، وازدادت حدته مع بداية السبعينات من القرن الماضي، كما تبرهن على ذلك عناوين العديد من المقالات والأطروحات المنشورة خلال هذه الفترة. لكن هذا التوجه، رغم ما أعرب عنه أصحابه من نوايا، لم يحل نون استمرار التصورات السائدة سابقاً، كما أنه لم يرق إلى المستوى المطلوب، بحيث لم يتجاوز، وفي أحسن الحالات، قلب أو عكس الأدوار المنسوبة لبعض الأطراف خلال المراحل السابقة حيناً، والحفاظ على

البعض الآخر أحياناً أخرى. وقد شهدت السنوات الأخيرة تنديداً نسبياً بهذا النوع من المقاربات والتصورات الجاهزة والمجانية.

الواقع أن الأبحاث حول تاريخ شمال إفريقيا القديم بشكل عام، والمغرب بوجه خاص، عرفت تقدماً ملموساً - بفضل الأبحاث الأثرية - وخاصة في العقود الأخيرة، إلا أن هنالك جوانب كثيرة ما تزال غامضة، ومجموعة من الأسئلة بدون أجوبة، بالإضافة إلى أن بعض المواضيع قد أثارت، أكثر من غيرها، اهتمام وفضول الباحثين لدرجة أننا أصبحنا نلاحظ نوعاً من التكرار والاجترار في الفرضيات والنشرات.

وحول أهم المراحل والأشواط التي قطعها البحث في تاريخ المغرب القديم، فإن النقاطات البيبليوغرافية مع أهم الأحداث السياسية تمكننا من التمييز ما بين ثلاث مراحل كبرى:

• المرحلة الأولى، من 1830 إلى 1911، والتي يمكن أن نعتبرها مرحلة "جمع وتدوين المعلومات" على مستوى البحث، ومرحلة "التهيؤ للاستعمار والاستغلال" من حيث الأهداف، وهي تتميز من حيث الكم بقلة الدراسات التي تهم المغرب بمفرده، والمكانة التي تكاد أن تكون منعدمة حوله في الدراسات العامة، واعتماد المؤلفين على أسئلة آنية باستتطاق الماضي لتهيئ الحاضر والمستقبل، وذلك قصد إعادة بناء "إفريقيا الرومانية" أو "اللاتينية" بالنسبة للبعض، أو "إفريقيا المسيحية" بالنسبة للبعض الآخر.

• المرحلة الثانية، من 1912 إلى 1955/56، والتي يمكن أن نعتبرها "مرحلة الإنتاج" من حيث الكم والنوع، ومرحلة استكمال "إعادة بناء إفريقيا الرومانية أو المسيحية" وتبرير الهيمنة الاستعمارية من حيث الأهداف، وهي تُشكل مرحلة الحماية بالمغرب، وتتميز بالاهتمام النسبي الذي حظي به المغرب القديم، هذا الاهتمام الذي يتجلى من خلال الدراسات المخصصة له بمفرده، والمكانة المتواضعة التي أصبح يحظى بها في الدراسات التي تهم مجموع شمال إفريقيا،

واعتماد الباحثين، إلى جانب النصوص الأدبية، مع نقدها أحياناً، المصادر الأثرية والنقائش والدراسات الأنتروبولوجية والإثنولوجية والأنوماستيكية واللسانية. إلا أن هذه المرحلة التي تزامنت مع الاحتلال الفرنسي - الإسباني، والاستكشافات والاستطلاعات العسكرية والمقاومة المغربية بشتى أشكالها، جعلت الدراسات والبحث التاريخي يخضعان لمنطق الإيديولوجيا الاستعمارية، والتي تظهر بوضوح في تصوير المجال والسكان الأهالي تصويراً يطغى عليه الطابع السلبي، مقابل العمل على "أمثلة" العناصر الدخيلة، روما على وجه الخصوص.

• المرحلة الثالثة، من 1956 إلى اليوم، والتي يُمكن أن نعتبرها مرحلة "انتعاش البحث على مستوى الإنتاج"، ومرحلة "مراجعة" من حيث الأهداف، وهي تُشكل عهد الاستقلال السياسي بالمغرب، هذا الحدث الذي ما فتئ أن عم مجموع بلدان شمال إفريقيا، صاحبه حدث آخر على المستوى العلمي والمعرفي، تمثل في تطور البحث الأثري وتنوع مجالاته، وتطور مناهج التحليل وتنوع مراكز الإسهامات، وظهور "مدرسة" تسعى إلى "تحرير التاريخ المغربي"، والدعوة إلى "إعادة كتابة التاريخ الوطني"، وفق تصور "جديد"، وتجديد بعض الأطروحات، وإعادة النظر في البعض الآخر أو تدعيمه، وطرح قضايا جديدة ظلت مُغيبة أو مُهمشة أو تحتل مكانة جد ثانوية في الدراسات المنشورة خلال المراحل السابقة. إلا أنه على الرغم من الاختلاف الذي نُسجله خلال هذه المرحلة بالمقارنة مع سابقاتها، فتمة مجموعة من العناصر ظلت تُشكل نقط التشابه والاستمرارية لا من حيث المناهج المتبعة في التحليل، ولا من حيث أشكال المقاربات والمفاهيم والموضوعات والتحقيقات المتداولة، ولا من حيث التصوير والتمثيلات - تحول بذلك دون الحديث عن تغيير جذري وقطعية تامة وشاملة للأساس.

أما فيما يخص أدوات البحث، وهو موضوع هذه المداخلة، فعلى الرغم مما عرفته من اهتمام وشهده من انتعاش ملموس، فإنها تظل غير كافية، سواء تعلق الأمر بالمصادر الأدبية أو نتائج العلوم التكميلية أو الأعمال البليوغرافية، الشيء

الذي يساهم في عرقلة البحث. ومما يزيد الأمر تعقيداً هو كون تاريخ المغرب القديم لم يُكتب حتى يومنا هذا كعصر قائم بذاته، فضلاً عما تشكو منه مكتباتنا وخزاناتنا من فقر وسوء في التنظيم والتسيير.

في هذا الإطار، تأتي هذه المحاولة المتواضعة. إن الأعمال البيبليوغرافية المتداولة اليوم، إذا ما تركنا جانباً أعمالاً عامة، أو نشرات لا تغطي إلا فترات محدودة، يُمكن حصرها في ستة (أنظر الرسم الشكل رقم 1)، وقاسمها المشترك هي أنها نورية، ولا تتضمن المنشورات العربية، ولا تتعدى في أغلب الأحيان أكثر من كشاف واحد، وأغلبها تعود بداياته إلى الستينات، فضلاً عما يطرحه استعمالها من مشاكل تقنية مرتبطة بطريقة تقديم الوصفة، وغياب معطيات دقيقة فيما يخص الوصف المادي للمنشورات، وخاصة المقالات بحيث غالباً ما لا تتم الإشارة إلى أرقام اللوحات والرسومات والأشكال التي توجد خارج النص.

تفادياً لكل هذا، ومحاولة منا للمساهمة في تيسير البحث في تاريخ المغرب القديم، كانت فكرة تهيئ عمل بيبليوغرافي يُغطي ما يُقارب ثلاثة قرون، متبعين في ذلك المعايير الدولية في تقنيات التوثيق والفهرسة الآلية.

يتضمن الفهرس أزيد من 1200 وصفة بيبليوغرافية لدراسات منشورة ما بين سنة 1701 وسنة 2001 (مقالات، كتب موجهة للعموم، كتب مدرسية، دراسات عامة، دراسات وأبحاث تركيبية أو نقدية، ومونوغرافيات إقليمية أو محلية... الخ).

وفيما يخص تقنيات الوصف (أنظر الشكل رقم 2)، فالبطاقات تخضع لنموذج عام، بحيث حاولنا إقحام أكبر عدد مُمكن من المعلومات التي تخص البيانات (بيان المؤلف أو المؤلفين، بين العنوان، بيان الطبعة، بيان النشر، بيان الوصف المادي ثم بيان السلسلة) طبقاً للمعايير المتبعة في تقنيات الفهرسة، سواء تعلق الأمر بالمونوغرافيات أو المقالات المنشورة في الدوريات والنشرات المتسلسلة أو الجماعية.

تليها خانة الملخصات، والتي يمكن اعتبارها مكلمة للعنوان أكثر من ملخص لمضمون المنشور المفهرس.

ثم فكرنا أيضاً في خانة أخرى إضافية، تحمل اسم "ملاحظة" وقد خصصناها للإحالة على الدراسات التي تدعم أو تفند أطروحات النشرة المفهرسة. بالنسبة للترتيب والترقيم، فضلنا الترتيب الكرونولوجي بدل أي ترتيب آخر لكون الفهرس مرافق لكشافات تُسهل عملية البحث سواء تعلق الأمر بالبحث عن المؤلفين أو الموضوعات أو الأماكن.

أما عن الترقيم، فكل بطاقة تحمل رقماً وهو رقم الوصفة وترتيبها داخل الفهرس، وهو نفسه الذي استعنا به في الكشافات.

بالنسبة للكشافات (حول تقنية الجرد، أنظر الشكل رقم 3)، حاولنا أن تكون جد دقيقة وقد ارتأينا أن نحصرها في ثلاثة: كشاف المؤلفين بما في ذلك المؤلفين الثانويين (معلقين، مترجمين، محققين...). وكشاف المواضيع أو الموضوعات ثم كشاف الأماكن. بالنسبة لهذا الأخير حرصنا على الإحالة، بالنسبة للأماكن التي تحمل أكثر من إسم واحد، على الأسماء الأخرى حتى يتسنى للباحث أن يعثر على المعلومة بسرعة).

وفي الأخير الملحقات، وتتضمن فهرس الهيئات المسؤولة عن النشر لكل من الدوريات والنشرات الجماعية (ندوات، مناظرات، مؤتمرات وأعمال مهداة أو موائد مستديرة...) والتي ورد فيها على الأقل مقال واحد يهم تاريخ المغرب القديم، مع الحرص على إعطاء وضعية كل دورية على حدة، سواء تعلق الأمر بتاريخ ومراحل الإصدار، أو التغييرات التي قد تلحق العنوان ... إلخ).

الهوامش:

- (1) - A. LAROUI, *L'histoire de Maghreb, un essai de synthèse*, Paris, Petite collection Maspero, 1970, 2 vol.
- (2) - M. BENABOU, *La résistance africaine à la romanisation*, Paris, F. Maspero, 1976, p. 10, 12-13 ; G. AYACHE, *Histoire et décolonisation, l'exemple du Maroc*, *Hespéris-Tamuda*, XVII, 1976- 1977, p. 47-48 & p. 58-59 ; M. ARKOUN, *Pensée idéologique et histoire du Maghreb*, In « Modes de présence de la pensée arabe en occident musulman »/ *Actes du deuxième congrès international d'étude des cultures de la Méditerranée occidentale* » I = *Rapports*.- Alger : SNED, 1976, p. 119-155, Id., *Penser l'histoire du Maghreb*, in *L'Etat du Maghreb*, Paris, La découverte, 1991, p. 48-50 ; E. GOZALBES, *Fuentes para la historia de Marruecos I- fase preromana*, CBET, XVI, 1977, p. 128-130 ; A. MAHJOUBI, *Pour une histoire ancienne décolonisée du l'Afrique du Nord*, in « La construction du Maghreb »/ *Actes du colloques organisé à Tunis 19-24 octobre 1981*.- Université, 1983, p. 57-61.
- محمد البشر الشنيتي، سياسة الرومنة في بلاد المغرب، من سقوط الدولة القرطاجنية إلى سقوط موريطانيا (146 ق. م — 40 م)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص. 9 — 10؛ إبراهيم بوطالب، البحث الكونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية، حصيلة وتقوم، في "البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقوم"، أعمال الندوتين المنعقدتين بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (أكتوبر ودجنبر 1986)، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1989، ص. 107، 129 — 134، 138 — 139 و 141.

تاريخ البحث الأركيولوجي والتاريخي المتعلق بالمغرب القديم

عمار أكراز - عبد العزيز الخياري*

إن الباحث المتأمل في قضايا الأركيولوجيا وتطور البحث الأثري المرتبط بالمغرب القديم ، يمكنه أن يميز بين أربع مراحل أساسية لكل واحدة منها سماتها ومميزاتها الخاصة :

-المرحلة 1: من القرن 18 إلى 1915/1912.

-المرحلة 2 : من 1915 إلى 1948 / 1954.

-المرحلة 3 : من 1948/1954 إلى 1975.

-المرحلة 4 : من 1975 إلى الآن.

المرحلة الأولى : مرحلة الاستطلاعات والاستكشافات

إن المرحلة الأولى في الاهتمام بآثار المغرب القديم تمتد من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى حدود 1915، وهي المرحلة التي يمكن أن نصفها بمرحلة الاستطلاعات والاستكشافات الأولى، حيث عرف المغرب خلالها توافد

* أستاذان باحثان بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث الرباط

مجموعة من الأوروبيين في إطار بعثات دبلوماسية أو في إطار رحلات فردية الغرض منها التجارة أو مجرد تقصي الأخبار والمعلومات حول بلاد المغرب. كل ذلك تم ضمن سياق تاريخي عام اتسم كما هو معروف بالتوسعات الإمبريالية الأوروبية. وقد اهتمت كتابات هذه المرحلة بجوانب متعددة كالجغرافيا الطبيعية والبشرية والعادات والتقاليد واللهجات إلى غير ذلك (1). واتسع الاهتمام ولو بشكل عرضي في البداية ليشمل الآثار القديمة كخرائب مدينة ولبلي التي حظيت بأول وصف في بداية القرن الثامن عشر من طرف جون وندوس (2) John Windus . وفي القرن التاسع عشر سيظهر عدد من المهتمين بآثار المغرب القديم كالألماني بارت H. Barth الذي نشر نتائج ملاحظاته وأعماله حول ليكسوس سنة 1849 (3) ، والإسباني T. De Cuevas الذي وصف خرائب وأطلال نفس الموقع (4) ، وكذا هنري دو لامرتيير H. De La Martinière الذي أنجز أولى الحفريات في عدة مواقع كليكسوس وولبلي وزليل ونشر نتائج أبحاثه في مقالات متفرقة، ثم في كتاب نشر سنة 1912 (5). إلا أن أهم المستكشفين الأوائل يظل هو القنصل الفرنسي شارل تيسو Ch. Tissot الذي أنجز استكشافات منظمة كان هدفها رسم ملامح الجغرافيا التاريخية بالارتكاز على معطيات النصوص الإغريقية واللاتينية وعلى المعطيات الطوبونيمية وبعض العناصر الأركيولوجية كالنقائش اللاتينية، وقد دون نتائج ملاحظاته ضمن دراسة بعنوان "أبحاث حول الجغرافيا المقارنة لموريطانيا الطنجية" التي نشرت سنة 1878 (6).

ما يلاحظ على هذه المرحلة هو أن الأبحاث التي أنجزت خلالها لم تعد أن تكون « مجرد مبادرات فردية خارجة عن كل تنظيم عملي وعلمي كما في البعثات الأركيولوجية » (7). إلا أن هذا لا ينفي القيمة العلمية والمعرفية لهذه الأبحاث الأولى التي ساهمت في التعريف بتاريخ المغرب القديم من خلال آثاره الشاهدة. وفي هذا الإطار، يكتسي كتاب شارل تيسو أهمية كبيرة تتجلى في تعريفه بعدد من المواقع

والمدن المذكورة في النصوص كلكسوس، طنجة، بناصا، سلا، ألخ(8). وقد فتح هذا العمل آفاق البحث الميداني المرتكز على الملاحظات والتحريرات الميدانية المباشرة، وقد شكل مرجعاً أساسياً بالنسبة للأبحاث اللاحقة.

المرحلة الثانية : مرحلة الحفريات الواسعة

تمتد هذه المرحلة من 1912 / 1915 إلى 1954، وقد تميزت بإنجاز حفريات واسعة ومنظمة، وقد انطلقت أولى هذه الحفريات سنة 1915 تحت إشراف لويس شاتلان Louis Chatelain وبتزكية وأمر من المقيم العام ليوطي وبحضور شخصيات سياسية مرموقة آنذاك.

في المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية، همت الحفريات الواسعة عدة مواقع كوليلي وبناصا وتموسيدا، أما في المنطقة الخاضعة للحماية الإسبانية، فقد انطلقت الحفريات في بداية العشرينات من طرف César Louis de Montalban ثم بعد ذلك من طرف Pelayo Quintero Atauri. وقد كشفت الأبحاث عن عدة مواقع كتمودا وليكسوس وزليل وسيدي عبد السلام دلبحر وكيثان.

وبخصوص هذه المرحلة يمكن أن ندلي بعدة ملاحظات:

— لقد انطلقت هذه الحفريات في بداياتها الأولى وخصوصاً في المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية من خلفيات أيديولوجية وسياسية كما يدل على ذلك حضور السلطات الاستعمارية في تدشين انطلاق الأشغال بوليلي(9).

— على مستوى مجالات البحث، اهتمت هذه الحفريات وخصوصاً في المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية، بالكشف عن البنايات والمستويات الرومانية، إذ ركز البحث على إبراز عناصر الحضارة الرومانية وذلك من جهة لأسباب أيديولوجية، ومن جهة أخرى لأسباب موضوعية مرتبطة بالتكوين الكلاسيكي للباحثين الأوائل وبطبيعة المنهج المستعمل في التنقيب القائم على الكشف الأفقي للبنايات وكذلك لقرب هذه الأخيرة من السطح وسهولة الوصول إليها(10).

— يلاحظ كذلك على مستوى تقنيات ومناهج التنقيب، أن هذه الحفريات ركزت أساسا على الكشف الواسع عن البنايات دون إعطاء أي اهتمام للسياق الأركيولوجي والإستراتيجرافيا، فمفهوم الإستغرافيا لم يكن معروفا آنذاك، ونفس المناهج والتقنيات كانت سائدة في شمال إفريقيا وفي دول أخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط وحتى في فرنسا نفسها.

— كان تأريخ البنايات والمكتشفات يرتكز أساسا على التحف والأعمال الفنية كالتماثيل والعناصر المعمارية (تيجان الأعمدة) والفسيفساء والنقائش إلخ مما نتج عنه الكثير من الأخطاء الكرونولوجية.

رغم كل هذه الملاحظات، فإنه لا ينبغي أن نضفي طابع السلبية على هذه المرحلة، فقد ساهمت الأبحاث خلال هذه الفترة في الكشف عن مجموعة من المواقع كوليلي وبناصا وليكسوس وتمودة وفي إبراز أهميتها التاريخية والأثرية. موازاة مع الحفريات الأثرية، سعت سلطات الحماية والفرنسية على الخصوص إلى تنظيم قطاع الآثار وذلك باتخاذ عدة إجراءات كصدور أول ظهير متعلق بحماية العاديات والمباني التاريخية سنة 1914 وأحداث قسم العاديات التابع لمصلحة العاديات والفنون الجميلة والمباني التاريخية سنة 1918 وابتداء من 1930 سيتم خلق مصلحة للعاديات مستقلة بذاتها تشرف على الأبحاث الأثرية ونشر نتائجها في منشورات خاصة (11).

تم كذلك إحداث مؤسسات ثقافية كالمتحف الأثري بالرباط الذي كان يسمى بمتحف لويس شاتلان سنة 1933 والمتحف الأثري بتطوان الذي أسس سنة 1939 وضم الأول اللقى الأثرية الواردة من ويلي — بناصا والثاني اللقى المستخرجة من تمودة وليكسوس.

المرحلة الثالثة : مرحلة الحفريات الاستراتيجرافية والخريطة الأثرية

عرفت المرحلة الثالثة الممتدة من 1948/1954 إلى حدود 1975 وخصوصا في بداياتها تحولا نوعيا يمكن أن نرصده من خلال النقاط الآتية:

— أولاً إدخال المنهج الاستراتيجي في التنقيب الذي يركز أساساً على التمييز بين الطبقات الاستراتيجية وقد استعملت على الخصوص تقنية الاستبارات بشكل واسع انطلاقاً من سنة 1954 في مجموعة من المواقع كوليبي وبناصا وريغة وموكاتور (12). أما في شمال المغرب فقد تم إدخال المنهج الاستراتيجي سنة 1948 من طرف M.. Tarradell الذي قام على الخصوص باستبارات مهمة في تمودة، وسيدي عبد السلام ببحر، ولكسوس، ويعد "استبار الخروبة" الذي أنجز بموقع لكسوس أبرز مثال على ذلك (13).

— موازاة مع هذا التحول على مستوى تقنيات الحفر، ظهر أيضاً الاهتمام بالخزف كعنصر أساسي في تاريخ الطبقات والبنى الأثرية. وسيتجلى هذا الاهتمام في ظهور عدة دراسات مرتبطة بالخزف. كما أنجزت عدة دراسات موضوعاتية مرتبطة بالمعمار، والنقود والنقائش والأدوات البرونزية، والحلي والفسيفساء، إلخ....

— يمكن أن نلاحظ كذلك أن استعمال المنهج الاستراتيجي في التنقيب وكذا الاهتمام بالخزف ترتب عنهما اكتشاف المستويات السابقة على الوجود الروماني ونعني بها المستويات المورية والفينيقية خصوصاً في وليبي، باناصا، موكاتور ليكسوس وتمودة.

لم يقتصر الباحثون خلال هذه المرحلة، على التنقيب، بل اهتموا كذلك بالخريطة الأثرية للمغرب القديم، بحيث أنجزت عدة تحريات في مناطق مختلفة وذلك لتحديد وجرّد المواقع الأثرية، وظهرت كتبويج لهذا التوجه، عدة أطالس أثرية خاصة بكل من تطوان وطنجة وليكسوس ووليبي ووجدة (14).

وللتعريف بنتائج الأبحاث الأثرية، تم خلق النشرة الأثرية المغربية التي كانت تصدر مرة كل سنة ابتداء من 1956.

وعلى العموم يمكن اعتبار هذه المرحلة، مرحلة مهمة تميزت بتطور نوعي تمثل على عدة مستويات (مستوى المنهج ومجالات البحث، إلخ). كما عرفت تراكم

معرفيا مهما، وساهمت فيه عدة عوامل منها تزايد عدد الباحثين بالمغرب وتعدد اختصاصاتهم، وتوفير الوسائل المادية واللوجستية.

المرحلة الرابعة : من 1975 . إلى الآن .

بعد حصول المغرب على الاستقلال، لم يحدث أي تغيير، بحيث ظل الباحثون الأجانب يسيطرون سيطرة تامة على ميدان البحث الأثري بالمغرب خلال ما يناهز عشرين سنة، وذلك لغياب أطر وباحثين مغاربة.

ولن تتغير هذه الوضعية إلا ابتداء من سنة 1975، حيث سعت السلطات المشرفة على حقل التراث إلى إعادة هيكلة البحث الأثري وإعادة النظر في السياسة المتبعة (15)، وذلك عن طريق فتح أوراش أثرية بالتعاون مع دول أخرى (فرنسا) وسن سياسة التكوين داخل هذه الأوراش (كورش الشر الجديد)، وبهذا تم تكوين الأطر الأولى في ميدان البحث الأثري بالمغرب.

لكن البحث الأثري لن يعرف انطلاقته الحقيقية إلا مع إحداث المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث سنة 1985 الذي سيضطلع بمهمة الإشراف على جميع الأبحاث ذات الطابع الأثري بالمغرب وكذلك بمهمة تكوين أطر متخصصة في ميدان الأركيولوجيا.

ويمكن أن نجمل مميزات البحث الأثري خلال هذه الفترة في النقاط التالية:

— العناية بدراسة جميع أنواع اللقى الأثرية التي كشفت عنها الحفريات السابقة مع التركيز أساسا على الخزف والأنفورات لما تكتسيه من أهمية على مستوى التاريخ ودراسة الجوانب الاقتصادية والثقافية.

— مراجعة المعطيات الاستراتيجية وكونولوجية الاستيطان بمجموعة من المواقع المهمة كتمودة وليكسوس وباناصا وويلي على ضوء قراءة نقدية للأعمال السابقة ودراسة صارمة للسجل الأثري.

— توجيه الاهتمام إلى إشكاليات ومجالات بحث أهملتها الأبحاث السابقة أو تطرقت إليها بشكل محدود كالمستويات المورية والفينيقية أو المستويات المتأخرة في بعض المواقع.

— مواصلة القيام بتحريات أثرية واسعة ومنهجية وذلك لإتمام الخريطة الأثرية (التحريات في منطقة المحمدية، تحريات في منطقة القصر الكبير، تحريات على الساحل المتوسطي)، وهذا أدى إلى اكتشاف عدة مواقع جديدة.

الكتابة التاريخية

هذا بصفة عامة ما يمكن قوله حول التحولات والتطورات التي عرفها البحث الأركيولوجي عبر مراحل المختلفة، أما فيما يخص الكتابة التاريخية المرتبطة بالمغرب القديم، وهي مسألة لصيقة بالبحث الأثري. فيمكن أن نلاحظ أن أول محاولة في هذا الإطار تعزى لـ H. de la Martinière الذي نشر بحثا سنة 1912 تحت عنوان نبذة أو مجمل تاريخ المغرب قبل مجيء العرب (16). ورغم ما انطوى عليه هذا العمل من أخطاء، فهو يبقى أول محاولة في كتابة تاريخ المغرب. سنتلي هذا العمل محاولة أخرى من طرف جروم كاركوبينو الذي سينشر كتابا بعنوان "المغرب القديم" (17) سنة 1943 ثم سيعاد طبعه سنة 1947. ورغم أن هذا العمل احتوى على فرضيات وأطروحات لم تستند في كثير من الأحيان إلى معطيات ملموسة، فإن أهميته تكمن في كونه أثار الانتباه إلى مجموعة من الإشكاليات التي لم تكن آنذاك حاضرة بقوة لدى الباحثين الفرنسيين كالوجود الفينيقي والقرطاجي أو الإشكال المرتبط بنهاية الوجود الروماني بالمغرب. بعد ذلك، وفي سنة 1949 سينشر Henri Terrasse كتابه حول تاريخ المغرب في مجلدين، إلا أن المؤلف لن يخصص إلا صفحات قليلة (32 صفحة) للمغرب القديم لا تعكس أي تطور ملموس في معرفتنا بتاريخ المغرب القديم (18).

أما فيما يخص الباحثين الإسبان، فإن أول وآخر محاولة قد تمت على يد ميكيل طارايدل الذي نشر كتابه المعروف "Marruecos punico" سنة 1960، وهذا

الكتاب يكتسي في رأينا أهمية كبرى وشكل خطوة أساسية في معرفتنا بتاريخ المغرب القديم نظرا لاعتماده على قراءة متأنية وصارمة للقي والمعطيات الأثرية المتوفرة آنذاك، وكذا لتميزه بكثير من الموضوعية العلمية.

أما في مرحلة الاستقلال، فإن المحاولة الوحيدة هي تلك التي أنجزها عبد الله العروي في كتابه (19) الذي صدر سنة 1976 حيث حاول المؤلف نقد الأطروحات الاستعمارية والكشف عن الخلفيات الإيديولوجية التي وجهت البحث التاريخي والأثري خلال فترة الاستعمار وبداية الاستقلال. وكان عبد الله العروي أول من دعا إلى خلق مدرسة وطنية لتكوين باحثين في ميدان الآثار.

بعد هذا العمل النقدي الجريء، لم تظهر أية محاولة جادة أخرى. ففي الوقت الذي تتراكم فيه الدراسات والمعطيات الأثرية حول تاريخ المغرب القديم، نسجل غيابا تاما للكتابة التاريخية.

الهوامش:

- (1) - Africa Romana, 13, 2000, vol. 1, p. 939-957.
- (2) - J. Windus, *A Journey to Mesquinez, Residence of the Present Emperor of Fez and Morocco, on the Occasion of Commodore Stewart's Embassy thither for the Redemption of the British Captives in the Year 1721*, London, 1725.
- انظر كذلك : Lenoir, *Les pionniers*, p. 940-943 .
- (3) - H. Barth, *Wanderungen durch die Küstenländer des Mittelmeeres, ausgeführt in den Jahren 1845-1846, I. Das Nordafrikanische Gestadeland*, Berlin, 1849.
- (4) - T. De cuevas, *Estudio general sobre geografía, usos agrícolas, historia política y mercantil, administración, estadística, comercio y navegación del Bajalato de Larache y descripción crítica de las ruinas de Lixus romano*, dans *Boletín de la Sociedad geográfica de Madrid*, 15, 1884, p. 90-97, 167-168, 338-369, 417-433, et *ibidem*, 16, 1884, p. 31-58, 232-263, 365-372, 425-438.
- (5) - فيما يخص مقالات ه. دو لامرتيير، أنظر :
- V. Brouquier-Reddé et E. Lenoir, *Bibliographie du Maroc antique*, dans *I Africa Romana*, 13, vol. 2, 2000, p. 1032-1033.
- (6) - Ch. Tissot, *Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane*, dans *Mémoires de l'Académie des Inscriptions et belles-lettres*, 1^{re} série, IX, Paris, 1878.
- (7) - عبد العزيز توري، الآثار، معلمة المغرب، 1، 1989، ص 62.

- (8) - R. Rebuffat, *Histoire de l'identification des sites urbains antiques du Maroc*, dans *l'Africa Romana*, 13, vol. 1, 2000, p. 865-914.
- (9) - يقول لويس شاتلان معلقا على هذه الحفريات
(Note sur les fouilles de Volubilis, dans *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et belles-lettres*, 1916, p. 359)
Les fouilles à Volubilis, en mai 1915, par ordre de M. le Commissaire Résident général, restent l'un des exemples les plus caractéristiques de la profonde habileté politique du général Lyautey il importait au plus haut point de montrer aux indigènes que la France est un pays fort et qu'elle est capable, en dépit du devoir sacré de la défense de son sol, de poursuivre tout un programme de réalisations pacifiques «
- (10) - بخصوص اهتمام الباحثين الأوائل بالمستويات الرومانية دون غيرها، أنظر:
M. Tarradell, *Historia de Marruecos. Marruecos punico*, Tétouan, 1960, p. 16-17.
- (11) - كانت نتائج الأبحاث تنشر في سلسلة
Publications du Service des Antiquités du Maroc
- (12) - M. Euzennat, Le temple C de Volubilis et les origines de la cité, dans *BAM*, 2, 1957, p. 41-64. S. Girard, Banasa préromaine, un état de la question, dans *Antiquités africaines*, 20, 1984, p. 2-93. Id., L'établissement préislamique de Rirha (plaine du Rharb, Maroc), dans *BCTH*, 19B, 1985, p. 87-107. A. Jodin, Note préliminaire sur l'établissement préromain de Mogador (campagnes 1956-1957), dans *BAM*, 2, 1957, p. 9-40.
- (13) - أنظر Tarradell, *Marruecos punico*.
- (14) - M. Tarradell, Contribution à l'atlas archéologique du Maroc. Région de Tétouan, dans *BAM*, 6, 1966, p. 425-443. M. Ponsich, Contribution à l'atlas archéologique du Maroc. Région de Tanger, dans *BAM*, 5, 1964, p. 253-290. Id., Contribution à l'atlas archéologique du Maroc. Région de Lixus, dans *BAM*, 6, 1966, p. 377-423. A. Luquet, Contribution à l'atlas archéologique du Maroc. Région de Rharb, dans *BAM*, 6, 1966, p. 365-375. Id., Contribution à l'atlas archéologique du Maroc. Région de Volubilis, dans *BAM*, 5, 1964, p. 291-300. J. Marion, Ruines anciennes de la région d'Oujda, dans *BAM*, 2, 1957, p. 117-173.
- (15) - توري، الآثار، ص 63-64.
- (16) - H. De La Martinière, Esquisse de l'histoire du Maroc avant l'arrivée des Arabes, dans *B. C. T. H.*, 1912, p. 142-184
- (17) - J. Carcopino, *Le Maroc antique*, Paris, 1943.
- (18) - H. Terrasse, *Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du Protectorat français*, Casablanca, 1949-1950.
- (19) - A. Laroui, *Histoire du Maroc. Un essai de synthèse*, I, Paris, 1976.

إشكالية صيانة وترميم اللقى الأثرية: الفسيفساء نموذجاً

زهراء قنينبة*

كل مادة أثرية تستدعي أدوات وأساليب خاصة بها، وبما أن اللقى الأثرية ليست جميعها من نفس الحجم والطبيعة فالأكبر حجماً هو الذي يثير مشاكل أكثر بالنسبة للباحثين ومن ذلك الفسيفساء (1).

نعترف بأن عدد الفسيفساء المغربية قليل بالمقارنة مع دول متوسطة أخرى، ولكن هذا الأمر يجب أن لا يمنعنا من دراسة إرث هو في تدهور مستمر لا سيما وأنه من أكثر المصادر التراثية هشاشة نظراً لطبيعته المتمثلة في المكعبات التي تقطع بسهولة. وبما أن هذه المادة معرضة للتلف الذي قد يكون كلياً أو جزئياً، وهذا الأخير يستدعي اعتماد آليات الترميم مما يجعل مهمة الدارس صعبة لأن عدم الانتباه لهذه العملية قد يؤدي إلى مغالطات في الاستنتاجات والأحكام، فإننا سنقف عندها مستعرضين أنواعاً من المشاكل التي تواجه الباحث في هذا المضمار.

* أستاذة باحثة بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث - الرباط.

إذا كان توزيع الفسيفساء في المغرب غير متكافئ لكون بعض المواقع الأثرية أوفر حظاً من أخرى نخص بالذكر كلاً من ويلي وليكسوس وبناصا التي وجدت بها أكبر نسبة من الفسيفساء المعروفة بالمغرب حتى الآن، فمعظم المواقع تشترك في كون فسيفسائها آيلة للاندثار رغم أن مصيرها يختلف من موقع لآخر. فسيفساء ويلي (2) لا زالت بأماكنها الأصلية باستثناء فسيفساء "موكب فينوس" (Cortège de Vénus) المعروضة بمتحف القصبية بطنجة، أما فسيفساء ليكسوس فقد نقلت إلى المتحف الأثري بتطوان ما عدا فسيفساء "أوقيانوس" (Océan) التي لا زالت بالموقع. في حين تمت إزالة فسيفساء بناصا من موضعها الأصلي وحفظت بمخزن ويلي ويستثنى من ذلك جزء من فسيفساء "تريتون" (Triton) وفسيفساء "فينوس ذات المحارة" (Vénus à la Coquille) اللتان حظيتا بالترميم وهما معروضتان حالياً بمدخل موقع ويلي.

وإذا ما نظر الزائر لفسيفساء ويلي التي بقيت ظاهرة للعيان في مكانها الأصلي - وهذا شيء إيجابي لأنه يمكن الزائر من تكوين فكرة عن زخرفة المنزل الروماني - فقد يعتقد بأنها لا زالت في حالة صيانة جيدة لكن الأمر مختلف تماماً حيث أن القيام بزيارات متعددة أو النظر بإمعان يمكن العين الأقل تجربة في المجال من معاينة بعض التدهورات التي تعرضت لها.

وقبل الحديث عن حالتها الراهنة ينبغي الوقوف على عمليات الصيانة والترميم التي تعرضت لها منذ الكشف عنها وهذا ضروري للتعرف على مدى احترام عملية الترميم لشكل الفسيفساء الأصلي (3).

للأسف، لا تتوفر على صور للفسيفساء إبان الكشف عنها باستثناء صورة فسيفساء موكب فينوس التي نشرت سنة 1960 ولكنها غير واضحة (4). تتضاف لذلك صعوبات أخرى تتمثل في قلة المعلومات حول عمليات الترميم والمرممين وفي حالة توفرها فإنها تكون مقتضبة أو متباينة. ونعرض لذلك كما يلي:

المثال الأول: نجد مكتوباً بفسيفساء الحوريات (Les Néréides) بمنزل الفتى الجميل (La maison à l'Ephèbe) تاريخ 1930 بحاشية الجدار الذي يفصل مدخل الغرفة الثانوي الشمالي عن المدخل الرئيسي. وهذه إشارة واضحة لترميم هاته الفسيفساء خلال السنة المذكورة.

المثال الثاني: تتوفر محافظة وليلي على وثيقة غير مؤرخة وغير ممضاة يترجم عنوانها كما يلي: « كشف خاص بالترميم أو الصيانة الجزئية أو التامة لمختلف فسيفساء وليلي ». وقد اهتمت هذه الوثيقة بالفسيفساء المشخصة على وجه الخصوص.

المثال الثالث: يشير الباحث ريمون توفنو (5) (R. THOUVENOT) في إحدى مقالاته إلى أن مؤسسة كودان (Gaudin) رمت العديد من فسيفساء وليلي، وبما أن المؤسسة المذكورة قد اختفت فإن الحظوظ ضئيلة للعثور على الوثائق المتعلقة بنوعية التدخلات التي قامت بها.

المثال الرابع والأخير: نعلم بأن الباحث ميشيل بونسيك (M. Ponsich) قد أشرف على عمليات قلع وإعادة وضع عدد من الفسيفساء (6).

وهكذا يتبين بأن خضوع فسيفساء وليلي لعدة عمليات صيانة وترميم أمو لا جدال فيه لكن المعلومات الدقيقة غير متوفرة (7).

وقبل الخوض في الوضع الحالي للفسيفساء من الأفضل أن نطرح التساؤل حول أسلوب التدخلات التي تعرضت لها.

تبين لنا اعتماداً على معاينتنا للفسيفساء الوليلية أنها تعرضت لتدخلات عديدة وأن الترميم الذي خضعت له اتبع أسلوبين متميزين تمثل الأول في فسيفساء أورفي (Orphée) والثاني في فسيفساء ديونيزوس وأريانة (Dionysos et Ariane).

بالنسبة للصنف الأول، يظهر من خلال المعاينة الفورية بأنه باستثناء الثغرات التي نلاحظها على مستوى اللوحة الثانوية الشمالية والزوايا الجنوبية الشرقية للغرفة (شكل 1) فإن باقي الفسيفساء في حالة صيانة جيدة وأصيلة، لكن

الواقع غير ذلك، فمن جهة الحقل الأبيض مكون من مكعبات معظمها حديث مما ينفي عنه أصالته. ومن جهة أخرى، رغم استعمال المكعبات الأصلية للتجسيديات فإن مسألة أصالة بعض الصور مشكوك فيها (8) وهذا يفسر الطابع غير العادي لبعض الحيوانات (شكل 2).

وهكذا يتضح بأنه إذا كان التركيب العام لفسيفساء أورفي لا يطرح أننى شك، فالأمر ليس كذلك بالنسبة لبعض الحيوانات التي أعيد تشكيلها بمكعبات قديمة، وهذا الأسلوب غير مقبول في الوقت الراهن لأن طريقة إعادة وضع المكعبات يمكن أن لا تتطبق مع طريقة وضعها قديماً.

بالنسبة للزخارف الهندسية يمكن إعادتها شريطة استعمال مكعبات حديثة تسمح بقراءة العنصر الزخرفي مع تمكين المشاهد من التمييز بين القديم والجديد. أما بالنسبة للمشاهد المشخصة فلا ينصح على الإطلاق بتكتمتها خصوصاً إذا كنا لا نتوفر على وثائق دقيقة حولها. وفي هذه الحالة، يستحسن الاقتصار على دعم الأجزاء التي تستدعي ذلك.

بالنسبة للصنف الثاني الممثل في نموذج ديونيزوبس وأريانة، فقد فضل المرمم اختيار أسلوب يعتمد على تكملة الإطار الخارجي لشخصيات اللوحة عوض إعادة تجسيدها (شكل 3)، وإذا كان هذا الأسلوب محبباً فإنه لا يتوافق مع كون بعض الأجزاء من جسم ديونيزوبس شكلت بمكعبات حديثة. إنن يظهر بأن كلا الأسلوبين غير مقنعين ويدلان معاً على كون الهواية لعبت دوراً كبيراً في هذا المجال.

بناء على ما سبق نكره، ما هو الوضع الحالي للفسيفساء الوليلية؟

شهدت هذه الفسيفساء، كما أسلفنا قوله - عدة عمليات صيانة وترميم، ولكن للأسف لم يمنع هذا من تدهورها لاحقاً. وبالفعل نجد ضمن التقرير الذي أعدته إحدى المتخصصات سنة 1986 (9) رسداً لمختلف أنواع التدهور الذي عرفته الفسيفساء الوليلية أبرزها يتمثل في الشروخ التي تعرض لها أكثر من إحدى عشر

نموذجاً، ولكن انفصال المكعبات ودعامة الفسيفساء هما الأمران الأكثر تردداً، وقد لوحظ بالنسبة لأكثر من ستة عشر نموذجاً.

ولم تتحسن هذه الوضعية بعد هذا التاريخ، يكفي أن نقوم بزيارة لوليلي لنلاحظ بأن حالة الفسيفساء في تدهور مستمر ويمكن اعتبار بعضها في عداد المفقود، مثال على ذلك فسيفساء الدلافين في منزل فينوس وبعض النماذج الهندسية بمنزل الفارس (La maison au Cavalier) وبمنزل الأعمدة (La maison aux Colones) وكذلك بحمامات غالين (Thermes de Gallien).

ترى ما هي أسباب تدهور الفسيفساء الوليلية؟

يمكن ربط هذا التدهور بعوامل عديدة تتغير من نموذج لآخر، وبعضها تسبب في نفس المشاكل بمواقع أخرى ونحصر هذه العوامل فيما يلي:

- تغير درجة الحرارة. - تسرب مياه الأمطار. - اكتساح النباتات. - صلابة الإسمنت الحالي غير المتجانس مع المواد القديمة.

وعرفت بعض الفسيفساء الوليلية - زيادة على ما سبق ذكره - مشاكل أخرى تتمثل في الدوس المتكرر الذي تتعرض له من طرف الزوار مما عجل بتدهور بعضها، نذكر من ذلك فسيفساء سباق العربات (La course des chars) بمنزل موكب فينوس التي تنقلص إمكانية معرفة مشاهدتها يوماً بعد يوم.

ولا يعد اجتناب النباتات الممارس بانتظام بوليلي إلا حلاً جزئياً لأن العناية اللائقة بالفسيفساء تتطلب أكثر من ذلك، ومن ثمة ضرورة تدخل شخص مؤهل ليتحمل مسؤولية إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الفسيفساء، فالجوء إلى المتخصصين لا يتم إلا بالنسبة للحالات الدقيقة.

نؤمن بأنه آن الأوان لنفكر بجدية في تكوين فريق عمل يتضمن تقنيين مغاربة يتكفون بصيانة الفسيفساء المكتشفة وتهيئهم لما يمكن أن يستخرج لاحقاً وبذلك يلزم أن يستفيد هؤلاء التقنيون من تجارب البلدان المتقدمة في هذا المجال ولم لا تجارب بلدان تعتمد إمكانيات محدودة نسبياً مثل تونس فهي مثال يحتدى (10).



شكل 1 : فسيفساء أورفي بوليني



شكل 2 - (1) : جزء من فسيفساء أورفي بوليلي



شكل 2 - (2) : جزء من فسيفساء أورفي بوليفي



شكل 3 - فسيفساء ديونيزوس وأريانة بوليلي

الهوامش:

- (1) — للمزيد من المعلومات حول موضوع الصيانة انظر:
- J. P. Adam et autres..., *La conservation en Archéologie*, Paris, 1990.
- (2) — تجدر الإشارة إلى أن موقع ويلي يضم تقريبا نصف الفسيفساء المغربية المعروفة لحد الآن.
- (3) — وأيضا لضبط التشويش لأن القيام بأية أسبار رهينة بعدم إتلاف قاعدة الفسيفساء.
- (4) — انظر:
- M. Ponsich, « Technique de la dépose, repose et restauration des mosaïques romaines », dans *MEFR* 72, 1960, pp. 243-256.
- (5) — انظر:
- R. Thouvenof, « La maison à la mosaïque de Vénus, dans *PSAM* 12 , 1958, (PP. 49-86), p. 77 note 4.
- (6) — انظر 2، ص. 249، الهامش 1.
- (7) — لا يسعنا إلا أن نتحسر على قلة المعلومات الخاصة بترميم فسيفساء ويلي في حين أن الدارس لبعض الفسيفساء الإيطالية أو الفرنسية التي اكتشفت منذ أزيد من مائة سنة يمكنه الحصول على وثائق هامة تخص شكل الفسيفساء الأصلي وحالة الصيانة إبان الكشف عليها.
- (8) — علمنا عن طريق الرواية الشفوية بأن بعض الأثريين الأجانب عوضوا المرمرين، بل إنهم كونوا بعض العمال الذين كلفوهم بملء ثغرات الفسيفساء بمكعبات قديمة. وقد شملت هذه العملية حتى الأجزاء المحسدة.
- (9) — يتعلق الأمر بالسيدة إيفلين شاطريو (E. Chantriaux) مديرة ورشة ترميم الفسيفساء بسان رومان أون غال (Saint-Romain-en Gal) بفرنسا وهي التي أشرفت على ترميم نموذجي بناسا: تريتون وفينوس ذات المحارة المعروضين بمدخل ويلي.
- (10) — وفي انتظار تكوين التقنيين المتخصصين في هذا المجال المعرفي ينبغي الإسراع بإتخاذ النماذج الأكثر تضررا، ولاشك أن التوعية لها دورها في تحفيز المجتمع المدني للاهتمام بهذا الإرث الحضاري المهدد.

معطيات عن مشروع حفريات البعثة المغربية الإنجليزية بوليلي

حسن ليمان*

خلال السنة الماضية وتفعيلاً للتعاون المغربي الإنجليزي، تم إمضاء اتفاقية تعاون في المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث (INSAP) وجامعة كوليج لندن (UCL) وذلك في إطار مشروع استمرار البحث الأثري بموقع وليلي. يهتم هذا البحث بالتنقيب في الجزء الجنوبي الغربي من الموقع، وذلك رغبة في الحصول على المزيد من المعلومات أو المعطيات الأثرية حول إشكالية التعمير والاستقرار بالموقع خلال الفترة الإسلامية والفترة الرومانية المتأخرة. إذا كنا نتوفر على معلومات كثيرة ووافرة عن الفترة الرومانية وإلى حد ما عن الفترة الموريطانية فإن الفترتين التي تم اختيارهما كموضوع أولي للبحث في إطار هذا المشروع، هما فترتين نتقنا عنهما الكثير من المعلومات والمعطيات. وبالتأكيد، فإن الفترة الإسلامية تعتبر المحور الأساسي لهذا البحث، وخاصة ما يتعلق بتحديد مجال المدينة في اتجاه الجنوب والجهة الغربية من الموقع وخاصة بما يسمى بالمدينة المقلصة أو المصغرة والتي أحيطت بسور خلال القرن السادس بعد

* أستاذ باحث بمديرية الآثار والأبحاث الرباط

الميلاد، نتيجة للتغيرات التي طرأت على رقعة الاستقرار بهذا الموقع. هذا البحث باختباره كذلك للمحور السابق الذكر، يمكن أن نعتبره استمراراً للبحث والحفريات التي تم إنجازها من طرف الأستاذ عمار أكراز في الجهة الشمالية الغربية لقوس النصر وبالضبط شمال منزل البيكار. هل في الحي الغربي توجد نفس المعطيات الأثرية الإسلامية، بنفس عملية التطبيق أو الإستراتيجرافية، أم أن هناك اختلاف بين ما وجد في الشمال وما يمكن أن يوجد في الجنوب.

كما أن مشروع هذا البحث الجديد، سيحاول أن يحدد إن كان مجال المدينة الإسلامية وخصوصيات العمارة في الجهة الغربية، مهتمين بكل جزئيات الفترة الإسلامية أو الفترات الإسلامية، وهنا أريد أن أشير إلى المراحل اللاحقة للفترة الإدريسية والتي لا يمكننا إلا أن نعتبرها مهمة وخاصة، وأن هناك إشارات واردة في النصوص لاستمرار الاستقرار بوليلي أي ما بعد فترة القرن 10 م.

خلال هذا الموسم الجامعي قام فريق البحث المختلط بتجربتين مهمتين وهما:

(1) تجربة الجرد المغناطيسي (شتبر 2000).

(2) الحفريات (مارس – أبريل 2001).

نتائج المسح المغناطيسي

تسهيلاً لعملية الحفريات، ومحاولة لتحديد الأماكن التي من شأنها أن تبوح بأسرار عمرانية وتاريخية مهمة قام الفريق المغربي الإنجليزي بعملية مسح مغناطيسي خلال شهر شتبر. شملت هذه العملية 4 أجزاء من الموقع وهي:

– المنطقة A et D في الجهة الغربية.

– المنطقة B خارج الأسوار الرومانية بجوار الحمامات الإسلامية.

– منطقة جرد في الجهة الشرقية C. في المكان المقترح لمشروع متحف الموقع.

1.1 - نتائج عملية المسح المغناطيسي.

2. المنطقة A: توجد هذه المنطقة في الجهة الغربية، المتميزة بانحدارها في

اتجاه واد خومان. تتخلل هذه المنطقة مجموعة من الأسوار الكبيرة الحجم، والتي لا تختلف عن الأسوار التي وجدت في الجهة الشمالية بمنزل البيكار. شكل هذه الأسوار شبكة متناسقة الوضوح، والتي لا يستبعد أنها تنتمي إلى مجموعة منازل، مكونة من باحات واسعة تتوسطها، أما غرفها أو ما يمكن أن نسميه بغرف مؤقتاً، فهي تتميز بطولها وضيقها. المسح المغناطيسي، سمح بإبراز توزيع منتظم لمناطق تتميز بضغط مغناطيسي قوي في كثير من الأحيان تظهر على شكل دوائر، يمكن تأويلها أو قرائتها مؤقتاً بأنها مواقد للنار Foyers أو مطامير أو حفر ملئت بأزبال المنازل.

تبقى الحفريات هي الوسيلة المثلى لفحص وتأكيد هذه الافتراضات.

B : بجوار الحمامات الإسلامية من الجهة الجنوبية الشرقية، تم اختيار منطقة ثانية للمسح المغناطيسي. تتميز هذه المنطقة المعروفة بـ "جنان كراب" بوجود كثير من أشجار الزيتون والتي لم تعق عملية المسح المغناطيسي. هذه العملية أبانت عن وجود مجموعة من الأسوار لها نفس اتجاه التي أظهرتها الحفريات القديمة التي أقيمت في هذه الجهة المحايدة للحمامات الإسلامية.

كما أظهر المسح المغناطيسي كذلك وجود سور طويل، أو ممر ذو اتجاه شمالي جنوبي في الجهة المحايدة للواد، في اتجاه الباب الجنوبي الغربي للسور الروماني. أما بقع كتل المغناطيسي فربما ترمز إلى وجود أفران إنتشرت شظاياها أو بقاياها في كل هذه المنطقة.

C : وقع الاختيار على المنطقة الثالثة والتي توجد في الجهة الشرقية وبالضبط جنوب معبد "B" أو ما يعرف بمعبد "بعل" وذلك للتحقق من عدم وجود أية آثار قديمة أو بنايات في المكان الذي تم اختياره لاحتضان مشروع متحف الموقع. إلا أن قطع الحديد أو الشوائب الحديدية المبعثرة في هذه البقعة حال دون الحصول

على نتائج سليمة. الشيء الذي جعل عملية المسح تتحول إلى المنحدر غير بعيد عن النقطة التي تم اختيارها للمتحف. هذه المنطقة تتميز كما يظهر في الصورة، بوجود شبكة مهمة من الأسوار. إقامة استتبار أو استتبارين كفيل بتجديد أهمية هذه البنايات.

D - أما المنطقة الأخيرة التي شملتها عملية المسح، فتوجد في الجهة الغربية للموقع، غرب المنزل المعروف بالإنسولا 11، داخل المدينة الرومانية المتأخرة، وعلى بعد عشرات الأمتار من سور القرن السادس.

أبان المسح المغناطيسي، عن حدود باحة تتوسط منزلاً كبيراً، وعن شكل دائري يتميز بضغط مغناطيسي كبير، قد يكون عبارة عن مطمورة أو فرن.

إن نتائج المسح المغناطيسي في النقط الأربع بينت على أنها تختزن كلها بنايات كبيرة، ومعالم أثرية، يبقى البحث الأثري أو التنقيب هو الوسيلة الوحيدة للتحقق منها ومن نوعها ومن تاريخها.

موازية مع هذا البحث الميداني الممهد لعملية الحفريات، قام الفريق بإتمام الرفع الهندسي لمختلف أجزاء الأسوار التي توجد في المنطقة الغربية وكذا الحي المعروف بالحي المنخفض. كما تم التفكير والاهتمام بملف ملم بالموقع وهو برنامج تدبير الموقع وأعمال تهيئته.

حفريات أبريل 2001 (23 مارس إلى 23 أبريل)

خلال البحث الذي قام به الفريق المغربي الإنجليزي طيلة شهر أبريل المنصرم، انصب الاهتمام على 3 محاور للبحث عن الحفريات في المنطقة D و B.

- الاهتمام ببرنامج تدبير الموقع وصيانته.
- بالينتولوجية الموقع أو الأركيولوجيا.

1 - الحفريات

الحفريات الأولية في المنطقة: D.

إن اختيار هذه المنطقة راجع إلى أنها لم تعرف حفريات منتظمة اللهم بعض الخنادق التي تركها الباحثون السابقون، والتي تتسم بتتبعها للأسوار، والتي تركوها على حالها، دون نشر نتائج أبحاثهم ولا ملأ لخنادقهم.

هذه المنطقة توجد داخل المدينة المتأخرة كما سبق الإشارة إلى ذلك. شملت الحفريات الموسعة رقعة تقدر ب 840 م² يتميز هذا الجزء من الموقع بوجود أسوار تنتمي إلى حقب مختلفة من الاستقرار، وخاصة تلك التي تهمنا أي الفترة الإسلامية والرومانية المتأخرة، اعتماداً على نظام التطبيقية، واستعمال مجال واحد خلال تعاقب فترات الاستقرار.

أظهرت الحفريات في هذا الجزء من الموقع وجود 3 بنايات متباينة.

البنائية الأولى في الجهة الشمالية، مكونة من أربع غرف طولية (اتجاه شمالي جنوبي) ضيقة، تنتمي لوحدة سكنية مستقلة، متصلة فيما بينها بواسطة أبواب فتحت في اتجاه شرقي غربي. أظهرت الحفريات التي أجريت في إحدى هذه الغرف عن أرضية من التراب المدكوك، المصنوع من الجير والحصى وتراب أصفر، كما بينت عن وجود ملاط يغطي الأجزاء السفلى من الجدران.

البنائية الثالثة (وأقول الثالثة)، فهي توجد في المنطقة الوسطى أو في مركز الحفريات، وهي كذلك تتكون من ثلاث غرف منفصلة، غير أن الحفريات لم تبيّن عن خصوصياتها، فالبحث سيستمر في السنة المقبلة.

البنائية الثانية، وهي الأكثر وضوحاً، وذلك راجع لصغرها، حيث قسمت إلى ثلاث أجواء. تم العثور في الغرفة أو الجزء الغربي على أرضية مرصفة بالحجارة، بينما الغرف الأخرى أرضيتها مصنوعة من التراب المدكوك الممزوج بالتراب والجير والحصى. جدرانها أو ما تبقى منها أظهرت عن بقايا طلاء كان يغطيها. كما أنه عثر على بعض بقايا سقف هذه الغرف والذي كان يتكون من القصب والطين، وبعض الحجارة، حيث وجدت آثاره فوق الفرشة التي تغطي الأرضية مباشرة.

أما من ناحية البناء العام، فإنه يتميز بإعادة استعمال حجارة كبيرة كما هو مألوف في البنايات المتأخرة، مرصفة أو مبنية بواسطة التراب. أما اللقى الأثرية فهي كثيرة ومختلفة، تتميز بوفرة الخزف أو الفخار الإسلامي العادي والمبرنق الأخضر والرمادي والأحمر. وأقدم هذه اللقى تنتمي إلى الفترة الإسلامية ويمكن تأريخها بالقرن 11 م، وخاصة نموذج من قنديل إسلامي ممدود ذو شكل أسطواني، عثر على نماذج منه ببعض المواقع المؤرخة بنفس الفترة في إسبانيا. يُضاف إلى هذه القطعة نقد مرابطي ضرب عليه.

لا إله إلا الله

الأمير يوسف بن تاشفين.

هذه المعطيات رغم قلتها فإنها غنية تسمح بتاريخ هذا المستوى من الاستقرار بالفترة المرابطية. هذا التاريخ يفتح مجالاً جديداً لتساؤلات متعددة، عن وضعية المدينة الموقع في هذه الفترة، وعن أهميتها وعن تعميرها وتنظيمها، وعن استغلال وتعمير مجالها.

المنطقة ب. B.

تم الاكتفاء في المنطقة المحايدة للحمامات الإسلامية، بفتح استبارين، الأول اتسم بمحاولة إبراز خصوصية ذلك السور أو الممر ذو الاتجاه الشمالي الجنوبي الذي أظهرته التحريات المغناطيسية. بخصوص هذا العنصر، أظهرت الحفريات عكس ما تمت قراءته، فليس هناك لا سور ولا ممر، كل ما هناك أو ما أظهرته الحفريات، هو عبارة عن قناة طويلة لها نفس الاتجاه، تقطع الاستبار كذلك من الشمال إلى الجنوب، ملئت بكثير من الأتربة وحجارة الواد.

هل هي حد لأحد الحقول، أم أنها كانت فعلاً قناة تستعمل للسقي؟

أما الاستبار الثاني، والذي وضع غير بعيد عن الحمامات الإسلامية، كان الهدف منه إظهار زاوية إحدى البنايات التي لربما تنتمي إلى المجمع الحرفي

إن اختيار هذه المنطقة راجع إلى أنها لم تعرف حفريات منتظمة اللهم بعض الخنادق التي تركها الباحثون السابقون، والتي تتسم بتتبعها للأسوار، والتي تركوها على حالها، دون نشر نتائج أبحاثهم ولا ملأ لخنادقهم.

هذه المنطقة توجد داخل المدينة المتأخرة كما سبق الإشارة إلى ذلك. شملت الحفريات الموسعة رقعة تقدر ب 840 م² يتميز هذا الجزء من الموقع بوجود أسوار تنتمي إلى حقب مختلفة من الاستقرار، وخاصة تلك التي تهمنا أي الفترة الإسلامية والرومانية المتأخرة، اعتماداً على نظام التطبيقية، واستعمال مجال واحد خلال تعاقب فترات الاستقرار.

أظهرت الحفريات في هذا الجزء من الموقع وجود 3 بنايات متباينة.

البنائية الأولى في الجهة الشمالية، مكونة من أربع غرف طولية (اتجاه شمالي جنوبي) ضيقة، تنتمي لوحدة سكنية مستقلة، متصلة فيما بينها بواسطة أبواب فتحت في اتجاه شرقي غربي. أظهرت الحفريات التي أجريت في إحدى هذه الغرف عن أرضية من التراب المدكوك، المصنوع من الجير والحصى وتراب أصفر، كما بينت عن وجود ملاط يغطي الأجزاء السفلى من الجدران.

البنائية الثالثة (وأقول الثالثة)، فهي توجد في المنطقة الوسطى أو في مركز الحفريات، وهي كذلك تتكون من ثلاث غرف منفصلة، غير أن الحفريات لم تبين عن خصوصياتها، فالبحث سيستمر في السنة المقبلة.

البنائية الثانية، وهي الأكثر وضوحاً، وذلك راجع لصغرها، حيث قسمت إلى ثلاث أجواء. تم العثور في الغرفة أو الجزء الغربي على أرضية مرصفة بالحجارة، بينما الغرف الأخرى أرضيتها مصنوعة من التراب المدكوك الممزوج بالتراب والجير والحصى. جدرانها أو ما تبقى منها أظهرت عن بقايا طلاء كان يغطيها. كما أنه عثر على بعض بقايا سقف هذه الغرف والذي كان يتكون من القصب والطين، وبعض الحجارة، حيث وجدت آثاره فوق الفرشة التي تغطي الأرضية مباشرة.

Archéobotanique — 3

لقد جاء الاهتمام بهذا الجانب الجديد من البحث الأثري رغبة من الفريق في محاولة تزويدنا بمعلومات مهمة عن الغطاء النباتي وعلاقته بالحياة اليومية وبالجانب المعيشي والاقتصادي.

يعتمد هذا البحث على أخذ بعض العينات من الجذور والأزهار والنباتات الحالية لمقارنتها، مع العينات التي ستأخذ من مختلف الفرشات الأثرية سواء بالإستبارات أو بالحفريات الموسعة، والهدف من ذلك هو محاولة ضبط معالم الغطاء النباتي للموقع أو على الأقل جزء منه.

أما العينات التي ستأخذ من الإستبارات والحفريات فيمكن كذلك أن تساهم في عملية التأريخ، وذلك بواسطة تحليلها بواسطة الكربون 14.

إن هذا البرنامج الجديد هو ما يمكن أن نسميه أو يصطلح على تسميته ببرنامج البحث المكتملة والتي تحاول أن تتناول مختلف أبعاد البحث ليس فقط البعد الأثري التاريخي الذي نتوخى الوصول منه إلى الإنسان فاعل التاريخ، بل إن البعد الإيكولوجي أصبح هو كذلك من الأبعاد التي ينتظر الوصول إليه رغبة كذلك في التعرف على نظامه الغذائي ومنتجاته واستعمالاتها، ناهيك عن البعد الحمائتي والحفاظي للموقع نفسه، بواسطة تخطيط برنامج تدبير مكتمل، وما يمكن أن ينتج عنه من برمجة سياسية واقتصادية واجتماعية مبنية على التراث مع ضرورة ربطه بمحيطه.

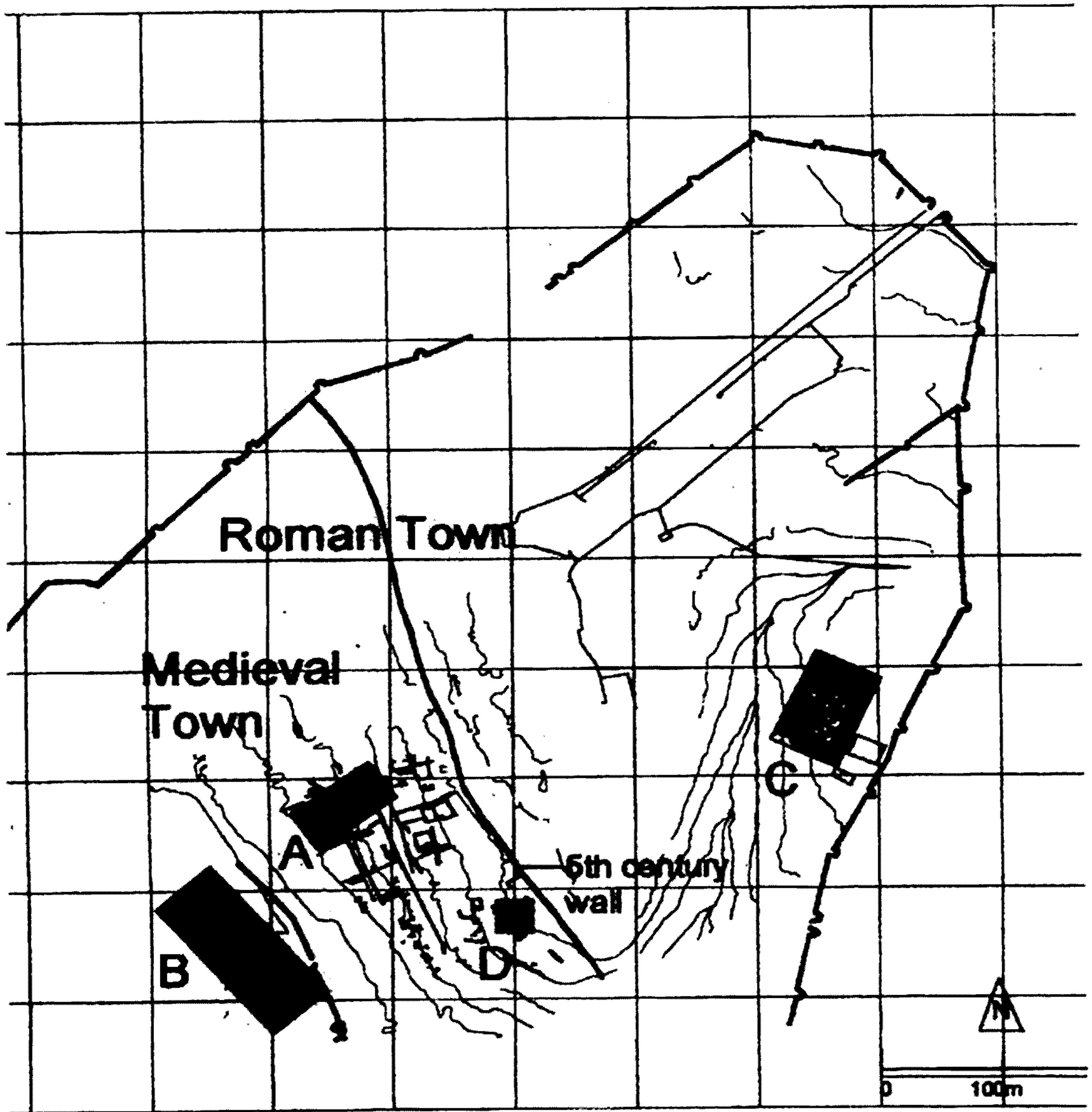




fig. 5 Plan du site et magnétométrie dans la zone A.

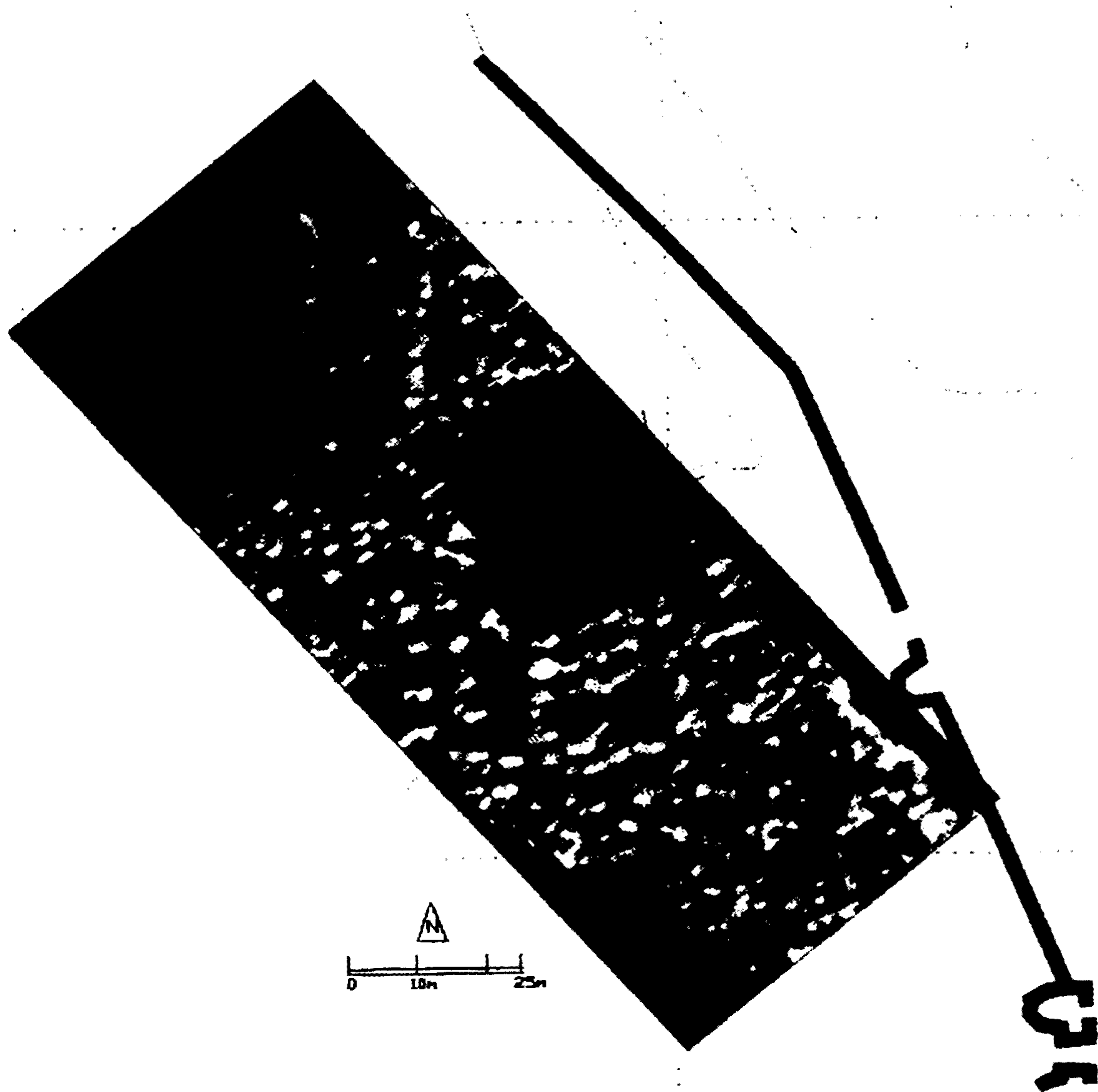
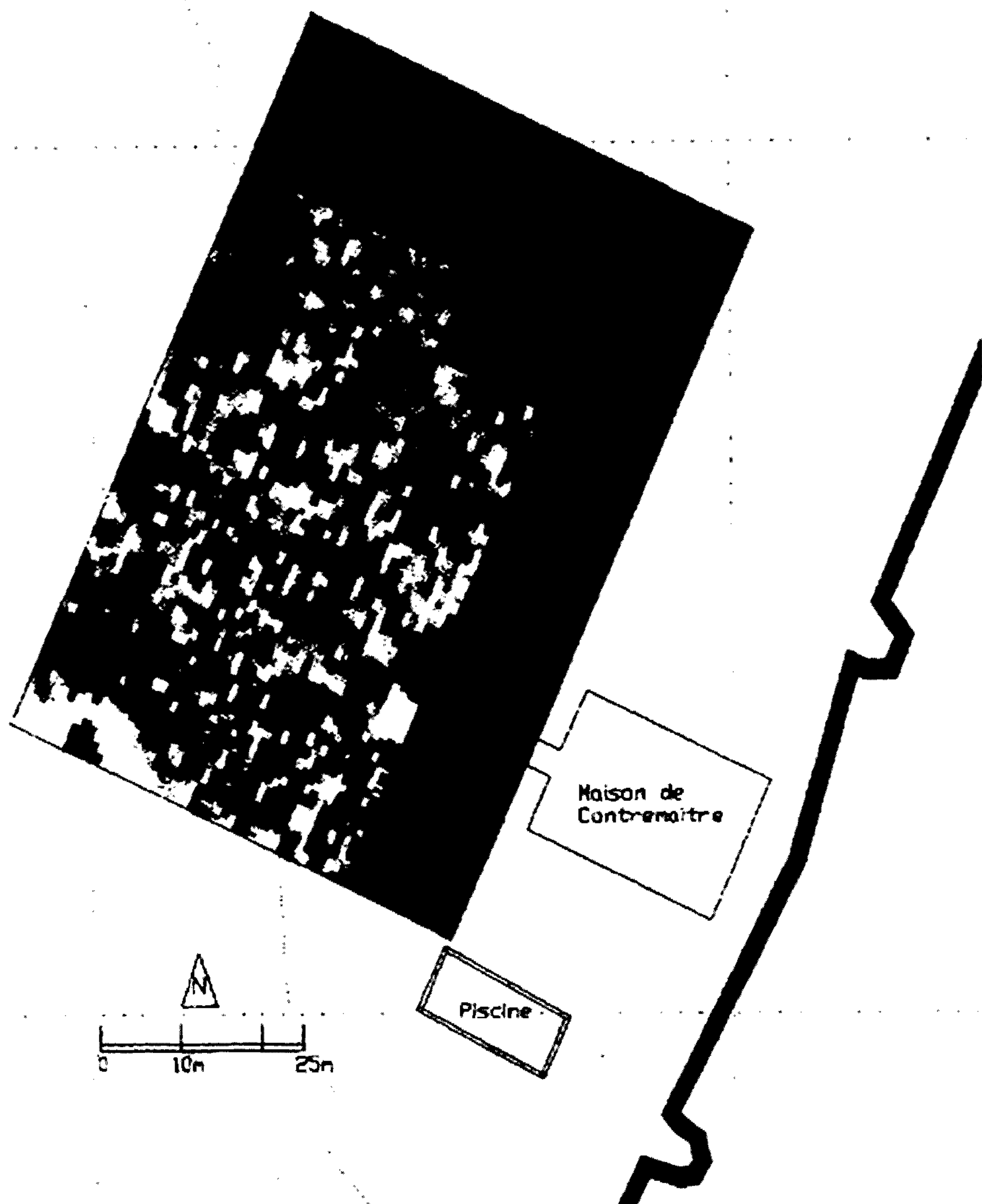


Fig. 7: Prospections géophysiques dans la zone B.



**Fig. 9. Les résultats de la zone C: les structures continuent apparemment au-dessus des bâtiments actuels
prospections ont été empêchées par la grande quantité de fer sur le terrain.**

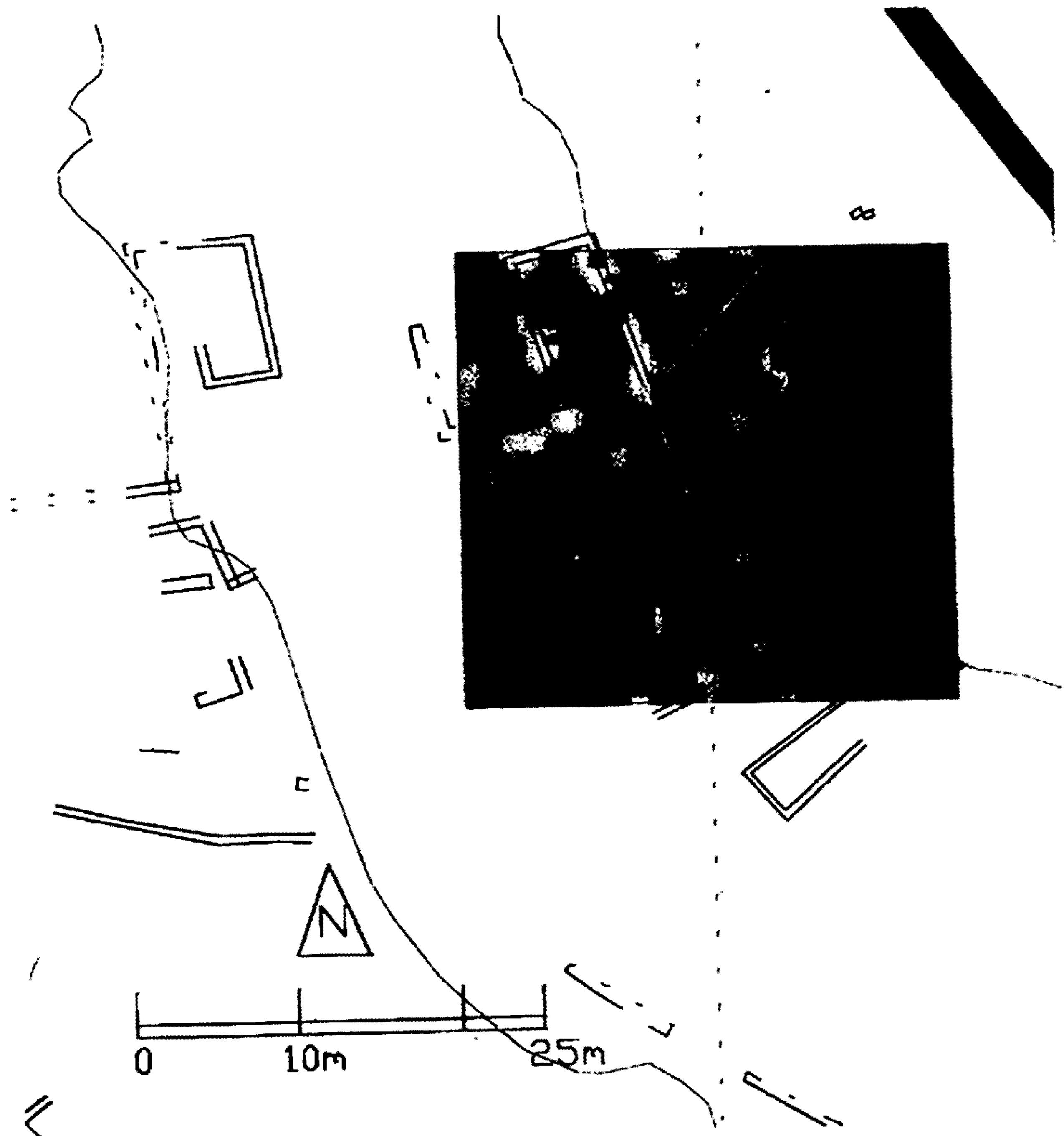


Figure 10: Magnétométrie dans la zone de la fouille.

مصيلة البحث الأثري في موقع بناصا

سيدي محمد العيوض •

يعتبر موقع بناصا الأثري من أهم مواقع سهل الغرب ، تمت مطابقته مع ضريح سيدي علي بوجنون ، وهو موقع يبعد عن مدينة مشرع بلقاصيري ب 17 كلم ، وعن المحيط الأطلسي بحوالي 30 كلم كان مجالا لعدة مواسم حفر والتي أزال التراب عن البنايات التي تقف شاهدة على هذه الفترة القديمة.

يمكن تقسيم هذا التاريخ إلى مراحل تتميز كل واحدة بخصائص معينة، فالمرحلة الأولى تهم استكشاف الموقع من طرف لابي، وش.تيسو ،ولامارتينير وفيني، تليها مرحلة ثانية وهي مرحلة الحفريات المنظمة، رائدها هو الباحث توفنو، والمرحلة الثالثة ترأس الحفريات خلالها م أوزينا وأرموند لوكي، وقد أخذ البحث في هذه المرحلة توجهها مخالفا لما هو معهود، وأخيرا المرحلة الرابعة يمثلها نشاط البعثة المغربية الفرنسية تحت إشراف حسن ليمان وإليان لونوار.

المرحلة الأولى

أورد شارل تيسو بأن لابي هو أول من اقترح مطابقة موقع بناصا مع ضريح سيدي علي بوجنون سنة 1844 (1) حيث قدم هذا الباحث وصفا مفصلا عن بقايا

موقع بناصا الواقعة على الضفة الشرقية لسبو حيث يوطن في المكان الذي يشغله سيدي علي بوجنون، وقد أصبحت منذ منتصف القرن الأول مستوطنة تحت اسم بناصا فلانتينا(2).

تأثرت على أرضية الموقع بقايا من قرميد وأجر وكتل كبيرة من الأحجار أو الرخام من بينها قاعدة عمود تاجي عمود من النوع الكورنتي(3) ، وفي 14 دجنبر 1871 عثر شارل تيسو على نقيشة أكدت هذه المطابقة، وفي سنة 1889 زار لامرتينير الذي كان متوجها إلى ويليي موقع بناصا وقد عثر على الجزء العلوي من النقيشة التي سبق وأن أشار إليها تيسو، كما شاهد تاجي العمود المشار إليهما سابقا(4). وفي سنة 1911 نظمت أول حفريات في بناصا من طرف القائد العسكري فيني نتج عنها استخراج رأس الربة جنون المعروف حاليا بالمتحف الأثري بالرباط، إضافة إلى عدد من القطع البرونزية، كما تم الكشف عن حمامات في الجهة التي افترض فيها تيسو أنها باب المدينة، إضافة إلى آثار بعض البنايات.

المرحلة الثانية

لكن الحفريات المنتظمة بالموقع لم تبدأ إلا سنة 1933 م، إذ أن الحفر كان على مرحلتين : المرحلة الأولى في فصل الربيع، أما المرحلة الثانية فقد تمت في فصل الخريف. وخلال هذا الموسم تم الكشف عن سور أرخ له ر. توفنو بفترة متأخرة(5) وفي وسط المساحة التي شملها التنقيب تم الكشف عن ساحة تحتفظ في جزء منها بتبليط من رخام، اعتبرت فروم المستوطنة(6). ومن أهم اللقى عدد من النقائش وقطع من تمثال مذهب، أما حفريات السنوات اللاحقة فقد مكنت من التعرف على الحي الغربي والشمال الغربي وعن بقايا حمامات عمومية، وقد يتعلق الأمر بالحمامات التي ستسمى حمامات الغرب الكبيرة، ومنزل كبير نعتبره منزل فينوس باعتماد الفسيفساء التي وجدت فيه، وبعد ذلك تم الاهتمام بالحي الذي بني على الجزء العلوي للربوة الجنوبية، حيث أماطت الحفريات اللثام في الجهة الغربية عن حمامات مهمة ربما يقصد بها حمامات الغرب الكبيرة. وفي الجهة الشمالية عن حي

تجاري بعدد من الدكاكين (7) من المحتمل أنها المحلات الموجودة جنوب أنسولا الماكلوم. كما عثر في أقصى الجهة الشمالية الغربية على بناية ذات تصميم لا يساير الاتجاه العام، وتم الكشف كذلك عن مؤسسة حمام القبة المنهارة (8)، ويتعلق الأمر هنا بحمامات الشمال، وستتابع الحفريات في هذه الجهة حيث أن البناية التي كانت في مرحلة أولى سكنا تحولت في مرحلة لاحقة إلى سوق (9). تم العثور على مدفن في النقطة التي ينحرف عندها الكارنو ليتخذ اتجاهها جنوبيا غربيا على عمق 0,80 م تحت المستوى الروماني.

على أن الحفريات التي تمت خلال سنة 1947 م، أو في السنة السابقة، شملت الكارنو على عمق 3م، ففي الجهة التي تكونت من تراكمات ناتجة عن انهيار مواد المنازل المجاورة تم حفر مقبرة إسلامية دون الوصول إلى المستوى الروماني. ومن الملاحظات التي أبداها رتوفنو هي عدم الكشف عن أي شارع ثانوي في هذه الجهة مما يوحي بأن هذه الشوارع قد تم إغلاقها في مرحلة لاحقة لا قامه ما يشبه أكواخا (10). إضافة إلى ذلك شملت الحفريات الحي الموجود غرب الماسلوم، خاصة الربوة الثانية وهو أمر كان يطرح صعوبات نظرا لتراكم التربة المنزلة أو يحتمل أن تكون من جراء انهيار تراب تراكم بفعل مياه الأمطار. وقد أسفرت النتائج على التعرف على منزل كبير سيعرف فيما بعد باسم منزل فانتيوس، وأهم اللقى تتمثل في 38 قطعة فضية (11)، ووراء هذا المنزل عثر على مسبح معزول قد يكون هو بداية التخلي عن حمامات الغرب الصغيرة.

أما في السنة الموالية فقد تم التعرف على منزل آخر (12) هو منزل الركائز الأربعة وإلى الجهة الغربية منه تم العثور على بنايات متواضعة بدون أسس، مبنية بمواد مختلفة وذات اتجاه منحرف عن اتجاه هذا المنزل (13).

وأثناء موسم 1947 تم الكشف نهائيا عن حمامات الغرب، حيث عثر في إحدى قاعاتها على فسيفساء تمثل تريتون وعدة حيوانات بحرية (14) وهذه الحمامات هي التي سميت فيما بعد بحمامات ذات الصباغة الحائطية، وانتقل بعد ذلك الحفر إلى

الجهة الشمالية حيث سبق العثور على رأس جنون. وسيتم خلال هذه المرحلة التعرف على أربعة منازل هي كالتالي : م 1 – م 2 – م 3 – م 4. ومن بين ملاحظات ر. توفنو على هذه المنازل هو أنه استعمل فيها موادا من مباني متقدمة مما يعكس مرحلة ثانية في بناء بعضها، وعلى عمق مترين تحت المستوى الروماني أشار ر. توفنو إلى طبقة أركيولوجية ويضاف إلى ذلك الاستبار الذي قام به لوكي تحت أرضية مبلطة لإحدى غرف هذه المنازل والذي مكن من التعرف على فرن فخار.

وفي سنة 1950 تم حفر آخر منزل في هذا الحي وهو منزل م 5 (M5) والقيام بمجموعة استبارات منها استبار على طول 40 م وعمق 7 م. ومن بين أهم نتائج العثور على قذحين من الخزف العادي (15). أما باقي الاستبارات فقد تمت في الكابتول إذ كشف بعضها تحت الأساسات عن فرني فخار (16).

أما حفريات 1951 فقد تركزت في الحي الغربي حيث تم التعرف على منزل كبير بفسيفساء ذات مرسوم، ويتعلق الأمر هنا باعتماد اللقى بمنزل يوبا الثاني الذهبي. كما أقيمت في هذه الجهة عدة استبارات كشفت عن أفران للفخار أو الجير، إلا أن ر. توفنو لا يعطي وصفا دقيقا للمستوى الذي توجد فيه، ومن أهم اللقى كذلك نقد ذهبي ليوبا الثاني وقطعتان من شهادتين عسكريتين.

وتستمر الحفريات في السنة الموالية على الضفة الغربية للكارديو وفي اتجاه جنوبي – غربي لتكشف عن مجموعة منازل واسعة، ولقى متنوعة : تمثال من الرخام لفينوس محتشمة وشهادة عسكرية (17)، وربما يكون ر. توفنو قد قام بإتمام الكشف في هذه الجهة عن المنازل التي لم يصفها في كتابه حول بناسا :

THOUVENOT (R) *Une colonie romaine : Julia valentia Banasa*, Paris, 1941.

وبعد هذه السنة شملت الحفريات الحي الجنوبي لتتوالى بعد ذلك طيلة ثلاث سنوات 1953 و 1954 و 1955. ومكنت هذه الحفريات من الوقوف على تصميم بنايات هذه الجهة واتجاهها، هذه البنايات تتوفر على دكاكين تفتح على دوكومانوس ثانوي،

كما أن عمليات الحفر أسفرت عن وجود طبقتين اعتبرتَهما ر.توفنو رومانيتين استعملت جدران الطبقة السفلى كأساسات لبنانيات الطبقة العليا (18).

ومن بين أهم اللقى التي وجدت خلال هذه المواسم الثلاثة (19) نقود بعض المدن الإغريقية، ونقود ليوبا الثاني، إضافة إلى نقود لأغسطس وأوائل أباطرة الرومان، ونقيشة عبارة عن إهداء معبد لسبيل. ومن الملاحظات العامة التي يمكن إيدؤها حول هذه المرحلة هي :

- توقف عمليات الحفر سنة 1955.

- قيام ر.توفنو بحفريات وساعده لوكي في الحفر وفي إعداد الوثائق، خصوصا تصاميم البنايات.

- تركيز الاهتمام خلال حفريات هذه المرحلة من تاريخ بناصا حول الكشف عن المعالم الأثرية الرومانية والتحف الفنية.

- استحالة تقديم ولو تاريخ تقريبي لكثير من اللقى التي عثر عليها أثناء عملية الحفر لكونها أفرغت من فرشتها الأركيولوجية.

ومع ذلك فإن ما يسجل بالنسبة لهذه المرحلة من تاريخ بناصا صدور تقارير واقية ومنتظمة. توأكب موسم الحفر حول نتائج هذه الحفريات والتي صدرت على الخصوص في نوريات :

BAM : Bulletin d'Archéologie Marocaine

BCTH : Bulletin du Comité des Travaux Historiques

CRAI : Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres.

PSAM : Publication du Service des antiquités du Maroc.

كما تم الكشف خلال هذه المرحلة على كل معالم المدينة التي نعاينها اليوم.

المرحلة الثالثة :

هذه المرحلة يمثلها لوكي تحت إشراف م.أوزينا الذي كان يومها مدير مصلحة الآثار خلفا آخر في عمليات الحفر، حيث توجهت الحفريات إلى الاهتمام بالمراحل السابقة عن الوجود الروماني، وكذلك باعتماد ما يمكن أن نسميه اليوم بالمنهج الاستراتيجي واعتماد الفخار كعنصر تأريخ للمستويات التي سيتم الكشف عنها.

فحفریات سنة 1955 كشفت في الحي الجنوبي عن دوکومانوس عرضه 4.50 م وعن منزلین أحدهما نو مر تتفتح علیه مجموعة غرف، عثر فيه علی تمثال من البرونز لجوبتر إضافة إلى بناية أخرى شمال هذا الدوکومانوس (20).

وقد صاحب هذه الاكتشافات القيام باستبارین وسط المساحة ب (B) وشمال الدوکومانوس (21) علی سمك 10.25 م، حيث تم الوقوف علی ست مستويات. كما وجد في هذا الحي عدد من الأفران ومحلات مبنية باللبن (22) وسيتم سنة 1956 القيام باستبار في وسط الموقع في محور الكارنو الرئيسي وجنوب ضريح سيدي أحمد العرج (23) لتؤكد الحفریات وجود المستويات الستة التي وجدت في الحي الجنوبي، حيث سيعتمد علی الفخار للتأريخ لها.

إن ما يميز هذه المرحلة هو نشر المهتمين بالحفریات لتقارير ومعطيات للمقاطع مع بعض اللقى، غير أن نتائج هذه الحفریات والتأويلات المقدمة في شأنها والتأريخ الذي يخصها لم يتم عرضه إلا في فترة متأخرة مع س جيرار (24) التي حاولت أن تقدم عملا کلیا يجمع بين اللقى الأثرية والمقاطع الاستراتيجرافية بما في ذلك الدراسة العددية لمختلف قطع الفخار المصبوغ في كل مستوى .

المرحلة الثالثة :

ابتداء من 1982 تكونت بعثة مغربية فرنسية ركزت علی التحري في مجال الغرب وبناسا، وقد أسفرت النتائج عن الكشف عن عدد من المواقع (25) وخلال هذه المرحلة اتخذت الأبحاث إتجاها آخر، حيث أنه ابتداء من سنة 1990 تكونت بعثة مغربية فرنسية تحت إشراف حسن ليان وإليان لونوار، إذ انصب الاهتمام علی دراسة الحمامات ذات الصباغة الحائطية رغم أن هذا المبنى قد تم التنقيب فيه من طرف ر.توفنو إلا أن تأريخه كان يطرح مشكلا فهذه الحمامات تمت إقامتها علی مبنى قديم يعود لبداية القرن الأول قبل الميلاد، وقد واكب هذه العملية القيام باستبار مكن من التعرف علی جزء من السور المعروف في المساحة التي شملها التنقيب، والذي تم بناؤه خلال منتصف القرن الثاني الميلادي (26) كما عرف الموقع

بين سنتي 1992 و1993 عملية جرد جيوفيزيائي بهدف تعيين حدود الموقع . وقد أسفرت هذه العمليات عن انتشار البنايات خارج المجال المنقب فيه سابقا ، إضافة إلى برمجة عملية جرد فيزيائية أخرى سنة 1995.

إن ما يميز هذه المرحلة في البحث هو تعدد التخصصات :

-التقيب وتأويل المعطيات

-الهندسة

-الجانب الفني الصباغة الحائطية

-الجرد الجيوفيزيائي

وقد استغرقت هذه العمليات مدة من الزمن تقارب عشر سنوات ولا زالت نتائج هذه الحفريات لم تظهر إلى الوجود.

المواشر:

- (1) - ROGET (R1), *Le Maroc chez les auteurs anciens*, Paris, 1924, P.40
- (2) - TISSOT (CH), *Recherche sur la géographie comparée de la Maurétanie*, Tingitan Paris 1878
- (3) - ID, *Ibid.* P.279
- (4) - THOUVENOT (R), *Une colonie romaine : ulia valentia Banasa*, Paris, 1941, P. XV.
- (5) - ID, *Ibid.*, P.XV. XVI.
- (6) - CHATELAIN (L.) sur les travaux poursuivies au Maroc, dans *BCTH*, 1934 –1935, P.108.
- (7) - THOUVENOT (R), Rapport sur l'activité du service des antiquités du Maroc 1945, dans *BCTH*, 1948. 1949, P.85. pendant l'année
- (8) - ID, *Ibid.*, P.403
- (9) - ID., Rapport sur l'activité du service des antiquités du Maroc pendant l'année 1945, dans *BCTH*, 1949, P.85
- (10) - ID, *Ibid.*, P.259
- (11) - THOUVENOT (R), Rapport sur les travaux archéologiques effectués au Maroc en 1946, dans *BCTH*, 1946 – 1949, P.430 – 435.
- (12) - ID., Rapport sur les travaux archéologiques effectués au Maroc en 1947, dans *BCTH*, 1946. 1949, P.430 – 439.

- ID., Ibid, P.435 (13) -
- THOUVENOT (R), Rapport sur les travaux archéologiques effectués au Maroc en 1948, dans *BCTH* 1946 – 1949, P.634. (14) -
- ID., Rapport en 1950 – 1952, dans *BCTH* 1959 – 1960, P.147 (15) -
- Id. Ibid. (16) -
- THOUVENOT (R), Rapport sur l'activité du Service des antiquités du Maroc en 1951 dans *BCTH*, 1951 – 1952, P.155. (17) -
- Id, Rapport sur l'activité de l'inspection des antiquités du Maroc pendant l'année 1953, dans *BCTH* 1954, P.61 (18) -
- ID. Ibid, P.53 (19) -
- EUZENNAT (M), Fouilles Opérées à Banasa en 1955 –56, P.232 (20) -
- ID, l'Archéologie Marocaine de 1955 – 57, dans *BAM*,2, 1957 P.203 (21) -
- ID.,Ibid, p.204. (22) -
- ID.,Ibid. (23) -
- GIRARD S, Banasa preromaine,un etat de la question, dans *Ant.afr.*,t.20, Paris,1984, p.38-93. (24) -
- REBUFFAT-R-,Recherches sur le bassin du sebou , dans *C.R.A.I.*,1986, p.633-661. (25) -
- LENOIR-E-, Banasa :Un exemple de prospection geophysique , dans *l'Africa romana* ,15- 18dicembre,1994, p.1067-1072. (26) -

قراءة في أسباب وظروف اليقظة المورية في العهد الوندالي المتأخر.

محمد اللبار*

تمهيد:

شهد العهد الوندالي المتأخر في إفريقيا الشمالية عدة ثورات مورية عمست كل المنطقة على طول امتدادها الجغرافي ما بين الطرابلسية شرقا إلى موريطانيا الطنجية غربا. ثورات جاءت مساهمتها متميزة في إضعاف المملكة الوندالية طيلة عهد خلفاء جنسريق وتهيئتها للسقوط على يد البيزنطيين سنة 533م. ثورات جاءت بعد أن عاشت هذه المملكة عصر ازدهار اقتصادي واستقرار سياسي في عهد مؤسسها الملك جنسريق (429-477)، عصرًا كان فيه للموريين كذلك دور متميز.

ترمي هذه المداخلة إلى إبراز الأسباب العميقة لتحول الموقف الموري من المملكة الوندالية بعد وفاة جنسريق وتتبع ظروف هذا التحول من موقف المؤيد المساند إلى موقف المعارض النائر. هذه الأسباب والظروف التي رغم اختلافها وتعددتها تبقى متداخلة يصعب التمييز بينها لولا ما تقتضيه الضرورة المنهجية.

* - أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس.

طبيعة العلاقات الوندالية المورية في عهد جنسريق

عرفت المملكة الوندالية أوجها على عهد الملك جنسريق الذي كان له الدور الأكبر والفضل المتميز في نشأتها بإفريقيا، وتطورها في انسجام مع حلفائها الموريين هناك، وصمودها في وجه كل الحملات الرومانية البيزنطية. لم يدون المؤرخون القدامى أي هجوم أو ثورة مورية ضد الوندال طيلة عهد جنسريق ما بين سنتي 429 و 477 م. بل أكثر من ذلك سجل بروكوبيوس تلك الهيبة التي كان يشعر بها الموريون إزاء قوة هذا الملك (1)، كما أورد سيدوان أبولينير إشارة مفادها أن العديد من القبائل المورية كانت تهاب جنسريق وتحترمه بسبب رغد غناه وكثرة ثرواته الذهبية (2). هذه الثروات التي جمعها جنسريق من أطراف مختلفة من حوض البحر المتوسط بمساعدة هؤلاء الموريين أنفسهم، وقد أشركهم مع جنده في مختلف الحملات البحرية السنوية التي كان ينظمها منذ سنة 455م بعد وفاة الامبراطور فالنتينيانوس الثالث في كل ربيع ضد الأراضي الأمبراطورية (3)، حتى إذا عاد إلى قرطاجة منتصرا غانما أعطى لكل ذي حق نصيبه بسخاء (4). فكان فعله ذلك دليلا على أن الاحترام بينه وبين القبائل المورية كان احتراما متبادلا مبنيا على تبادل المصالح.

وإذا كان بعض الباحثين يرون في هذه الحملات مجرد نزعات قرصنة وندالية لا هم لها إلا العودة بالمغانم والأسرى (5)، فالراجح أنها كانت أسلوبا من أساليب دفاع جنسريق عن المكتسبات الوندالية بصفة عامة والإفريقية منها على الأقل بصفة خاصة، وأن الهدف منها هو إضعاف الإمبراطورية وجعلها دوما في وضعية الدفاع بمعنوية منهارة وصددها عن التفكير في اتخاذ المبادرة ضد المملكة الوندالية. بل أكثر من ذلك عملت هذه الحملات على توسيع رقعة المملكة الوندالية لتشمل في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط جزر البليار وسردينيا وكورسيكا منذ سنة 455م (6)، وجزيرة صقلية منذ سنة 468 (7). (أنظر الخريطة رقم 1).

هذا وقد ذكرت المصادر بعض الحملات الجنسريقية مؤكدة على مساهمة الموريين فيها، وخاصة منها حملته الشهيرة على روما سنة 455م (8) ، وحملاته ضد إيطاليا وصقلية وإيليريا والبيلوبونيز وبلاد اليونان والجزر المجاورة بعد سنة 455م (9). كما تطوع عرضا سيدوان أبولينير - وهو يتحدث عن حملة وندالية على سهل كمبانيا بوسط إيطاليا سنة 458م - ليصف لنا تكتيك الحملات البحرية الوندالية من جهة، وليبين نصيب مساهمة الموريين في إنجاحها من جهة أخرى. فقال ما معناه "إن السفن المهاجمة تكون مشحونة بالوندال والموريين، فإذا بلغت قصدها، نزل منها الموريون بخيلهم، وهاجموا على حين بغثة القرى والمدن، وأضرموا النيران في المنازل والأسواق، ونهبوا وسبوا في جو من الفوضى العارمة، مستغلين ما أصاب الضحايا من الخوف والهلع والفتنة. حتى إذا أثنوا قفلوا راجعين إلى المرفأ حيث يجدون الوندال في انتظارهم، فيشحنون غنائمهم وأسراهم قبل الإقلاع من جديد في اتجاه قصد جديد" (10).

هذا وقد احتفظ لنا التاريخ بأسماء العديد من القبائل المورية التي تبادلت مع جنسريق الاحترام والمصنحة. فهذا سيدوان أبولينير في إشارته السالفة الذكر عن القبائل المورية التي كانت تهاب جنسريق، يعطي المثال بثمان قبائل (11): الجيتوليون (12) ، والنوميديون (13) ، والكرامانتيون (14) ، والأوطولول (15) والأرزوجيون (16) ، والمرامدة (17) ، والبسيليون (18) ، والنسمونيون (19). وهي قبائل كانت مواطن جلها أذاك تقع خارج حدود مملكة جنسريق في أقصى اتساعها بإفريقيا بعد سنة 455م.

كما ذكر فكتور الكارطينيسي ملكا موريا، على صقع كابرا Capra، تعاقد مع الوندال على تزويدهم بفيلق عسكري قوامه ثلاثة آلاف موري، أرسلهم جنسريق إلى جزر البليار في مهمة حامية عسكرية مكلفة بحماية هذه الجزر وضبط الأمن بها وضمان استغلالها (20) ، وذلك بعد احتلالها مباشرة بعد وفاة فالنتينيانوس الثالث سنة 455م (21).

والراجح أن فكتور دي فيتا تحدث عن هذا الملك نفسه وهو "يستقبل" فوق تراب مملكته، التي نكرها بصيغة كابرأ بيكطا Capra- Picta، بعض الكاثوليك الذين أمر جنسريق بنفيهم من قرطاج، مما يفسح المجال للاعتقاد أن علاقات جد وطيدة وقوية كانت تربط بين المملكتين وبين العاهلين، علاقات لم يفت فكتور دي فيتا أن يشير إليها وإلى عمقها ومتانتها ضمناً بذكره اسم الملك الموري كابسور Capsur دون سائر أسماء الملوك الموريين الذين أشار إليهم في مؤلفه (22).

وفي محاولة لتوطين هذه المملكة، مملكة كابسور الموري، اجتهد كورتوا لترجيح مواطنها في أحواز مدينة قفصة التونسية (23)، اعتماداً على نظرية نراها هشة بقيامها على أساس التلاعب بالألفاظ القديمة والحديثة ورصد تطورها من صيغة إلى أخرى دون أي سند تاريخي علمي مقنع من جهة، وبكون هذه المنطقة بالذات كانت مبدئياً داخل التراب الوندالي من جهة أخرى.

والبديل الذي نراه أقرب إلى الصواب هو اعتبار مواطن هذه المملكة مطابقة لمواطن قبائل الكابريين Caprarienses (24) التي وطن الباحثون موقعها ما بين الأطلس الصحراوي (25) ومرتفعات الحضنة (26)، على مشارف حدود المملكة الوندالية. (انظر الخريطة رقم 2).

كما تحدث بروكوبيوس عن الحامية المورية التي كانت في سردينيا إبان حكم الوندال لها وعن صلابة وقوف هذه الحامية في وجه النفوذ البيزنطي فيما بعد (27). والراجح أن يكون جنسريق قد أقام بجزيرة كورسيكا حامية عسكرية مورية على غرار ما فعل في البليار وسردينيا (28)، بعد احتلال هذه الجزر كلها مباشرة إثر وفاة الإمبراطور فالنتينيانوس الثالث سنة 455م.

وهكذا تكون كل هذه الإشارات قد كشفت عن مدى عمق الصلات الرابطة بين جنسريق وبين هؤلاء الموريين الذين كانوا يشكلون فرقا عسكرية مساعدة ضمن بنية الجيش الوندالي آنذاك. كما أبرزت بعض أوجه مساهمة الموريين في

الدفاع عن مملكة جنسريق وفي توسيع هيمنتها على جزر البحر المتوسط، وتدعيم ركائزها كمملكة قوية قادرة على الصمود في وجه الرومان والبيزنطيين.

ومع كامل الأسف إن المصادر المكتوبة - التي وصلت إلينا - قد أهملت تفصيل الحديث عن الموريين المساندين لجنسريق من داخل الحدود الوندالية فتجاهلت أسماء قبائلهم أو ممالكهم ولم تعرف بشخصيات زعمائهم ولم تحدد مواطنهم، ولم تشر إلى مدى صلابه صلاتهم وعمق توصلهم مع الوندال. ولا يستثنى من ذلك إلا ما يمكن أن يذكر عن قبائل الباكواط في موريطانيا الطنجية (29) وعن الملك ماستيس Masties في مملكة الحضنة (30).

الأوضاع المورية بعد جنسريق

كانت وفاة الملك جنسريق في مطلع سنة 477م إيذانا ببداية عهد جديد في تاريخ المملكة الوندالية وتاريخ علاقاتها - على وجه الخصوص - بالموريين والبيزنطيين على حد سواء. إذ جاءت هذه الوفاة بعد ظروف كان جنسريق قد نجح خلالها في خلق جو من الثقة المتبادلة بينه وبين الموريين (31)، وبعد ظروف كان هذا الملك قد وقع خلالها معاهدتين سلميتين: واحدة مع القسطنطينية سنة 474م (32) وثانية مع روما في خريف سنة 476م (33). معاهدتان نصت بعض بنودهما، على الصلح والسلم الدائمين بين المملكة الوندالية من جهة وبين بلاط البيزنطيين وحكام روما الجدد من جهة ثانية، وعلى الاعتراف بجنسريق ملكا مستقلا على إفريقيا الشمالية من خليج سرت شرقا إلى المضيق غربا وعلى جزيرتي كورسيكا وسردينيا وأرخبيل البليار، كما نصت على عدم اللجوء إلى استعمال الأسلحة لحل المشاكل الطارئة (34). (أنظر الخريطة رقم 3). وهما المعاهدتان اللتان بموجبهما توقفت الغارات والحملات السنوية الوندالية ضد الممتلكات البيزنطية وأراضي روما في عموم حوض البحر الأبيض المتوسط. تلك الحملات التي كانت تتشاطها منذ سنة 455م المساهمة المورية الفعالة والتميزة من جهة، والتي كانت من جهة ثانية، تدر على خزينة جنسريق موارد كانت تدعم كيان المملكة الوندالية آنذاك

اقتصاديا وعسكريا، وتجعل العديد من القبائل المورية – من داخل المملكة الوندالية وخارجها، والتي كانت تأخذ نصيبها من تلك الموارد – تهاب هذا الملك وتحترمه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك (35).

هذا والراجح أن توقف هذه الحملات بعد وفاة جنسريق – وبموجب هاتين المعاهدتين – كان له الوقع السيء على موارد الخزينة الوندالية من جهة، وعلى موقف هذه القبائل المورية من المملكة الوندالية من جهة ثانية. وهكذا وبخصوص انخفاض موارد الخزينة الوندالية، تحدث مالكوس عرضا عن العجز الذي أصبحت تعانيه هذه الخزينة بعد وفاة جنسريق، والذي لم يعد يسمح لها بتغطية نفقات الجيش والبحرية من جهة (36)، وتغطية نفقات الهدايا والعطايا للملوك والأمراء الموريين من جهة ثانية (37): مما سينعكس سلبا على قوة الملوك الوندال وعلى سياستهم إزاء أعدائهم بصفة عامة.

كما وجدت هذه القبائل المورية نفسها بعد سنة 477م – وقد انقطعت عنها الحملات وغنائمها – في وضعية مادية مزرية لم يألفها زعمائها وأتباعهم طيلة عهد جنسريق ولم يتحملوها بسهولة في عهد خلفائه. فكان ذلك بدون شك من أسباب تفكك صلات المصلحة والاحترام التي كانت تربط بين هؤلاء الزعماء الموريين وبين الملوك الوندال ومن أسباب تبرم الموريين بصفة عامة عن الانقياد والطاعة لهؤلاء الملوك. (أنظر شجرة الملوك الوندال).

بل أكثر من ذلك وجد الموريون أنفسهم في وضعية عسكرية تسمح لهم بمقاومة الوندال والصمود في وجههم. ذلك أن مساهمة الموريين مع جنسريق في مختلف حملاته في حوض البحر الأبيض المتوسط ألهمت فيهم من جديد الجرأة في مواجهة الأعداء، وعلمتهم الكثير من الفنون العسكرية بصفة عامة. كما أحييت فيهم تلك الروح القتالية ودربتهم من جديد أحسن تدريب على حسن استغلال فنون الفروسية وخطط الكر والفر بصفة خاصة. تلك الروح وتلك الفنون وتلك الخطط التي وصفها بإعجاب بعض المؤرخين الأقدمين (38).

كما سهلت تلك المساهمة على زعماء هذه القبائل المورية عملية تجنيد العديد من الفرق والفيالق العسكرية، مثلما كان الحال أيام جنسريق (39) ، وجعلت هؤلاء الزعماء يتبهنون من جديد لتلك الخصال المتميزة التي يتمتع بها المقاتل الموري، من بنية بدنية قوية، ومن قدرة فائقة على سرعة الحركة والمناورة، ومن صلابة على تحمل مشاق المهام الحربية، كما سبق وأن أشار إلى ذلك كذلك العديد من المؤرخين الأقدمين (40).

التفاسر الوندالي في عهد خلفاء جنسريق

وجد الملوك الوندال – بعد جنسريق – أنفسهم أمام حركة مورية يقظة سيغتم قانتها وزعماؤها كل فرصة سانحة لزعة ذلك الاستقرار الوندالي الذي ساد طيلة عهد جنسريق. علما أن هؤلاء الملوك لم يكونوا في مستوى سلفهم فضيعوا هيبة الملك بضعفهم، واستغرقوا في متارف البلاط باستهتارهم، مثبتين عجزهم عن إخماد ثورات الموريين وحركاتهم من جهة، وعن تسيير شؤون مملكتهم من جهة ثانية. فبليت بسيرتهم هذه مملكتهم، وانقرضت فيها فاعلية الاندفاع وجرأة التوسع، وأصبحت غايتهم الوحيدة هي المحافظة قدر الإمكان على ما ورثوه عن جنسريق ولا هم لهم إلا الدفاع عن هذا الميراث: فتبين بذلك أن شخص الملك عند الوندال – باعتباره أساس الحكم والسلطة بينهم – كان هو المحور الذي تقوم عليه المملكة، فقوتها من قوته، وضعفها من ضعفه.

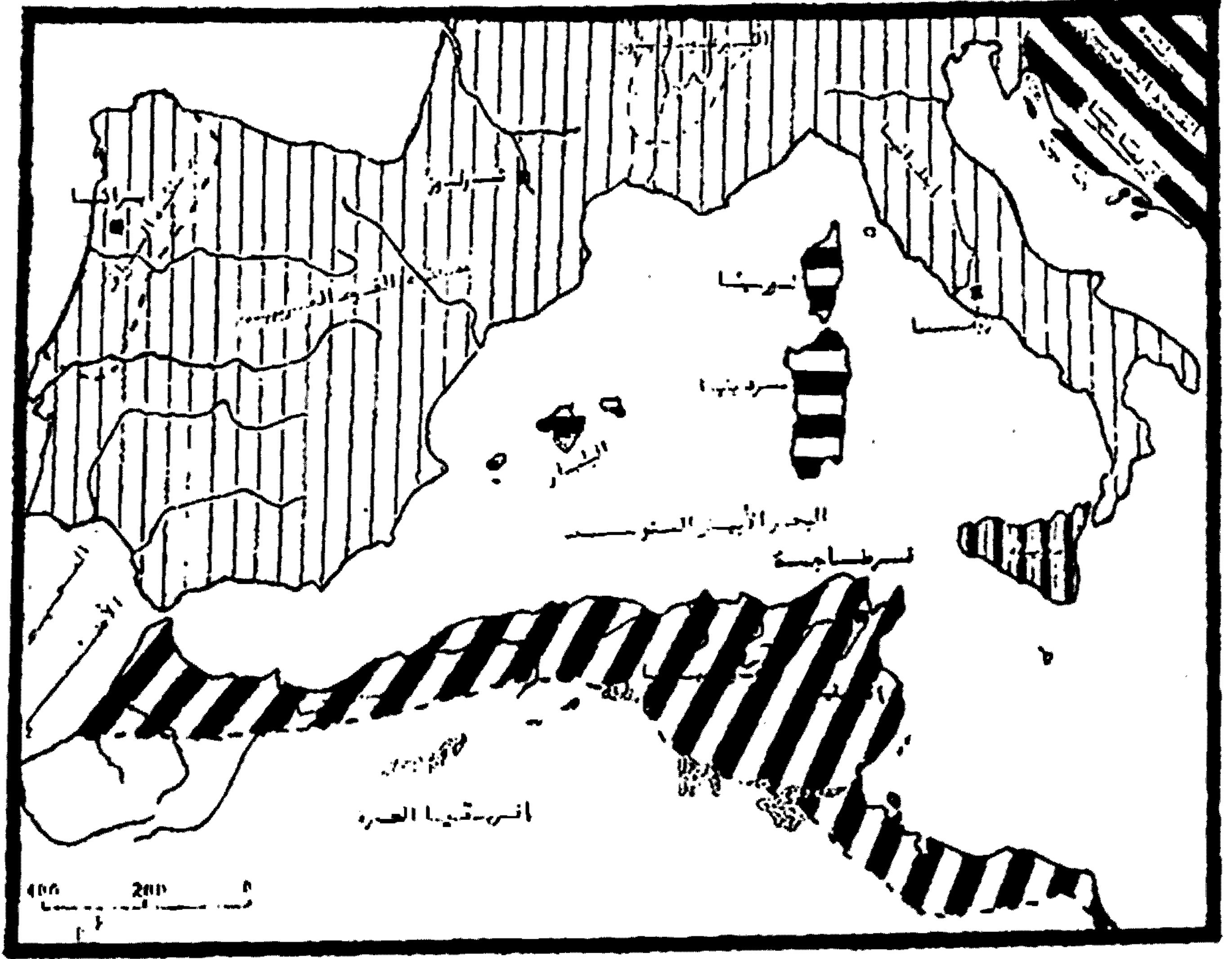
انفرد المؤرخ بروكوبيوس بالحديث المباشر عن بعض أسباب هذا الضعف الذي أصاب الوندال وملوكهم بعد جنسريق، وأشار إلى ما كان يتمتع به هؤلاء من الحمامات اليومية والموائد الشهية، وما كانوا يتزينون به من الملابس الحريرية والحلي الذهبية. كما أشار إلى سكناهم في المغاني المخضرة، وإلى ملاحيتهم التافهة في الفرجة والمسرح والسرك والصيد ومجالس الطرب والمجون (41). تلك الملاحية التافهة والمجالس الماجنة التي أخذت من الملوك – مع عناد بعضهم في اضطهاد

الكاثوليك(42) – كامل وقتهم، وشغلتهم عن جسام مهامهم، حتى أصاب مملكتهم من الانحلال والضعف ما سوف يزداد مع الأيام حدة وخطورة(43).






خاتمة:

بطبيعة الحال كانت كل هذه الأسباب والظروف حوافز شجعت الموريين على حمل السلاح طيلة العهد الوندالي المتأخر معبرين بذلك عن رفضهم لما آلت إليه أوضاعهم، من تحالف طوعي يراعي مصالح الطرفين الموري والوندالي في عهد جنسريق إلى سيطرة بالإكراه والقسر سلطها عليهم خلفاء جنسريق دون مراعاة المصالح الحيوية لهؤلاء الموريين. فنتج عن ذلك الخلل في طبيعة العلاقات بين الموريين والملوك الوندال ثورات مورية عمت منذ سنة 484م جبال الأوراس(44) ، وموريطانيا الطنجية(45) ، ومملكتي الحضنة(46) والتابا(47) ، وولايتي الطرابلسية(48) وبيزاكيا(49) ، ثورات استمرت في مقاومتها للوندال إلى أن نزل البيزنطيون في إفريقيا سنة 533م.

الخريطة رقم 13: المملكة الوندالية عند وفاة جنسريق في مطلع سنة 477م.



بيانات

- 
 المملكة الوندالية وخلفائها المربريون سنة 455 م.
- 
 مناطق توسع فيها الوندال ما بين سنة 455 و 477 م.
- 
 منطقة تنازل عنها الوندال للملك أوداكر مقابل جزيرة سنهوسة.
- 
 خلفاء الإمبراطورية البيزنطية.
- 
 الإمبراطورية الرومانية وخلفاؤها.

الموامش :

- (1) - Procopius, Bellum Vandalorum, I, VIII, 1-2, éd. Dewing, London, New York, 1916, p: 72.
- (2) - Sidoine Appollinaire, Carmen, V, 336-337, M.G.H.A.A., T. VIII, Berlin, 1888, pp: 195-196.
- (3) - Procopius, B.V., I, V, 22-25, éd. Dewing, p: 52.
- (4) - Victor de Vita, Historia Persecutionis Vandalicae, I, 25, M.G.H.A.A., T. III, 1, Berlin, 1879, p: 7.
- (5) - Schmidt, Ludwig, Histoire des Vandales, Tr. Fr., Payot, Paris, 1953, p: 84.
- Courtois, Chr, Les Vandales et L'Afrique, Paris, 1955, p: 196.
- Musset, Lucien, Les invasions, T. I, Les vagues germaniques, Nouvelle Clio, P.U.F., 2^{ème} ed., Paris, 1969, pp: 104 -105.
- (6) - Victor de Vita, H.P.V., I, 13, M.G.H.A.A., T. III, 1, p: 4.
- Stein, Histoire du Bas- empire, T. I, Paris, 1959, p: 379.
- (7) - Courtois, V.A., op. cit., p: 192.
- (8) - Victor de Vita, H.P.V., I, 25, M.G.H.A.A., T. III, 1, p: 7.
- (9) - Procopius, B.V., I; V, 22-25, éd. Dewing, p: 52.
- (10) - Sidoine Apollinaire, Carmen, V, 336-337, M.G.H.A.A., T. VIII, pp: 195-196.
- (11) - IDEM, Ibid.

انظر الخريطة رقم 2.

(12) - الجيتوليون Geatuli كانوا يعيشون في الهضاب العليا والأصقاع الصحراوية جنوب موريطانيا ونوميديا وبيزاكيا. Cagnat, R. L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, Paris, 2^e éd., 1913, p: 2.

من قبائل شرق موريطانيا وغرب نوميديا على الضفاف الشمالية لسط الحضنة. انظر: Numidae⁽¹³⁾ - النوميديون Desanges, J., Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'Ouest du Nil, Dakar, 1962, p: 66.

Garama كانوا عدة فروع أهمها الفرع الذي كان يقطن بفزان وكانت مدينة جرمة Garamantes⁽¹⁴⁾ - الكرامنتيون Desanges, Catalogue, op. cit., p: 93.

قبائل كانت تعيش إلى الجنوب من ليمس موريطانيا الطنجية على سواحل المحيط انظر: Autololes⁽¹⁵⁾ - الأوطولول IDEM, Ibid, pp: 208-211.

قبائل كانت تعيش ما بين بيزاكيا والطرابلسية انظر: Arzuges⁽¹⁶⁾ - الارزوجيون IDEM, Ibid, pp: 78-80

قبائل كانت تعيش ما بين مصر وبرقة على سواحل البحر المتوسط انظر: Marmaridae⁽¹⁷⁾ - المرادمة IDEM, Ibid, p: 164.

قبائل كانت تعيش على سواحل خليج سرت الكبرى. انظر: Psylli, Psullis⁽¹⁸⁾ - البسيليون IDEM, Ibid, pp: 155-156.

كانت مواطنهم في غرب برقة إلى الشرق من موطن البسيليين. انظر: Nasamones⁽¹⁹⁾ - النسمونيون IDEM, Ibid, pp: 152-153.

(20) - Victor Cartennensis, d'après Marcus, Histoire des Wandales., Paris, 1836, p: 221, n° 123.

(21) - Victor de Vita, H.P.V., I, 13, M.G.H.A.A., T. III, 1, p: 4.

(22) - IDEM, H.P.V., I, 35-38, Ibid, pp: 9-10.

(23) - Courtois, Victor de Vita et son Oeuvre, Etude Critique, Alger, 1954, p: 38.

(24) - Desanges, Catalogue, op. cit., pp: 49-50 et Carte p: 263.

- Capra en Latin veut dire chèvre:

معزة.

- Capra-Picta en Latin veut dire chèvre peinte:

صورة معزة.

- Capraru en Latin veut dire les chèvres:

أصحاب المعز.

- Caprarienses en Latin veut dire « de chèvre »: مربو المعز، المعزيون.
- (25) - Gsell. Observation sur la révolte de Firmus. R.S.A.C.. T. XXXVI. 1903. pp: 39-40
- (26) - Courtois. V.A.. op. cit., p: 120.
- (27) - Procopius. B.V.. II. XIII. 41-45. éd. Dewing. pp: 324-326.
- (28) - اللبار، محمد، إفريقيا الوندالية بين الحملات البيزنطية والثورات المورية 429-534م، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ القديم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس، 1998 (مرفوعة) ص: 123.
- (29) - Procopius. B.V.. II. X. 29. éd. Dewing. p: 290.
- اللبار، مرجع سابق، ص: 211-213.
- (30) - Victor de Vita. H.P.V.. II. 26-37. M.G.H.A.A. T. III. I. pp: 19-21.
- اللبار، مرجع سابق، ص 189-209. Chronica. a. 479/1. M.G.H.A.A. T. XI. p: 189-209.
- (31) - انظر المبحث السابق: طبيعة العلاقات الوندالية المورية في عهد جنسريق.
- (32) - Procopius. B.V.. I. VII. 26. éd. Dewing. p: 70.
- (33) - Victor de Vita. H.P.V.. I. 14. M.G.H.A.A. T. III. I. p: 4.
- (34) - اللبار، مرجع سابق، ص 166-172.
- (35) - انظر المبحث السابق: طبيعة العلاقات الوندالية المورية في عهد جنسريق.
- (36) - Malchos. Fr. 12. F.H.G.. T. IV. 1883. pp: 120-121. d'après Marcus. H.W.. op. cit., p: 206.
- Leclercq. L'Afr. Chr. T. II. 2è éd. Paris. 1904. pp: 175-176. / Courtois. V.A.. op. cit., p: 204.
- (37) - Procopius. B.V.. I. XXV. 5-7. éd. Dewing. p: 200-202.
- (38) - Strabon. XVII. 3. 7. d'après Raymond Roget. Le Maroc chez les auteurs anciens. Paris. 1924. p: 25.
- Amniansus Marcellinus. XXIX. 5. Tr. Fr. Moreau. R.H.C.M.. T. X. 1973. pp: 21-35.
- (39) - انظر المبحث السابق: طبيعة العلاقات الوندالية المورية في عهد جنسريق.
- (40) - سالوست، حرب يوغورطة، 17، ترجمة الدكتور محمد التازي سعود، فاس، 1981، ص: 106.
- Strabon. XVII. 3. 7. d'après Raymond Roget. le Maroc. op. cit., p: 25.
- Procopius. B.V.. I. VIII. 15-29. éd. Dewing. pp: 76-82.
- (41) - Procopius. B.V.. II. VI. 5-9. éd. Dewing. p: 256.
- (42) - سنك الملوك الوندال منذ عهد جنسريق سياسة دينية متميزة إزاء الرعايا الكاثوليك في إفريقيا الوندالية، على اعتبار أن الوندال كانوا أريوسيين في مذهبهم وأن رجال ادني الكاثوليك هناك بالخصوص كانوا يشكلون رأس المعارضة السياسية محليا. أنظر: اللبار، مرجع سابق، ص: 177-202.
- (43) - Procopius. B.V.. I. XXIII. 19-21. éd. Dewing. p: 194.
- (44) - اللبار، مرجع سابق ص: 204-208.
- (45) - Procopius. B.V.. II. X. 29. éd. Dewing. p: 290.
- اللبار، مرجع السابق ص: 211-213.
- (46) - Victor de Vita. H.P.V.. II. 26-37. M.G.H.A.A. T. III. I. pp: 19-21.
- اللبار، مرجع السابق، ص 189. Chronica. a. 479/1. M.G.H.A.A. T. XI. p: 189.
- ص 209-211
- (47) - المرجع السابق، ص: 213-215.
- (48) - Procopius. B.V.. I. VIII. 15-29. éd. Dewing. pp: 76-82. المرجع السابق ص: 215-223.
- (49) - Procopius. B.V.. I. IX. 2-3. éd. Dewing. p: 82.
- Corippus. Johannide. Chant III. Tr. Fr. de Jean Alix. Revue Tunisienne 1899. pp: 454-459. المرجع السابق، ص 223-229.

مساهمة في دراسة حالة السكان القدامى للمغرب خلال المرحلة الفينيقية - دفناء مقابر ناحية طنجة نموذجا -

محمد رضوان العزيفي

منذ دراسة "ستيفان كسيل" (S. Gsell) للتاريخ القديم لشمال إفريقيا (1) وجل الباحثين (2) يرون بأن أرض المغرب انتقلت نتيجة "عملية الاستيطان الفينيقي" من العصر النيوليتي إلى عصر الحديد، دون أن تعرف استعمال النحاس وتعدين البرونز كسائر الجيران المتوسطيين (3). وفي هذا الاتجاه، واعتقادا منهم بانعدام وجود حضارة برونزية في شمال إفريقيا على غرار ما وجد في أوروبا، بادر هؤلاء الباحثون إلى اعتبار أن الفينيقيين وجدوا عند قدومهم إلى سواحل المنطقة شعوبا متخلفة ما تزال تعيش في أحضان عصور ما قبل التاريخ (4). فخلال المؤتمر الإفريقي الثاني لعصور ما قبل التاريخ المنعقد بالجزائر عام 1952 صرح "انطوان" (Antoine)، ومعه العديد من المتدخلين في هذا اللقاء، بأن القرطاجيين لم يجدوا في أرض المغرب سوى سكانا نيوليتيين يعيشون >> في مفارقة تامة مع العالم المتوسطي القريب منهم... وبأن البونيقيين ثم الرومان أخذوا

* أستاذ باحث بكلية الآداب - سايس / فاس.

مكان هؤلاء النيوليتيين» (5). كما اعتبر "ارمان لوكي" (A. Luquet)، إثر الاستكشافات التي قام بها عن الآثار البونيقية في المغرب، >> أن سكان الساحل الاطلنطي الذين لقيهم البونيقيون كانوا في مرحلة متخلفة» (6). بل نعت "جـيـروم كاركوبيـنو" (J. Carcopino) في كتابه "المغرب القديم" سكان العالم المحلي المجاور لليكسوس بأنهم >> شبه متوحشين» (7). ويخلص "بيير سانتاس" (P. Cintas) إلى الاستنتاجات نفسها خلال استباراته الأركيولوجية التي قام بها في ناحية وهران بالجزائر مصرحا بأن >> الآسيويين (8) لم يجدوا خلال زيارتهم الأولى لسواحل أفريقيا الشمالية سوى أناسا متخلفين محافظين لمدة طويلة على عاداتهم المتوارثة بالرغم من التأثيرات المهمة التي جاء بها هؤلاء الزوار الجدد» (9).

فهل بهذه الصورة كانت حالة السكان القدامى للمغرب عند اتصالهم بالفينيقيين باعتبارهم أول شعب متحضر يلج سواحلنا؟ إنه التساؤل الذي سنحاول الإجابة عنه في هذه المقالة.

وقبل ذلك ينبغي الإشارة إلى أن المنطقة الوحيدة التي احتفظت لنا في المغرب كله بآثار أركيولوجية واضحة حول اتصال الشعبين الفينيقي والمحلي مثلها ناحية طنجة، مما جعلني أعتمد عليها بالدرجة الأولى في هذه الدراسة. فقد انفرد إقليم فحص طنجة باحتوائه على مجموعة من المدافن تؤرخ بمرحلة تمتد من بداية القرن السابع قبل الميلاد، إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد. هذه المدافن تضم من جهة قبورا فينيقية محضة، ومن جهة ثانية تضم أعدادا كبيرة من القبور المحلية التي كانت تجاورها. بفضل مئاوي الاموات هذه، وبفضل المحتويات الكثيرة المكتشفة داخلها من حلي وأوان خزفية وغيرها من المواد الأثرية، كشفت لنا منطقة طنجة عن نموذج فريد من نوعه حول توافد الفينيقيين إلى المغرب، وحول حالة السكان الذين اتصلوا بهم، وحول نوعية العلاقات التي جمعت بينهما (10).

ماذا تمثل هذه المدافن من الناحية الأركيولوجية والتاريخية؟ كيف مكنتنا دراستها ودراسة محتوياتها من التعرف على حالة سكان المنطقة عند اتصالهم

بالفينيقيين ؟ هل يمكن تطبيق هذه الحالة على جميع السكان القدامى للمغرب خلال نفس المرحلة التاريخية ؟ إنها الأسئلة التي تفرض نفسها لأول وهلة عند معالجة هذا الموضوع.

إن أول ملاحظة تلفت نظرنا عند معاينتنا لخريطة توزيع هذه المدافن(11)، أن منطقة طنجة عرفت ما لا يقل عن أربعة عشرة مقبرة. وكل مقبرة كانت تضم عددا كبيرا من القبور تراوح ما بين قبرين اثنين ومائة وسبعة قبور، إلى جانب بعض الأضرحة المبنية(12)؛ وبذلك بلغ المجموع العام لقبور هذه المدافن حوالي 459 قبر.

وإذا استثنينا قبر "رأس أشقار" الواضح المعالم الفينيقية، واستثنينا ضريح "المغوعة الصغيرة" ومقبرة "مرشان" اللذين يكتنفهما الغموض في شأن هويتيهما الفينيقية، فإن المدافن الأحدى عشر المتبقية، التي تضم في مجموعها حوالي 343 قبر، لا علاقة لها بالقبور الفينيقية من حيث طريقة البناء. فمدافن "جبيلة" و "عين العسل" و "سيدي مصمودة" وغيرها من المدافن، لم تكن على غرار النماذج "الفينيقية المبنية" (Tombeaux bâttis) أو "المحفورة" جانبيا في التراب، أو "القبور على شكل آبار" (Tombes à puits)(13).

مدافن ناحية طنجة، التي اكتشفها عالم الآثار الفرنسي "ميشيل بونسيك" (M. Ponsich)(14) عام 1965، كانت عبارة عن حفر صغيرة على شكل صناديق شبيهة بقبور "الدولمن" التي وجدت في المنطقة خلال العصر الميكاليتي(15). وقد تميزت هذه الصناديق بصغر حجمها، إذ لم يكن يتعدى طولها في الغالب مترا وعشرين سنتيمترا، ولا يتجاوز عرضها نصف متر. هذه الأحجام فرضتها طقوس الدفن المتبعة، حيث كانت الجثث تدفن بوضعية مرفوعة أو مثنية على الطريقة الجنينية. وهي وضعية غريبة عن الطقوس الجنائزية للفينيقيين الذين كانوا يدفنون موتاهم مستقلين على ظهورهم مع وضع أيديهم فوق بطونهم(16).

من خلال تقنية هذه المدافن، ومن خلال الطقوس الجنائزية المستعملة، يبدو جليا أن هذه المنشآت لم تكن فينيقية الأصل(17)، بل منشآت شيدها محليون المنطقة الذين

اتصلوا بالفينيقيين عن طريق التجارة، كما تؤكد ذلك الأعداد الهائلة من المواد الفينيقية المكتشفة داخلها (18). ولم تكن هذه المدافن فريدة من نوعها في شمال إفريقيا (19)، إلا أنها كانت الوحيدة من نوعها في المغرب (20)، ممثلة بذلك النموذج الذي يمكن الاعتماد عليه لحد الآن لأخذ فكرة حول الحالة الحضارية للسكان القدامى للمغرب عند اتصالهم بالفينيقيين.

ومما يركي الأصل المحلي لهذه المدافن أنها اكتشفت في نفس النقط التي عرفت تجمعات سكانية سابقة للعصر الفينيقي، التي كانت قد استقرت في المنطقة منذ عصور ما قبل التاريخ. فقد استقر الإنسان القديم في فحص طنجة منذ العصر الباليوليتي بالقرب من رأس أشقار داخل بعض المغارات (21) وخلال العصر النيوليتي نجد آثارا بشرية داخل الكهوف نفسها، مع ملاحظة ظهور لأول مرة مراكز سطحية تنتشر في كل ناحية طنجة. وهذا يدل على أن سكان المنطقة، الذين كانوا يزاولون نشاط القنص، بدأوا يتوغلون داخل الأراضي لمراقبة قنصتهم على ضفاف البحيرات (22). إلا أنهم لم يصبحوا بعد مستقرين، لأن مساكنهم كانت عبارة عن ملاجئ تحت الصخور. لكنهم، بتقلهم هذا، بدعوا يرسمون أولى شبكات المواصلات التي عرفتها ناحية طنجة.

وبعد عصر الحجارة المصقولة ستعرف المنطقة عصر المعادن، حيث ستظهر أولى القبور الميكاليتية التي زويتنا ببعض الخناجر البرونزية، كمقبرة المريس ومقبرة المرس، اللتين أكتنا على وجود عصر البرونز في المغرب (23)، الذي ظهر بشكل واضح في ناحية طنجة.

وتشاء الصدفة أن تتبع هذه المدافن المنتشرة هنا وهناك نفس الطرق المرسومة خلال العصر النيوليتي التي كانت مجاورة لضفاف البحيرات. وهذا يدل على أن سكان المنطقة أصبحوا يهتمون بداخل الأراضي، حيث تجمعوا فيها على شكل دواوير، وزاولوا نشاط الصيد والقنص، وربما الفلاحة وتربية الماشية.

وعند حلول العصر الفينيقي وجدنا قبورا جديدة تم تشييدها في نفس نقط المدافن الميكاليتية(24). وهذا ما لاحظته "بونسيك" في مقبرة عين دالية مثلا، التي لم تكن تبعد عن المقبرة الميكاليتية التي عثر عليها "بوشي" (Buchet) إلا بحوالي مائتي متر(25). وهذا يدل على أن هذه المدافن تمثل بقايا تجمعات سكانية محلية كانت موجودة في المنطقة منذ أقدم العصور. هذه التجمعات يمكن أن نستشفها من خلال تأويلات بعض النصوص القديمة، حيث يمكن اعتبار أن مقبرة جبيلة هي تجمع مدينة (Gutté) المذكورة في نص رحلة حنون(26)، ومقبرة عين دالية هي مدينة (Pontion) التي أشار إليها الرحالة الاغريقي "سكيلاكس" (Scylax)(27)، ومقبرتي عين العسل ومصمودة وغيرهما هي المراكز التي زارها حنون عند اتجاهه شرقا بعد اجتياز رأس اسبارتيل.

كيف كانت الوضعية الحضارية لسكان هذه التجمعات التي زارها الفينيقيون ؟ هذا ما سنتعرض له فيما يلي :

وقبل توضيح ذلك لابد من التنكير أن جل المؤلفين المحدثين كانوا يعتبرون أن الفينيقيين وجدوا عند قنومهم إلى السواحل المغربية شعوبا متخلفة تعيش في عصر ما قبل التاريخ. ومن هذا المنطلق، لما حاول "سانتاس" (Cintas) أن يحيط بناحية طنجة في "موجزه حول الاركيولوجيا البونيقية"، فإنه ركز بشكل مبالغ على قضية استمرارية العادات ما قبل - التاريخية خلال العصر الفينيقي. فاعتبر مثلا(28) أن جل الاواني الخزفية التي عرفتھا المنطقة كانت من الأنواع المقولبة(29) ذات التأثير النيوليتي.

وبالطبع، نحن لا ننكر حفاظ سكان هذه المنطقة على تقاليدهم القديمة، لكن ليس بالشكل الذي يراه "سانتاس" أو غيره من المهتمين بالموضوع. ولتأكيد ذلك يكفي أن ننكر أن مقابر عين دالية وجبيلة ودار زهيرو وغيرها، لم تخلف سوى نمونجا واحدا من الاخزاف المقولبة من ستين آنية محلية كانت كلها مخروطة(30). في حين كانت الاواني الاخرى إما مستوردة من البحر المتوسط الشرقي، أو مقلدة لنماذج

فينيقية محضة. وهذا يدل على أن منطقة فحّص طنجة كانت عند اتصالها بالفينيقيين (31) في مرحلة استغنائها عن المؤثرات النيوليتية، وبالتالي لا يمكن اعتبارها اعتمادا على أصحاب الآراء السالفة الذكر، كواحدة من جهات شمال إفريقيا ما قبل التاريخية.

ولفهم هذا التصور، ينبغي أن نومن بأن المغرب قد عرف المرحلة الانتقالية من عصر الحجارة إلى عصر المعادن بعد التأكيد على وجود عصر البرونز به. فمنذ أن أثبت "اندري جودان" (A. Jodin) في عام 1956 وجود عصر البرونز بالمغرب (32)، لا ينبغي أن نبقى على النظرية القائلة بوجود عهد نيوليتي متأخر معاصر للمرحلة الفينيقية. إن الخزف المقولب الذي وجدته الفينيقيون بأعداد قليلة جدا في كل المناطق التي استقروا بها أو اتجروا معها، سواء في فحّص طنجة كما رأينا أو في ليكسوس (33) أو في جزيرة الصويرة (34) أو في مركز سيدي عبد السلام (35)، يدل على أنه كان يمثل آخر المنتوجات المحلية ذات الجنور النيوليتية، والتي كانت في طور الانقراض. هذه هي الوضعية الحقيقية التي كان عليها المغرب أو بعض جهاته قبل مجيء الفينيقيين، والتي بدون فهمها لا يمكن أن نلم بالحالة الخاصة التي عرفتتها منطقة طنجة. ومما لا شك فيه أن هذه المنطقة مثلت أولى الجهات بالمغرب القديم التي خرجت من عصور ما قبل التاريخ، ودخلت مرحلة ما قبل - التاريخ، ربما بدون تدخل الفينيقيين. وعندما قدم هؤلاء التجار الساميون (36) إلى المغرب بموجات كثيفة ابتداء من أوائل القرن السابع قبل الميلاد، أو ربما قبل ذلك (37) إما للاستقرار في مراكز فينيقية قديمة، أو لتأسيس محطات تجارية جديدة، أو فقط للقيام بالمقايضة مع الأهالي، فإنهم وجدوا في ناحية طنجة سكانا أقل تطورا منهم بالطبع (38)، لكنهم كانوا قادرين على الدخول في علاقات مع الأجانب، ومهينين لممارسة التجارة (39). وجدوا مجموعة بشرية مسالمة ومثابرة متجمعة في نفس النقط التي كانت موجودة فيما قبل حيث كانت مرتبطة بأرضها لكنها كانت منفتحة على كل ما يأتيها من البحر.

هذه التجمعات عرفناها فقط من خلال مدافنها ؛ وطريقة بناء القبور تدل على أن السكان كانوا يتوفرون على مبادئ تقنية البناء، إذ كانوا يعرفون طريقة نحت البلاطات لتغطية ثوابتهم(40). غير أن ذلك لايعني أنهم كانوا على علم تام بتقنية البناء التي كانت معروفة في العديد من بلدان البحر الأبيض المتوسط الشرقي. فهل نستطيع من خلال دراسة هذه المدافن ومحتوياتها أن نتعرف أكثر على الحالة الاقتصادية والاجتماعية للسكان ؟ وهي الحالة التي لفتت بدون شك نظر الفينيقيين، لدرجة جعلتهم يعتبرون سكان ناحية طنجة أهم زبون لهم على طول السواحل المغربية.

مما لا شك فيه أن أهم شيء يثير انتباهنا عندما نتمعن في خريطة توزيع هذه المدافن(41) ، هو اختيار مكان تجمع السكان، الذي أملتة بدون شك الطبيعة السخية للأرض الغنية بالمياه العذبة والمساعدة على الفلاحة. كما كان لاختيار تمركز هذه التجمعات في منطقة غير بعيدة عن البحيرات المجاورة وعن البحر القريب، دورا فعالا في إمداد السكان بالصيد وبالأسماك(42) . إلا أن الاهتمام الاقتصادي الجديد لهذه المجموعات الموجه أكثر نحو الحياة الفلاحية، جعلهم يبتعدون بعض الشيء عن ضفاف البحيرات التي ارتبطوا بها سابقا، لأن القنص لم يعد يمثل النشاط الرئيسي في حياتهم الاقتصادية. لذا نلاحظ أن اختيار مكان تجمعهم أصبح يهتم مستويات طوبوغرافية أكثر ارتفاعا لتشييد مقابرهم، ومما لا شك فيه لتشييد مساكنهم أيضا(43). وهي الوضعية التي وجدت عليها مثلا مقبرتا عين دالية ودار زهرو المشيدتان فوق تلال كتلة جبل ظهر زهرو، والقريبتان من بحيرة تهدارت ومن الأراضي الفلاحية المجاورة لها. كما كانت مقبرة جبيلة - بالرغم من قربها من ساحل المحيط الاطلنطي - داخل أراض فلاحية، وفوق تل مرتفع بعض الشيء من بحيرة بوخالف القريبة من المقبرة.

والجدير بالملاحظة أيضا في هذا الموضوع أن هذه التجمعات لم تكن تعيش في عزلة تامة عن بعضها البعض، بل أصبحت الطرق التي تجمع بينها أكثر عددا مما

كانت عليه خلال المرحلة السابقة(44). ولعل أن استخدام الأدوات الفلاحية واستعمال وسائل الزراعة كما سنرى، يمكن السكان من الانتشار عبر الاقليم. فتمت تقوية طرق المواصلات التي كان أهم محور لها ينطلق من منطقة رأس أشقار - باعتبارها أقدم منطقة تجمع فيها السكان - ويمر عبر مقبرة جبيلة شرقا، ثم يحيط بكتلة ظهر زهيرو. وبذلك يمر هذا المحور الطرقي عبر القرى التي كانت موجودة في عين العسل وسيدي مصمودة وعين دالية ودار زهيرو وغيرها(45).

فما هي أهمية الفلاحة بالنسبة لسكان منطقة طنجة ؟

لا مجال للشك في كون الفينيقيين وجدوا في أقصى شمال غرب المغرب منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد على أقل تقدير، سكانا يعرفون حياة الاستقرار ويعيشون من منتوجات أرضهم(46). وقد تأكد ذلك أركيولوجيا عند اكتشاف بعض المواد الفلاحية المكلسة داخل العديد من المقابر، وعند العثور على مجموعة من الأدوات التي تستلزمها عملية الزراعة.

بفضل ذلك استطعنا أن نعلم مثلا أن سكان ناحية طنجة كانوا ينتجون القمح، الذي تم اكتشافه مكلسا في قبر رقم 30 (47) و 39 (48) بمقبرة عين دالية، وقبر رقم 64 (49) و 78 (50) بمقبرة جبيلة. كما أنتجوا الفول والزيتون، اللذين تم العثور عليهما مكلسين في قبر رقم 6 بمقبرة دار زهيرو(51)؛ علاوة على الجلبان الذي وجد مكلسا كذلك في قبر رقم 76 بمقبرة جبيلة(52). وقد اكتشفت هذه المواد إما مشتتة داخل القبر أو مجتمعة في قعر بعض الاواني الفخارية.

إن العثور على هذه الانواع من المنتوجات الفلاحية يدل على أن السكان المحليين لم يكونوا يجهلون الفلاحة، أو أنهم كانوا يزاولون فقط نشاط الرعي وتربية الماشية، كما ورد عند المؤرخ الاغريقي "بوليبوس" (Polybe) في وصفه لحالة سكان شمال افريقيا خلال القرن الثاني قبل الميلاد(53). بل أكدت هذه المكتشفات أن سكان المغرب القديم أو بعضهم كانوا يقومون بزراعة أرضهم إلى جانب تربية الماشية، حيث كانوا يستهلكون بعض الأطعمة الأساسية التي أنتجتها المجتمعات

الفلاحية الاولى كالخبز (54) ، علاوة على تناولهم لقطان مغذية كالجلبان والبول. كما يلمح العثور على حبات الزيتون المتكلس، إلى امكانية استخدام سكان ناحية طنجة لتقنية عصر الزيت منذ تلك العهود. ولا ينبغي أن نستغرب من ذلك، لأن المنطقة عرفت صيتا كبيرا في هذه المادة خلال العصور اللاحقة، بعد أن تم اكتشاف عدة معصرات تؤرخ أقدمها بالقرن الرابع قبل الميلاد (55).

وإذا كنا نتوفر على دلائل اركيولوجية عن وجود هذه المنتجات خلال العصر الفينيقي، فهذا لا يعني قطعا أنها مثلت المواد الفلاحية الوحيدة التي أنتجتها منطقة طنجة. فمما لا شك فيه أن السكان المحليين قد زرعوا محاصيل أخرى، يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال العنب، انطلاقا من تأويلات طوبونيمية ترى في معنى رأس سبارتيل قديما - سواء على الصيغة الاغريقية (Ampelusia) أو الاريقية (Cottes) - ما معناه رأس الكروم (56).

وأي ما كان الحال، وسواء عرفت المنطقة محاصيل متنوعة، أو اقتصر على إنتاج المواد الفلاحية التي تم اكتشاف آثار متكلسة عنها داخل القبور السالفة الذكر، يبدو أن زراعة الحبوب قد لعبت دورا أساسيا في تغذية أعداد لا بأس بها من السكان المتجمعين في هذا النطاق الضيق. وهذا ما تأكد أيضا من خلال محتويات قبورنا، التي زودتنا بجموعة من المناجل الحديدية، عثر عليها "بونسيك" في كل من مقبرة عين دالية وجبيلة (57) ، استخدمت لا ريب في عملية حصاد القمح. كما يؤكد ذلك أيضا اكتشاف محطوب من حديد تم العثور عليه في قبر رقم 42 بمقبرة عين دالية على شكل صفيحة مسطحة يبلغ طولها عشر سنتيمترات (58). وهذا يدل على أن المغاربة القدامى كانوا على علم جيد بتقنيات زراعة الحبوب من عملية بنرها إلى حصادها. كما يدل من جهة أخرى على أن السكان أنفسهم كانوا على علم بصناعة تعدين الحديد لتحويله إلى أدوات فلاحية، مما يبرهن على أنهم لم يكونوا فحسب يعرفون عصر البرونز، بل عايشوا عصر الحديد أيضا منذ وقت مبكر (59).

ولا ريب أن اكتشاف هذه المنتجات وهذه الأدوات الفلاحية في العديد من المقابر البعيدة عن بعضها البعض، يؤكد على أن النشاط الفلاحي لم يكن يقتصر خلال العصر الفينيقي على تجمع سكاني دون الآخر، بل كان يشمل المنطقة برمتها. وإذا كان العثور على هذه المواد يبدو أمرا عاديا بالنسبة لمقبرة عين دالية ودار زهيرو الموجودتين داخل الأراضي، فإننا نفاجأ بالعثور على المواد نفسها في مقبرة جبيلة القريبة من البحر. وهذا يدل على أن الفلاحة كانت تعتبر منذ القرن السابع قبل الميلاد على الأقل موردا أساسيا اعتمد عليه السكان، إلى جانب قيامهم بأنشطة اقتصادية أخرى كالصيد البحري لدى ساكنة مقبرة جبيلة (60)، أو الصيد البحري لدى ساكنة مقبرة عين دالية أو دار زهيرو (61).

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد، هو هل تعلم سكان فحص طنجة، وربما السكان القدامى للمغرب، الأساليب الزراعية من الفينيقيين (62) ، أم أنهم كانوا على علم بهذه الأساليب منذ العصر الميكاليتي ؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل مرتبطة أساسا بمعرفة متى وصل الفينيقيون إلى المنطقة. فإذا كانت مرحلة القرن السابع قبل الميلاد تمثل بالنسبة للفينيقيين بداية الاتصالات مع الأهالي، فهذا يعني أن المحليين كانوا على علم بالتقنيات الفلاحية. ذلك أن هذا العهد كشف عن حالة تجمعات سكانية كانت مستقرة بالمنطقة منذ زمن بعيد. كما أبرز هذا العهد أيضا أن هذه التجمعات عرفت مرحلة متقدمة من ممارسة الحياة الفلاحية.

أما إذا كان الفينيقيون قد اتصلوا بالمنطقة قبل ذلك، أي خلال مرحلة توسعاتهم البحرية الأولى، كما تلمح إلى ذلك المصادر القديمة حيث تأسس ليكسوس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد (63) ، فمن المحتمل إما أن يكون الفينيقيون قد أدخلوا معهم التقنيات الفلاحية وبعض المنتجات الزراعية لأول مرة، وإما أنهم ساعدوا السكان على تطوير استغلال أرض كانوا يعرفون خيراتها من قبل.

ومما يجعلنا نميل إلى ترجيح الطرح القائل بممارسة السكان القدامى للمغرب للحياة الفلاحية قبل مجيء الفينيقيين، هو اكتشاف "نو فايي" (De Wailly) لبعض الحبوب الصغيرة النصف المكلسة (64) في مركز كهف البارود بناحية بن سليمان في طبقة أركيولوجية سابقة للعصر الفينيقي (65). بل يرى "كامبس" (Camps) (66) بأن سكان شمال إفريقيا ربما قاموا بزراعة القمح منذ العصر النيوليتي ؛ أي في نفس الوقت الذي قام بذلك أيضا معاصروهم المتوسطيون بكل من إسبانيا وفرنسا (67). وفي هذا المضمار تتوفر على بعض المستندات الأثرية حول وجود عصر نيوليتي فلاحى داخل الأراضي المغربية، بعد العثور على عدة أدوات من الحجارة المصقولة كانت تستعمل للفلاحة بسهل الحوز بناحية مراكش (68).

وكيفما كان الحال، فمما لا شك فيه أن سكان شمال غرب المغرب كانوا يقومون بنشاط فلاحى هام خلال القرن السابع قبل الميلاد والنصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد، يمكننا تبعا لذلك أن نشبههم بالتجمعات الفلاحية التي عرفها الجنوب الإسباني خلال نفس المرحلة. وهي التجمعات السكانية التي تم التعرف عليها كذلك بفضل المدافن ذات التأثيرات الفينيقية التي اكتشفت في كل من كرمونة (Carmona) (69) و "المرية" (Almeria) (70).

وكان بديهيا أن ينعكس هذا النشاط الاقتصادي على الحياة الاجتماعية للسكان، حيث مكنهم ربما فائض انتاجهم الفلاحى من التكثيف من المعاملات التجارية مع الفينيقيين، ومن اقتناء أكثر ما يمكن اقتناؤه من أدوات البدخ الرفيعة التي كانت تحملها سفنهم المستديرة (71).

فهل نستطيع التعرف على الحالة الاجتماعية لسكان هذه المقابر ؟

من الصعب بمكان أن نخوض في تحليل اقتصادي - اجتماعي لمجموعة بشرية لا نعرف عنها سوى معلومات أثرية طفيفة، علاوة على ندرة في النصوص التاريخية التي تهتم هذه المرحلة وتلك المنطقة بالذات. غير أن ذلك لا يمنعنا من

القيام ببعض الاجتهادات والافتراضات التي نتوخى من خلالها الإمام أكثر بهذه التجمعات وبحالتهم عند اتصالهم بالفينيقيين.

فما هو مؤكد أن سكان ناحية طنجة كانوا يعرفون حياة الاستقرار وليس حياة الترحال، الأمر الذي مكنهم طبعاً من تشييد تلك المجموعة الكبيرة من المقابر. وهذا يعني أنهم كانوا متجمعين على شكل قرى أو دواوير، أو ربما على شكل مدن، إذا علمنا أن مفهوم المدينة قديماً لا يعني دائماً أنها كانت تشيد بمواد صلبة (72). فإنداء اكتشاف مبان حجرية بالمنطقة تعود إلى العصر الفينيقي، يجعلنا نعتقد أن مساكن الأهالي كانت ربما تشيد بالطين الممزوج بالقش أو بالتراب المدكوك كالنوالات الحالية. وفي هذا المضمار، إذا كانت المعلومات الواردة في رحلة "سكيلاكس" (Scylax) حول تجارة الفينيقيين مع أهل جزيرة "كرني" (جزيرة القرن)، يمكن تطبيقها على منطقتنا، فإن النص يبين أن الفينيقيين كانوا يتصلون بالسكان المحليين في "مدينة كبيرة" (73).

أما حول الحالة السياسية للسكان، فإننا لا نعرف عنها شيئاً، بحيث لا نعلم هل كانوا منظمين تنظيمياً عشائرياً أو قبائلياً أو كانوا يعرفون نظام الدولة. كما لا نستطيع إلا أن نلاحظ بنوعية العلاقات التي كانت تجمع أفراد القبيلة فيما بينهم. كما لا نعلم هل قيامهم بالمقايضة مع الفينيقيين كان فردياً، أم منظماً وموجهاً من طرف شيخ القبيلة أو رئيسها أو "ملكها". ألم يذكر "سكيلاكس" في نفس المصدر السالف الذكر أن سكان "كرني" كان << ملكهم يعد أطول الناس من بينهم >>؟ (74).

ومن المظاهر الأخرى التي تعرفنا عليها بفضل العديد من المواد الأثرية المكتشفة داخل هذه المدافن، نذكر حالة التفاوتات الاجتماعية التي تم رصدها بين السكان. وذلك ليس فحسب على مستوى العناية التي حظيت بها طريقة تشييد بعض القبور وكذا شكل صيانتها، مما جعلها متميزة عن القبور الأخرى (75)، بل أيضاً على مستوى قيمة وجودة المواد الثمينة التي اكتشفت بداخلها. فعلى العموم كانت جل المدافن ذات المظهر الخارجي المثير للانتباه، تضم أنفس المواد، نذكر منها

بيض النعام(76) ، وبعض الحلي الفينيقيّة النادرة كالتمايم المصنوعة من عجين الزجاج ومن العاج(77) ، وأيضا قراميل الشعر.

فهل كان دفناء هذه القبور من نوي النفوذ السياسي، أو يمثلون بعض أفراد عائلتهم ؟ أم تدل هذه المدافن الفخمة والغنية بالمواد النادرة على ظهور بعض الأثرياء الذين استطاعوا أن يفتتوا أكثر من الآخرين، وبالتالي تمكنوا من اقتناء ما لم يستطع أن يحصل عليه غيرهم من التجار الفينيقيين ؟(78)

وأي ما كان الحال، فإن هذه الحالة تدل على أن السكان القدامى لشمال غرب المغرب كانوا يعيشون حياة اجتماعية واقتصادية ليست بالمنعزلة عما يحدث في الساحة المتوسطية. بل كانوا في مستوى جيرانهم الأوروبيين الذين يستطيعون التمييز بين ما هو نفيس وغال ؛ خصوصا وأن اكتشاف بعض مواد التجارة الفينيقيّة النادرة في مقابر المنطقة وانعدامها من العديد من الجهات المتوسطية الأخرى يزكي هذه الحالة المتقدمة.

غير أنه يحق لنا أن نتساءل هل كان هذا الذوق فطريا لدى السكان إذ ذلك، أم أن اتصالهم بالفينيقيين هو الذي أدى إلى تهذيبه وصقله ؟ وفي هذا المضمار يمكن القول أنه إذا تأكد مثلا أن الطريقة الرائعة التي تمت بها زخرفة بيض النعام المكتشف في مقبرة عين دالية كانت من وحي محلي أصيل، فإن ذلك سيدل لامحالة على الذوق الفني الرفيع الذي كان يحضى به بعض أهل ناحية طنجة(79).

ونحن لا نستغرب من ذلك، لأن الذوق لا يهدب ولا يصقل إلا بالاتصال والانفتاح على الآخر. ومن حسن الحظ أن المنطقة بحكم موقعها لم تكن منغلقة على نفسها، بل عرفت علاقة مستمرة مع الخارج وخصوصا مع أقرب جار إليها وهي شبه الجزيرة الأيبيرية، مما جعل منها معبرا لكل التيارات الحضارية والثقافية التي تمر بمضيق جبل طارق الاستراتيجي.

فما هي أهمية موقع ناحية طنجة في علاقاتها بالخارج، وانعكاس ذلك على اهتمام الفينيقيين بالمنطقة وعلى حالة السكان الذين اتصلوا بهم ؟

إن العلاقات بين جنوب اسبانيا وبين ناحية طنجة قد أبرمت منذ عصور ما قبل التاريخ الغابرة (80) ، وذلك بحكم جوار المنطقتين، حيث يستطيع المرء مشاهدة أراضي الجهة المقابلة بالعين المجردة. وإذا كان سكان إيطاليا وصقلية قد استطاعوا اجتياز مضيق "مسينا" منذ العصر الباليوليتي، فمن المرجح أن يكون أهل فحوص طنجة وسكان جنوب الأندلس قد حاولوا بدورهم عبور بوغاز مضيق جبل طارق منذ ذلك العهد، كما يرى "ليونيل بالوت" (L. Balout) (81).

وعندما حل العصر النيوليتي مع بداية جفاف الصحراء، وبدأت علاقات أرض المغارب تقل مع إفريقيا بدون أن تنقطع، أصبح يلاحظ أن التأثيرات المتوسطية بدأت تدب في بعض النطاقات الضيقة بالسواحل، لتحولها من منطقة إفريقية إلى كيانات متوسطية (82). وتشاء الصدفة أن تمثل ناحية طنجة في أقصى شمال غرب إفريقيا - إلى جانب شمال شرق تونس - إحدى هذه النطاقات المحفوظة (83) ، حيث قامت بربط علاقات مع أوروبا المتوسطية بصفة عامة ومع اسبانيا بصفة خاصة.

إن تسمية هذه الحقبة النيوليتية في ساحل شمال إفريقيا وخصوصا في أقصى شمال غرب المغرب بالحقبة "الايبيرية - المورية"، لدليل على الوحدة الثقافية التي كانت تجمع بين المغرب والاندلس. اذك سيتم تدعيم العلاقات البحرية بين الضفتين بشكل مهم، حيث أكد "الخزف الكارديومي" (Céramique cardiale) (84) المكتشف بأعداد هامة في ناحية رأس أشقار (85) وفي غار الاكل قرب سبتة (86) وكهف تحت الغار قرب تطوان (87) ، على حدوث أولى المبادلات بين الجانبين. ورغم أن "كامبس" (Camps) يرى أن إفريقيا كانت هي المستفيدة من هذه المبادلات (88) ، إلا أنه لا ينبغي اعتبار اتجاهها دائما من الشمال نحو الجنوب خلال العصر النيوليتي. فالعديد من علماء الآثار الاسبان يعتقدون أن التأثيرات التي عرفتها شبه الجزيرة الايبيرية خلال هذا العصر كان مصدرها من إفريقيا (89).

ومع حلول عصر البرونز، تلاحظ أيضا نفس الاستمرارية في العلاقات بين الطرفين، التي يؤكدتها اكتشاف الخزف المعروف "بالاناء الجرسى الشكل" (Vase campaniforme) (90) الايبيري الاصل في أقصى شمال غرب المغرب وفي بعض المناطق من الساحل الاطلنطي (91).

وقبل وصول السفن الفينيقية للبحار في مياه رأس أشقار، يعتقد "كارسيا بييدو" (A. Garcia y Bellido) (92) أن سفن طرطسوس (93) كانت تقوم بربط ضفتي المضيق منذ مدة طويلة. فلا يعقل أن لا يكون الطرطسيون قد تعرفوا على السواحل الاطلنطية للمغرب، بعد أن أثبتت عدة دلائل أركيولوجية أنهم أقاموا علاقات تجارية مع ما كان يعرف في المصادر القديمة "بجزر القصدير" منذ عصر البرونز الاوروبي (94).

هذه هي الحالة التي كان عليها أقصى شمال غرب المغرب فيما يخص علاقاته الخارجية. فهو إذن كان مرتبطا بأرضيته الإفريقية، محافظا على طقوسه المتوارثة لكنه كان منفتحا على العالم الخارجي، متأثرا بما يحدث فيه، وفي نفس الوقت كان متطلعا إلى أقرب جار إليه.

وعندما قدم الفينيقيون إلى ناحية طنجة، لم يجدوا أناسا منعزلين ومهمشين عن التيارات الثقافية والتجارية التي عرفها العالم المتوسطي، بل وجدوا مجموعة بشرية تمثل - بفضل علاقاتها مع اسبانيا - كيانا لا يختلف كثيرا عن مجمل الكيانات المتوسطية الاخرى. هذه الوضعية ستمكن السكان من التعامل بانطلاق مع هذا العنصر الجديد الوافد عليهم، والذي مثل بالنسبة لهم تجربة متوسطة جديدة، تعتبر واحدة من التجارب التي مروا بها في علاقاتهم مع الخارج منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ.

وهكذا نلاحظ بعد استعراضنا لما سبق، أن الفكرة القائلة بأننا لا نعلم شيئا عن >> العالم المحلي المعاصر للفينيقيين << كما ورد عند "ميكيل طراييل" (M. Tarradell) في كتابه "المغرب البونيقي" (95)، أصبحت فكرة متجاوزة بعد قيامنا

بقراءة جديدة للمعثورات الأركيولوجية بناحية طنجة. فهي لم تسلط الأضواء فحسب على الحالة الاقتصادية والاجتماعية وعلى العلاقات الخارجية التي كان عليها سكان شمال غرب المغرب خلال العصر الفينيقي، بل زودتنا أيضا بتفاصيل دقيقة حول حياتهم اليومية التي كانت مجهولة تماما فيما سبق.

بل يعتقد "بونسك" - وربما يكون مبالغا - أن الحضارة التي لقيها الفينيقيون في ناحية طنجة، كانت في نفس مستوى التطور الذي كانت عليه حضارة "ترشيش" - طرطسوس" الأيبيرية الشهيرة (96)، خصوصا وأن العلاقات بين شعبي ضفتي المضيق التي كانت نشيطة خلال العصر النيوليتي، أصبحت كثيفة خلال عصر البرونز والعهد الميكاليتي.

هذا التقارب والامتزاج بين العنصر الطرطيسي الإسباني وبين ليبي شمال غرب المغرب، دفع بعالم الآثار الفرنسي "بيير سانتاس" (P. Cintas) إلى الاعتقاد بأن الشعبين كانا يمثلان حضارة واحدة، وأن تحديد بلاد "ترشيش" الواردة في المصادر القديمة لا يقتصر على جنوب إسبانيا، بل لعله يشمل شمال غرب المغرب أيضا (97). ومما يرجح ذلك أن الحضارة القروية المستقرة لسكان فحص طنجة - التي نجد عدة نماذج مماثلة لها في شمال إفريقيا إلى يومنا هذا - كانت مشابهة بشكل كبير لنمط العيش المتوسطي القديم الذي عرفته العديد من الحضارات. فهي لم تكن تختلف في شيء عن وضعية أجداد الأيبيريين والهلينيين، حيث الاعتماد بالأساس على زراعة الحبوب وخصوصا الشعير الصلب، إلى جانب تربية الماشية الصغيرة (98).

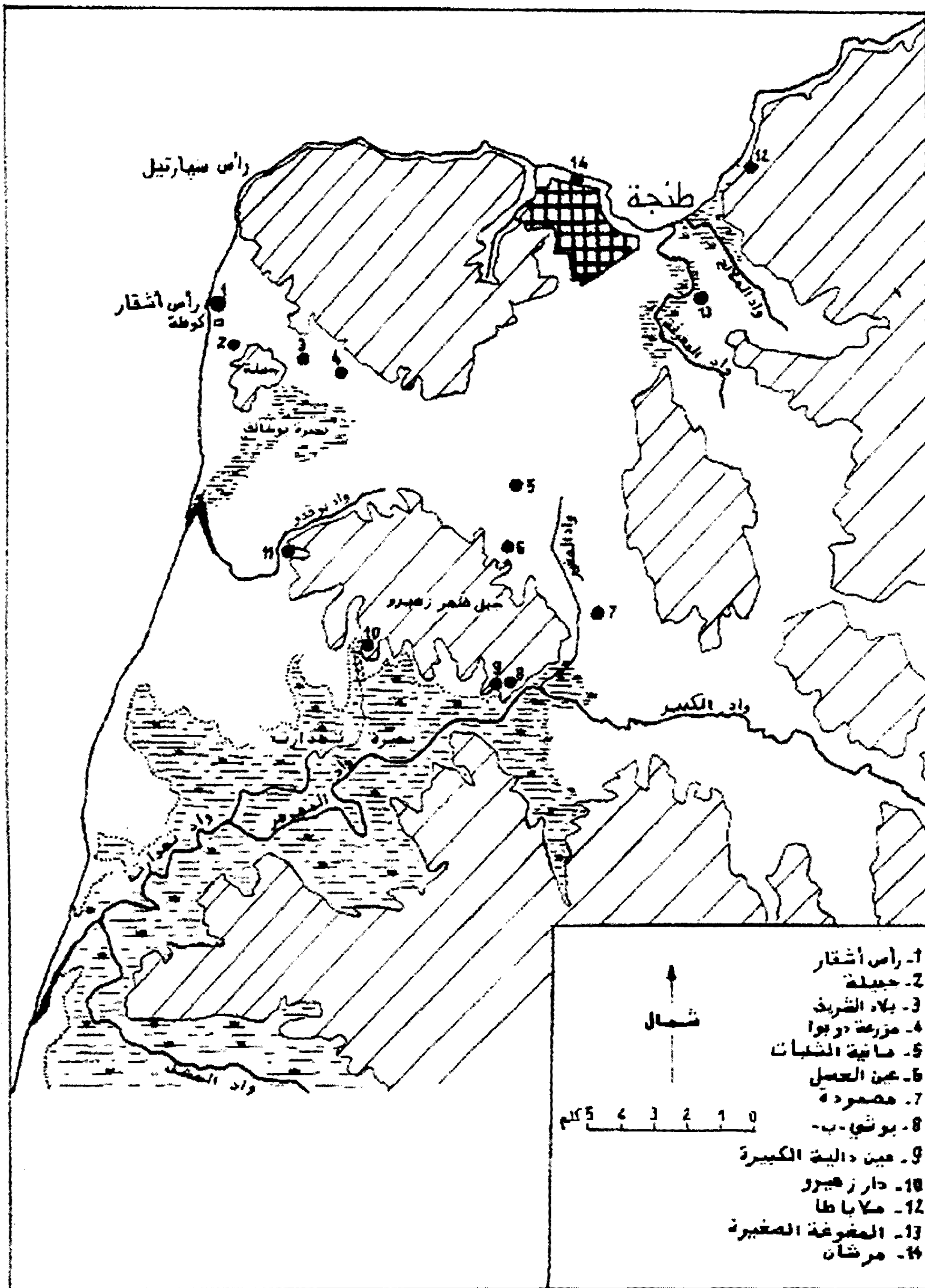
ومما لا شك فيه أن الحالة التي كان عليها السكان القدامى للمغرب - أو بعضهم - عند اتصالهم بالفينيقيين، سوف يتحدث عنها "سكيلاكس" (99) في نص رحلته. ألا يمكن أن نرى في هؤلاء السكان الذين يقول عنهم الرحالة الإغريقي بأنهم يأكلون اللحم ويشربون اللبن ويزرعون العنب لاستخراج الخمر وبيعه للفينيقيين (100)، إحدى المجموعات المستقرة التي كانت تعيش على الفلاحة في شمال غرب المغرب؟

وكيفما كان الحال، وأي ما كان موقع هؤلاء السكان، فإن هذه المعلومات تلمح إلى أن المؤلفين الإغريق كانوا على علم بحالة سكان المغرب القديم خلال العصر الفينيقي. ولا ريب أن هذه الأخبار كانت تصلهم عن طريق الفينيقيين الذين اتصلوا بهؤلاء السكان وتعرفوا عليهم. ولعلمهم أعجبوا بهم، فنشروا أخبارهم وأحوالهم التي وصلت إلى المؤرخين والشعراء الإغريق. فحيكت حولهم الاساطير ونسجت الخرافات التي جعلت منطقة أقصى شمال غرب المغرب مسرحا خصبا لها، حيث تحددت فيها أسطورة "هرقل" في صراعه مع "أنطيوخس"، وأسطورة العملاق "أطلس" الذي يحمل العالم فوق عنقه، وأسطورة حدائق "الهسبيريدس" (Hésperidès) (101).

بقي أن نتساءل في الختام، هل يمكن تطبيق هذه الحالة الفريدة من نوعها على السواحل المغربية كلها، أم أنها وضعية خاصة بناحية طنجة، التي لها من المؤهلات ما يجعلها تحظى وحدها دون غيرها من المناطق الأخرى بهذه الظاهرة؟

في الحقيقة لا نستطيع أن نجزم بكل دقة في هذا الموضوع، ما دام المغرب يحتاج مستقبلا إلى معاول المنقبين للبحث عن خباياها، خصوصا في بعض المناطق التي اتصلت بالفينيقيين كحوض اللكوس ووادي أبي رقراق وناحية الصويرة، وغيرها من المناطق. وفي انتظار ذلك، لا نكون مبالغين إذا اعتبرنا أن فحص طنجة - بمدافنه الفينيقية والمحلية المؤرخة بالقرن السابع قبل الميلاد والنصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد - مكننا من الاطلاع على صورة تقريبية حول حالة السكان القدامى للمغرب عند اتصالهم بالفينيقيين.

لوحة رقم 1 : توزيع مقابر العصر الفينيقي في ناحية طنجة



Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger, fig 47

لوحة رقم : 2 : أنواع القبور المحلية في ناحية طنجة حسب تصنيف يونسيك

<p>رقم 26</p> <p>رقم 24</p> <p>رقم 65</p> <p>تعداد من عين دالية</p> <p>العبر قبل فتحه</p> <p>العبر بعد فتحه</p>	<p>II - المستطيلة</p>	<p>I - الصناديق المدفونة تحت الصخور الحجرية</p> <p>قبر رقم 67 بعين دالية</p>
<p>قبر رقم 5 بحيلة</p> <p>قبر رقم 6 بعين دالية</p>	<p>IV - الثوريات العيون الصغيرة بالحكام</p>	<p>III - الثوريات العيون الصغيرة من حجارة مرتبة</p> <p>قبر رقم 6 بعين دالية</p>
<p>قبر رقم 67 بعين دالية</p> <p>قبر رقم 68 بعين دالية</p> <p>العبر قبل فتحه</p> <p>العبر بعد فتحه</p> <p>العبر الثاني في عمق 0.80 م</p> <p>العبر الأول في عمق 1.18 م</p>	<p>VI - الأقبية العترة على عدة جثث</p>	<p>V - الصناديق المدفونة تحت الصخور الحجرية</p> <p>قبر رقم 5 بحيلة</p>

Maich, Recherches archéol. à Tanger, fig 26-27-28-30-31-32, Idem, Nécropoles Phéniciennes, fig 34

لوحة رقم : 171 الطلي والأدوات الجنازية المصرية في مقابر ناهية طنجة

الأدوات المصنوعة		الأدوات الجنازية ذات الصبغة الملونة			مكونات المعثورات المصرية			الطلي التي تزين في المقابر والأدوات الجنازية المصرية في مقابر ناهية طنجة			الطلي التي تزين في المقابر والأدوات الجنازية المصرية في مقابر ناهية طنجة	رقم
رقم	الوصف	عدد	عدد	عدد	عدد	عدد	عدد	عدد	عدد	عدد		
1	الطلي	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1
2	الطلي	2	2	2	2	2	2	2	2	2	2	2
3	الطلي	3	3	3	3	3	3	3	3	3	3	3
4	الطلي	4	4	4	4	4	4	4	4	4	4	4
5	الطلي	5	5	5	5	5	5	5	5	5	5	5
6	الطلي	6	6	6	6	6	6	6	6	6	6	6
7	الطلي	7	7	7	7	7	7	7	7	7	7	7
8	الطلي	8	8	8	8	8	8	8	8	8	8	8
9	الطلي	9	9	9	9	9	9	9	9	9	9	9
10	الطلي	10	10	10	10	10	10	10	10	10	10	10
11	الطلي	11	11	11	11	11	11	11	11	11	11	11
12	الطلي	12	12	12	12	12	12	12	12	12	12	12
13	الطلي	13	13	13	13	13	13	13	13	13	13	13
14	الطلي	14	14	14	14	14	14	14	14	14	14	14
15	الطلي	15	15	15	15	15	15	15	15	15	15	15
16	الطلي	16	16	16	16	16	16	16	16	16	16	16
17	الطلي	17	17	17	17	17	17	17	17	17	17	17
18	الطلي	18	18	18	18	18	18	18	18	18	18	18
19	الطلي	19	19	19	19	19	19	19	19	19	19	19
20	الطلي	20	20	20	20	20	20	20	20	20	20	20
21	الطلي	21	21	21	21	21	21	21	21	21	21	21
22	الطلي	22	22	22	22	22	22	22	22	22	22	22
23	الطلي	23	23	23	23	23	23	23	23	23	23	23
24	الطلي	24	24	24	24	24	24	24	24	24	24	24
25	الطلي	25	25	25	25	25	25	25	25	25	25	25
26	الطلي	26	26	26	26	26	26	26	26	26	26	26
27	الطلي	27	27	27	27	27	27	27	27	27	27	27
28	الطلي	28	28	28	28	28	28	28	28	28	28	28
29	الطلي	29	29	29	29	29	29	29	29	29	29	29
30	الطلي	30	30	30	30	30	30	30	30	30	30	30
31	الطلي	31	31	31	31	31	31	31	31	31	31	31
32	الطلي	32	32	32	32	32	32	32	32	32	32	32
33	الطلي	33	33	33	33	33	33	33	33	33	33	33
34	الطلي	34	34	34	34	34	34	34	34	34	34	34
35	الطلي	35	35	35	35	35	35	35	35	35	35	35
36	الطلي	36	36	36	36	36	36	36	36	36	36	36
37	الطلي	37	37	37	37	37	37	37	37	37	37	37
38	الطلي	38	38	38	38	38	38	38	38	38	38	38
39	الطلي	39	39	39	39	39	39	39	39	39	39	39
40	الطلي	40	40	40	40	40	40	40	40	40	40	40
41	الطلي	41	41	41	41	41	41	41	41	41	41	41
42	الطلي	42	42	42	42	42	42	42	42	42	42	42
43	الطلي	43	43	43	43	43	43	43	43	43	43	43
44	الطلي	44	44	44	44	44	44	44	44	44	44	44
45	الطلي	45	45	45	45	45	45	45	45	45	45	45

218 8

شكل بعض الطلي والأدوات المصرية

المواشر :

- (1) — S. Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, réimpression de l'édition Hachette de Paris 1920 - 1928, 8 Tomes.
- (2) — L. Balout, Le Maghreb oriental avant Carthage, *Archéologie Vivante*, vol. I, n° 2, Dec. 1968 - Fevr. 1969, p. 16 ; M. Tarradell, Marruecos púnico, Publicaciones de la Facultad de Letras (Universidad de Rabat), Instituto Mulay El Hasan, Editorial Cremades, Tetúan, 1958, p. 61.
- (3) — G. Camps, Aux origines de La Berbérie - Monuments et rites funéraires protohistoriques, Arts et metiers graphiques, Paris, 1961, p. 420.
- (4) — في هذا الصدد، فإن عالم البونيقيات "بيير سانتاس" (P. Cintas)، الذي كان على علم بالمكتشفات الحديثة التي أكدت على وجود عصر البرونز في المغرب، نجده يعتبر >> أن الثقافة المحلية التي بقيت لمدة طويلة ذات طابع نيوليتي في إفريقيا الشمالية، قد عرفت مباشرة حضارة المعادن دون أن تعرف المراحل الانتقالية التي مرت منها الحضارات الأخرى، في الوقت الذي وصل فيه التجار الشرقيون إلى سواحلها <<
P. Cintas, Manuel d'Archéologie punique, T. II : La civilisation carthaginoise - (Les réalisations matérielles, Paris, Picard, 1976), p. 37.
- وفي السياق نفسه يحاول "وارمنكتون" (Warmington) أن يبحث عن العوامل التي جعلت في رأيه إفريقيا الشمالية متخلفة عن باقي المناطق الأخرى في الحوض المتوسطي الغربي، فيقول : >> عندما رسي الفينيقيون لأول مرة فوق سواحل شمال إفريقيا، كان المحليون أكثر تخلفا في مجال الحضارة المادية من باقي الشعوب الموجودة بالبحر المتوسط الغربي. وتعزى هذه الوضعية لكون إفريقيا الشمالية تمثل في الواقع جزيرة واسعة جدا شمال الصحراء، وبالتالي فإن سكان البلاد كانوا منذ عهود غابرة على معزل من حركات الشعوب التي وقعت في الشرق وشمال البحر الأبيض المتوسط، مما حد من انتشار المعارف التي كانت تحملها هذه الشعوب... ومن جهة أخرى، ورغم أن البحر الأبيض المتوسط لم يكن متعذر الملاحه، فإن شمال إفريقيا لم تكن لتقدم أي شيء يمكن إثارة أنظار الشعوب المهاجرة... ونظرا لكون باطن الأرض كان خاليا من كل معدن، فإن ذلك جعل السكان على معزل من التطورات المادية الكبرى، بحيث وجدهم الفينيقيون عند قدومهم في العصر الحجري. حقا كان بعضهم يعتمد على حياة الاستقرار، لكن أغلبية السكان كانت تتكون من رعاة شبه رحل متجمعين على شكل عشائر صغيرة أو قبائل << (B. H. Warmington, Histoire et civilisation de Carthage, Paris, Payot, 1961, p. 14 - 15
- (5) — M. Antoine, Les grandes lignes de la Préhistoire marocaine, Deuxième congrès panafricain de préhistoire, Alger, 1952, p. 46.
- (6) — A. Luquet, Prospection punique de la côte atlantique du Maroc, *Hesperis*, T. XLLIII, 1956, 132.
- (7) — J. Carcopino, Le Maroc antique, Paris, Gallimard, 12 ème édition, 1947, p. 55
- (8) — يقصد بهم "بيير سانتاس" الفينيقيين الشرقيين الوافدين من لبنان موطنهم الأصلي.

- (9) — P. Cintas, Manuel d'Archéologie punique, op. cit, T. II, p. 44
- (10) — محمد رضوان العزيفي، الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقتهم بالسكان "من خلال مقابر ناحية طنجة ومحتوياتها المورخة ما بين القرن السابع قبل الميلاد وأواسط القرن السادس قبل الميلاد"، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس، العدد 11، 1990، ص. 195 — 210؛ نفسه، مجلة الدراسات الفينيقية البونية والآثار اللوية (R.E.P.P.A.L)، العدد 6، مركز دراسة الحضارة الفينيقية البونية وآثار اللويين، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، 1991، ص. 1 — 18.
- (11) — نفسه، المرجع السابق، ص. 197.
- (12) — أسماء مدافن ناحية طنجة وعدد القبور بها هي كما يلي : رأس أشقار (قبو واحد) — جيلة (107 مدفون) — بلاد الشريف ومزرعة "دوبوا" (Dubois) وسانية الشلبات وعين العسل وسيدي مصمودة (ما بين 15 و 30 مدفون في كل مقبرة) — بوشي (Buchet) حرف — ب — (30 مدفون) — عين الدالية الكبيرة (98 مدفون) — دار زهرو (16 مدفون) — ملاباطا (مدفنان اثنان) — المغوغة الصغيرة (ضريح واحد) — مرشان (98 مدفون).
- (13) — للإلمام بأنواع القبور الفينيقية وأشكالها وخصوصياتها قصد مقارنتها بمدافن ناحية طنجة المورخة عموما خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، انظر : محمد رضوان العزيفي، هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الاصل ؟ المصباحية، مجلة تصدرها كلية الآداب والعلوم الانسانية سايس — فاس، سلسلة العلوم الانسانية، العدد الثاني، 1996، ص. 11 — 28.
- (14) — M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, Etudes et travaux d'Archéologie marocaine, T. III (Villes et sites du Maroc antique), Tanger, 1967 ; Idem, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, C.N.R.S, Paris, 1970.
- (15) — محمد رضوان العزيفي، هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الاصل ؟ المرجع السابق، رسم رقم 6.
- (16) — نفسه، نفس المرجع، رسم رقم 2.
- (17) — وهو الخطأ الذي وقع فيه "بونسيك" (Ponsich) لما نعت جميع مدافن منطقة طنجة "بالمقابر الفينيقية" (M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit)، مما دفعني إلى القيام بقراءة جديدة لاستنتاجاته وتقديم ذلك خلال المؤتمر الدولي الثالث للدراسات الفينيقية واليونيقية المنعقد بتونس عام 1991 (M.R. El Azifi, Les nécropoles de la région de Tanger sont - elles phéniciennes ? Actes du III^e congrès international des études phéniciennes et puniques (Tunis, 11 - 16 Novembre 1991), Institut national du patrimoine, volume I, Tunis, 1995), p. 401 — 414.
- (18) — أهم مادة فينيقية وصلت إلى فحص طنجة مثلها الاعداد الكبيرة والمتنوعة من الحلي. فقد أحصيت ما يناهز 146 حلية و 210 مجوهره مصنوعة من عجين الزجاج من أصل تسع عشرة نوع مختلف. كما أن بعض النعام المزخرف أو العادي الذي حظي بطلب كبير في الاسواق المتوسطية، كان حاضرا أيضا ضمن الواردات الفينيقية إلى المنطقة، حيث تم اكتشاف ما مجموعه خمسة عشر بيضة. لاخذ فكرة عن مواد التجارة الفينيقية المكشوفة داخل مدافن فحص طنجة انظر : محمد رضوان العزيفي، السلع المتبادلة بين

- الفينيقيين والمغاربة القدماء كأقدم نموذج عن علاقات المغرب التجارية مع العالم المتوسطي، "أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب (21 - 22 - 23 فبراير 1989)، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1992، الجزء الثاني، جدول رقم 1 و 2 و 3 .
- (19) — عشر "فييمو" (Vuillemot) في إقليم وهران بالجزائر على قبور تحتوي على مواد التجارة الفينيقية مشاهمة لمداين ناحية طنجة، كانت من نوع "الصناديق المدفونة تحت الجثوات الحجرية" (Vuillemot, Reconnaissances aux échelles puniques d'Oranie, Autun, 1965, fig. 114 - 115-116 كما لاحظ "كسيل" (Gsell) في مقبرة العالية جنوب شرق تونس امتزاج العناصر الاركيولوجية المحلية بالفينيقية، مما جعله يعتبر أن المقبرة لا ترجع إلى مستوطنة فينيقية، بل إلى دوار محلي متأثر بالحضارة الفينيقية بفضل علاقته التجارية مع قرطاجنة أو مع إحدى المدن البونيقية القريبة (S. Gsell, Histoire Ancienne de l' Afrique du Nord, op. cit, p. 131.
- 20 — بالرغم من إشارة "لوكي" (Luquet) إلى اكتشافه لمداين فينيقية وبونيقية عام 1956 في إقليم دكالة ما بين آزموور ورأس بلوزة، جاوز مجموعها 3000 ناووس وحجرة جنازية وقبر على شكل آبار، إلا أنها كانت خالية من أي محتوى أثري. وقد تم العثور على أهم هذه القبور حسب لوكي في تيط (مولاي عبد الله قرب الجديدة) حيث خلفت مقبرتها حوالي 675 بترا. كما عشر "لوكي" على حجرات جنازية منحوتة في الصخر قرب آزموور في سيدي لمبارك ببلاد الغابة وفي الحفيرة قرب الوليدية. كما عشر على تابوت قلم محفور في الصخر في مولاي المرس (A. Luquet, Prospection punique de la cote atlantique du Maroc, op. cit, p. 117- 132 ; Idem, Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc : Le Maroc punique, Bulletin d'Archéologie marocaine, T. IX, 1973 - 1975, p. 269 - 290 ; P. Cintas, Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc, Paris, Arts et metiers graphiques, 1954, p. 23 - 29 وهذا ما دفع العديد من المؤلفين نذكر منهم "أوزنا" (Euzennat) إلى نقد نظرية "لوكي"، واعتبار هذه المداين المفترضة إما مقابر محلية من نوع "الحوانيت" وإما مطامر قمح تعود إلى العصر الوسيط (M. Euzennat, Bibliographie d'Archéologie marocaine, B.A.M, T. II, 1957, p. 24 اعتبار هذه المخلفات من بقايا الآبار التي تم حفرها للبحث عن الماء، أو نظائري لحزنه، لأن منطقة دكالة كانت حسب شهادة العديد من المؤرخين تعرف نقصا كبيرا في الماء مما استدعى مرارا وتكرارا حفر عدة آبار عميقة للتنقيب عنه (احمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984، ص. 57 - 59).
- (21) — M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, p. 395
- (22) — من المعلوم أن المستنقعات والضبابات الكثيرة التي تسببها فياضانات واد تمدارت وواد المهرهر وواد الحشف وواد بوقندو عند تقاطع الامطار الغزيرة على منطقة طنجة، تؤدي إلى تكوين بحيرة كبرى يمكن مشاهدتها على الخريطة الطوبوغرافية للمرتلة. وقد تحدث "بلاسكيس" (Blazquez) في هذا المضمار عن مشاهدته في خريطة حرية اسبانية، لمساحة مائة هائلة كان عرضها يبلغ 12,614 كلم وطولها 20 كلم (A. Blazquez, Las costas de Marruecos en la antigüedad, Boletin de la Real Academia de la Historia, T. LXXIX, Cuaderno I, Julio, 1921, p. 414.

- (23) — M. Ponsich, *Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger*, op. cit, p. 395
- (24) — M. Ponsich, *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région*, op. cit, p. 40
- (25) — Idem, *Ibid*, p. 45
- (26) — يقول حنون في الفقرة الخامسة من رحلته : >> > بعدما تجاوزنا تلك البحيرة وسرنا مدة يوم كامل شيدينا مستعمرات سميناها الجدار القاري وكيطة وأكره وعرميس <<.
- (27) — يقول سكيلاكس : >> > عندما نجتاز أعمدة هرقل بإبحارنا في اتجاه البحر الخارجي حيث نرى ليبيا عن يسارنا، نجد خليجا كبيرا يمتد إلى رأس هرمس، لأن هناك يوجد أيضا رأس هرمس. في وسط الخليج توجد منطقة ومدينة بونتيون. وتحيط بهذه المدينة بحيرة كبيرة توجد بها عدة جزر << (Scylax, 112 ; ap. R.)
- (28) — Roger, *Le Maroc chez les auteurs anciens*, Paris, Les Belles Lettres, 1924, p. 19.
- (28) — P. Cintas, *Manuel d'Archéologie punique*, op. cit, T. II, p. 38
- (29) — أي المصنوعة باليد (céramique modelée) وليس بالمخرطة. ومن المعلوم أن انتقال الخزف من النوع المصنوع باليد إلى النوع المخروط (céramique tournée) يعتبر ثورة صناعية هامة، ومعيارا حضاريا على تحلف الشعوب القديمة أو تقدمها.
- (30) — اكتشف "بونسيك" هنا الاناء في قبر رقم 80 بمقبرة عين دالية. وهو عبارة عن قده صغير منكسر بدون عروة ما زال يحتفظ بجزء من جهته اليسرى إضافة إلى قاعدة بأكملها (M. Ponsich, *Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger*, op. cit, pl. XXXII, fig. 43). وتعتبر هذه الأنية من نوع خزفي محلي تم العثور عليه باستمرار في العديد من المراكز الفينيقية المورخة بالقرن السابع قبل الميلاد وبداية القرن السادس قبل الميلاد، نذكر منها مثلا ليكسوس وجزيرة الصويرة بالمغرب، ومرسى مداخ وجزيرة راشكون بالجزائر. ومن مميزات هذا النوع توفره على زخرفة متشابهة في جميع العينات المكتشفة، حيث كانت الأنية تشرط قبل شوائها بالظفر أو بمخراز خاص أو تقرص بالاصبع. فتصبح الزخرفة على شكل شبكات أو أنصاف أثمار متراكبة، أو غيرها من الزخارف المشرطة أو المقرصة. إنه الخزف المدعو "بالخزف المشرط" أو "المطبوع" أو "بالخزف ذي التأثير النيوليتي" أو "بالخزف البربري القلم". انظر : محمد رضوان العزيفي، الفينيقيون في جزيرة الصويرة، أعمال الايام الدراسية حول "الصويرة الذاكرة وبصمات الحاضر" (26 — 27 — 28 أكتوبر 1990)، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية أكادير، سلسلة الندوات والايام الدراسية، رقم 3، 1994، ص. 69، هامش رقم 55.
- (31) — إن أقدم الآثار الأركيولوجية المكتشفة في مقابر ناحية طنجة تورخ بالقرن السابع قبل الميلاد، وربما بالقرن الثامن قبل الميلاد. فهل تعود هذه التواريخ إلى العهد الذي قدم فيه الفينيقيون لأول مرة إلى المنطقة وإلى المغرب، أم أن الفينيقيين كانوا قد اتصلوا بالبلاد وبالمناطق قبل ذلك ؟ إن الاجابة عن هذا التساؤل مرتبطة بمعرفة مراحل التوسع الفينيقي في الحوض المتوسطي على العموم وفي جزئه الغربي على الخصوص. كما تخضع لاختلاف وجهات نظر المهتمين بهذا الموضوع بسبب التناقض الموجود بين المعطيات الأركيولوجية التي تجعل بداية التوسعات الفينيقية لا تتعدى القرن الثامن قبل الميلاد، وبين إشارات المؤلفين القدامى التي تحدد هذه التوسعات بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد. ومن أهم الدراسات

الحديثة حول موضوع التوسع الفينيقي ومراحله، اعتمادا على النصوص القديمة ومقارنة بالمعطيات الأركيولوجية، انظر :

G. Bunnens, L' Expansion phénicienne en Méditerranée "Essais d'interprétation fondé sur une analyse des traditions littéraires", Institut historique belge de Rome, T, XVII, 1979 ; M.E. Aubet, Tyro y las colonias fenicias de occidente, Barcelona, Editorial Bellaterra, 1987.

A. Jodin, Les civilisations du sud de l' Espagne et l'énéolithique marocain, Congrès — (32)
préhistorique de France, XV^e session, Angoulême, 1956.

محمد رضوان العزيفي، مستوطنة ليكسوس الفينيقية في الكتابات القديمة والحديثة — محاولة لرد الاعتبار —
المصباحية، سلسلة العلوم الانسانية، العدد الاول، 1995، ص. 11، هامش رقم 3.

نفسه، الفينيقيون في جزيرة الصويرة، المرجع السابق، ص. 69 هامش رقم 55. — (34)

نفسه، التعمير القلم لوادي مرتيل، أعمال ندوة "جبال الريف : المجال والانسان" (3 — 4 — 5 أبريل
1989)، مجلة كلية الآداب بتطوان، السنة الرابعة، العدد 4، 1990، ص. 69. — (35)

الفينيقيون شعب من الشعوب السامية القديمة التي كانت تقطن الشريط الساحلي الذي يشمل حاليا كل لبنان
وحزبا من سوريا وفلسطين. — (36)

عرف التوسع البحري الفينيقي خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد نشاطا تجاريا لم يكن له مثيل من قبل
ولا من بعد. فنتيجة للمزاحمة الاقتصادية التي فرضت على الفينيقيين من قبل التوسع الاغريقي في الحوض
المتوسطي، وبسبب الضغط الآشوري العسكري والجباي الممارس باستمرار على المدن الفينيقية في الشرق
لتحصيل سبائك المعادن الثمينة، اضطرت الآلة البحرية الفينيقية إلى التكثيف من عملياتها التجارية في
الاسواق المتوسطية، بغية ترويح سلعها من جهة وتلبية الطلب الآشوري من جهة ثانية. خلال هذه المرحلة
تم تشييد العديد من المحطات الفينيقية الثابتة التي أصبحت تعمر من لدن مهاجرين فينيقيين جدد. كما تميزت
هذه الحقبة، التي استمرت إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد، بعقد علاقات تجارية فينيقية كثيفة مع
بعض الجهات، كما تشهد على ذلك مثلا مدافن ناحية طنجة. كما تميزت أيضا بالبحث عن أسواق
معدنية جديدة ولجها الفينيقيون لأول مرة، كما يؤكد ذلك وجودهم في جزيرة الصويرة خلال القرن
السابع قبل الميلاد والنصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد. — (37)

لا ينبغي أن نستغرب من ذلك، لأن معظم سكان الحوض المتوسطي الغربي كانوا خلال مرحلة التوسع
الفينيقي كما يرى "وارمنكتون" (Warmington) في حالة متأخرة حضاريا وأكثر ضعفا عسكريا من
شعوب وحضارات المتوسط الشرقي. لذلك لا ينبغي أن نبالغ في كون السكان القدامى للمغرب كانوا اذاك
متطورين لدرجة تجعلهم في المستوى الحضاري للفينيقيين أو العبريين أو الآراميين أو غيرهم من الشعوب
المتقدمة. انظر : B.H. Warmington, Histoire et civilisation de Carthage, op. cit, p. 13 — (38)

6M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 39 — (39)

محمد رضوان العزيفي، هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الاصل ؟ المرجع السابق، رسم رقم 6. — (40)

محمد رضوان العزيفي، هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الاصل ؟ المرجع السابق، رسم رقم 1. — (41)

- M. Ponsich, *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région*, op. cit, p. 165 — (42)
- Idem, *Ibid*, p. 166 — (43)
- Idem, *Ibid*, p. 396 — (44)
- M. Ponsich, *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région*, op. cit, p. 166 — (45)
- Idem, *Ibid*, p. 165 — (46)
- Idem, *Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger*, op. cit, p.79 — (47)
- Idem, *Ibid*, p.85 — (48)
- Idem, *Ibid*, p.194 — (49)
- Idem, *Ibid*, p. 207 — (50)
- Idem, *Ibid*, p. 138 — (51)
- Idem, *Ibid*, p. 204 — (52)
- يقول المؤرخ الاغريقي "بوليبوس" ميرزا اهتمام سكان شمال افريقيا بتربية الماشية مايلي : >> توجد في افريقيا الجياد والثيران والخراف والماعز أيضا بكثرة وافرة تجعلني أتساءل هل يمكن أن نعثر على نفس الكمية في باقي جهات العالم المسكون، ويعزى ذلك إلى كون أغلبية شعوب افريقيا، الذين لا يمارسون الفلاحة، يعيشون من قطعانهم ومع قطعانهم << (Polybe, Histoire, Livre XII, III, 3).
- لذلك لانستغرب إذا كانت النقود الموريطانية لمدينة طنجة تحمل شعار سنابل القمح، الذي يلمح إلى غنى المنطقة بهذا المنتج منذ عصور قديمة. انظر : — (54)
- F. Mateu y Llopis, *Monedas de Mauritania*, Tetuan, 1949.
- M. Ponsich, *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région*, op. cit, p. 218 — (55)
- R. Roger, *Index de topographie antique du Maroc*, P.S.A.M, Fas. n° 4, 1938, p. 20 ; — (56)
- M. Ponsich, *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région*, op. cit, p. 218.
- اكتشف "بونسيك" ثلاثة مناجل حديدية في مقبرة عين دالية بكل من قبر رقم 20 و 25 و 74 — (57)
- M. Ponsich, *Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger*, op. cit, Pl. XIV, (XVII, XXIX). كما اكتشف أربعة نماذج مشابهة في مقبرة جبيلة بكل من قبر رقم 27 و 31 و 79 و 99 ، إلا أنه لم ينشر مع الاسف أية صورة عنها. وهي عبارة عن مناجل صغيرة تتميز بحرف حديدي يحتوي على سنيات حادة، وتتميز بفتحة متسعة يتراوح قطرها ما بين 30 و 35 سنتيمتر. كما تتوفر على حاشية حديدية رقيقة تقبض منها. أما عرض حديدة المنجل فيتراوح ما بين 15 مم و 33 مم. ويبدو أن عادة دفن الادوات الفلاحية داخل القبور تذكرنا بعادة مازالت تعرفها بعض بوادي المغرب العربي، حيث يقوم السكان بوضع ادواتهم الفلاحية على جدران أضرحة الاولياء تبركا بحمايتهم وتيمنا بنشر الخير والبركة على المحاصيل.
- M. Ponsich, *Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger*, op. cit, p. 87 — (58)
- من المعلوم أن عصر الحديد ظهر لأول مرة في الشرق الاوسط ؛ وكان ذلك في حدود عام 1200 قبل الميلاد. وحيث أن مكشفات ناحية طنجة أكدت على أن السكان القدامى للمغرب عرفوا تقنية تصنيع — (59)

- الحديد على الاقل منذ القرن السابع قبل الميلاد، فهذا يدل على أنهم لم ينتظروا طويلا لمسيرة التطورات الاقتصادية التي عرفتها الساحة الدولية اذالك. أما هل تعرفوا على ذلك تلقائيا أم بفضل تدخل الفينيقيين أو بتأثير منهم، فهذه مسألة أخرى يمكن مناقشتها في موضوع ثقاف المغاربة القدامى بالحضارة الفينيقية. — (60)
- نظرا لقرب مقبرة جبيلة من البحر، وبعد اكتشاف فقارات من السمك داخل بعض قبورها، اعتبر "بونسيك" أنها تعود إلى تجمع بحارة أو صيادين (M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 72).
- M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 157 — (61)
- كانت أرض فينيقيا أرضا خصبة ومسقية على العموم رغم طابعها الجبلي، مما ساعد السكان منذ القدم على تطوير فلاحه مزدهرة أثارت اندهاش المصريين القدماء. — (62)
- انظر مسألة قدم تأسيس ليكسوس ومكاتها كأهم مستوطنة فينيقية في الساحل الاطلنطي المغربي عند : محمد رضوان العزيفي، مستوطنة ليكسوس في الكتابات القديمة والحديثة — محاولة لرد الاعتبار — ، المرجع السابق. — (63)
- كانت هذه الحبوب حسب مكتشفها شبيهة بالحمص. — (64)
- A. De Wailly, Le site de Kef - El - Baroud (région de Ben Slimane), **Bulletin d'Archéologie marocaine**, T. IX, 1973 - 1975, p. 59. — (65)
- G. Camps, Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Paris, Doin, 1974, p. 276. — (66)
- أي منذ الالف الخامسة قبل الميلاد. — (67)
- A. Rodrigue, Un Néolithique agricole dans le Haouz, **Bulletin d'Archéologie marocaine**, T. XVI, 1985 - 1986, p. 89 - 98. — (68)
- G. Bonsor, Les colonies agricoles préromaines dans la vallée du Bétis, **Revue archéologique**, T. XXXV, 1899, p. 126 - 159. — (69)
- L. Siret, Villaricos y Herrerias, **Memorias de La Real Academia de la Historia**, T. XIV, 1909. — (70)
- كانت التجارة الفينيقية تقوم على استيراد المعادن الثمينة التي تحتاج إليها أسواق الشرق الاوسط كالفضة والذهب والقصدير والنحاس، وعلى استيراد بعض المواد الثمينة كالعاج والاحجار الكريمة وبعض الحيوانات النادرة. ومن جهة أخرى كانت تقوم بتوزيع مواد مصنعة كالالاواني المعدنية والملبوسات الرفيعة والمواد المصنوعة من العاج. هذا علاوة على توزيع مواد البديخ — التي يمكن تشبيهها حاليا بمحتوجات باريز — كالزجاج والعطر والحلي بشق أنواعها، وأيضاً الخزف الرفيع. أما أهم مادة فينيقية اتجر بها الفينيقيون مع السكان القدامى للمغرب وخصوصا مع أهل ناحية طنجة، مثلتها الحلي المعدنية أو المصنوعة من عجين الزجاج، والاواني الخزفية الرفيعة سواء الفينيقية أو الاغريقية. انظر هامش رقم 18 وانظر أيضا : محمد رضوان العزيفي، السلع المتبادلة بين الفينيقيين والمغاربة القدماء كأقدم نموذج عن علاقات المغرب التجارية مع العالم المتوسطي، المرجع السابق، ص. 208 - 211.

- (72) — انظر بعض مظاهر ومميزات المدينة خلال العصر القديم عند :
- M. Poëte, Introduction à l'urbanisme, Paris, Editions Anthropos, 3è édition, 1967.
- (73) — يقول "سكيلاكس" : >> ... التجار هم الفينيقيون ؛ وعندما يصلون إلى كرني فلأنهم يربطون مراكبهم المستديرة وينصبون الخيام في الجزيرة. ... يوجد هناك الاثيوبيون مع من يقيمون المبادلات.... ويأكل هؤلاء الاثيوبيين اللحم ويشربون الحليب، ويصنعون حمرا كثيرا من كرماتهم يصدره الفينيقيون. كما توجد عندهم أيضا مدينة كبيرة تلج إليها سفن التجار الفينيقيين.... << (Scylax, 112).
- وفي هذا الصدد ينبغي أن نوضح أن "الاثيوبيين" المذكورين في النص لا يقصد بهم سكان اثيوبيا أو زنجوج إفريقيا الغربية، بل إن كلمة "Aetiopes" التي تعني بالآغريقية "ذوي الوجوه المحروقة"، لعلها إشارة لبعض القبائل المغربية ذات البشرة السمراء التي كانت تقطن في جهة ما على ساحل المحيط الأطلنطي. انظر :
- G. Camps, Aetiopes, Encyclopédie berbère, T. II, Aix- En-Provence, Edisud, 1985, p. 176.
- (74) — Scylax, 112
- (75) — كانت المدافن التي تحمل رقم 63 و 65 و 68 و 70 بمقبرة جبيلة من أحسن النماذج بالمنطقة فيما يخص طريقة البناء وجودتها.
- (76) — كان بيض النعام من المواد الجنائزية المحلية التي وضعت في القبور منذ أقدم العصور، والتي كانت تعرف طلبا في الأسواق من لدن أمهات الحضارات القديمة. غير أنها لم تعرف ذروة انتشارها إلا مع مجيء التجار الفينيقيين إلى شمال إفريقيا، الذين قدروا قيمتها و عملوا على توزيعها على سائر أنحاء البلدان المتوسطية، مستفيدين من هذه التجارة بأرباح طائلة بفضل كثرة الطلب عليها. وليس من شك في كون بيض النعام سيعرف خلال العصر الفينيقي تحسنا في شكله ومنظره، حيث سيتم تحويل البيضة إلى وعاء جميل بعد قطع إحدى أطرافها، أو إلى كأس بعد شطرها إلى نصفين وتزيين شفتيها بسنينات رقيقة. وبعد ذلك تصبغ جوانب البيضة بلون أسود أو أحمر، أو تنقش عليها رسوم هندسية على شكل شبكات دائرية أو مثلثة أو مربعة أو سحيفات فينيقية أو زهور اللوطس. ولا شك أن قيمة بيض النعام كشيء ثمين ونادر وربما مقدس، جعل منها مادة جنائزية تدفن مع الاغنياء كهبة له توضع في القبر فوق إناء خاص (Présentoir)، وتستعمل ككأس روحية تصب بها الصبغة الحمراء المقدسة.
- ولم تخل مدافن ناحية طنجة بدورها من هذه المادة التي وصلت إلى المنطقة من الجنوب المغربي بفضل التجارة الفينيقية، حيث تم اكتشاف ما مجموعه 15 بيضة. والغالب على الظن أنها وصلت إلى هناك على حالتها الطبيعية، وبعد ذلك قام السكان المحليون بكشف رأسها وقطع إحدى أطرافها وتحويلها إلى إناء، وزخرفتها ونقشها حسب الذوق المحلي. ومن جميل الصدفة أن حل القبور التي تم العثور بها على بيض النعام، كانت تعتبر من أجمل وأضخم المدافن بالمنطقة، نذكر منها على سبيل الحصر فقط قبر رقم 5 و 6 و 42 بمقبرة عين دالية، وقبر رقم 31 و 68 و 94 بمقبرة جبيلة. كما كانت العديد من هذه القبور تضم قراميل الشعر، التي تعتبر من الحلي الفينيقية النادرة، والتي لا يقتنيها سوى الاغنياء. انظر :
- محمد رضوان العزيفي، السلع المتبادلة بين الفينيقيين والمغاربة القدماء، المرجع السابق، ص. 222، جدول 2.

(77) — تعتبر التماثيل الفينيقية من الحلي ذات الطابع الوقائي التي تثبت في العقود لابعاد الخطر والشر عن حاملها. وكانت هذه المواد المستوردة من مصر، و المكتشفة بكثرة في القبور الفينيقية، تصنع عموما من عججين السلس المبرق أو من عججين الزجاج. أما أشكالها فكانت عبارة عن صور مصغرة لبعض المعبودات المصرية وبعض الحيوانات، أو لبعض الرموز كالعين والخميسة والقلب والحية المقدسة، أو صوراً لبعض الشياطين والاعوال. ولم تخل مدافن ناحية طنجة من توفرها على مثل هذه العثورات، حيث اكتشفت بها ثلاثة نماذج من التماثيل. التيممة الاولى، التي كانت مصنوعة من عججين الزجاج على شكل صورة مصغرة للمعبود المصري "بس" أو "بتاح"، تم العثور عليها في مقبرة مرشان. أما التيمتان الاخرتان فقد اكتشفهما "بونسيك" في قبر رقم 77 بمقبرة جبيلة، وفي قبر رقم 30 بعين دالية. وكانت الاولى مصنوعة من عججين الزجاج المخضر تمثل إحدى الاجنة العراقية القديمة، قد يكون "سكن" (Sakan) أو "هبابا" (Khumbaba) أو "بازوزو" (Pazuzu). أما التيممة الثانية، فكانت مصنوعة من مادة العاج على شكل صورة مصغرة لرأس خروف يرمز ربما إلى المعبود المصري "كنومون". انظر :

M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, PL. LIX, p. 177 ; Idem, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, fig. De p. 10, PL. LV, fig. de p. 8, PL. XIX.

(78) — يمكن اعتبار أن ندرة التماثيل في مقابر ناحية طنجة راجعة إلى كونها كانت باهضة الثمن كما يقول "موسكاتي"، بحيث لم تكتشف سوى في قبور الاغنياء. انظر :

S. Moscati, L'épopée des Phéniciens, Paris, Fayard, 1971, p. 225.

(79) — اكتشف "بونسيك" في قبر رقم 5 بعين دالية بيضة نعام على شكل إناء في حالة جيدة من الصيانة، تم نقش أو بالاحرى حفر جميع مساحتها بزخرفة في غاية الجمال. فقام الفنان الذي نحت البيضة، بتقسيمها إلى أربعة أقسام زخرفية يفصلها شريطان عموديان يبلغ عرضهما سنتيمتران اثنان. كما قام بتزيين هذه الاقسام بخطوط متقاطعة وأخرى أفقية. أما الرسم الاساسي الذي يوجد داخل كل حقل من الحقول الاربعه، فيتألف من مثلثين متقابلين تحيط بهما زهور منمنمة من نوع اللوطس تتوفر على ثلاث بتلات من كل جهة (M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p.) 138 - 139, PL. XLV ; Idem, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, fig. 13, p. 47). وقد قام الصانع بهذه الزخرفة بتقنية دقيقة جدا، بحيث لم يترك على البيضة أية علامة تقطيع واضحة بواسطة أداة ما. وإذا كانت مثل هذه الزخارف تنحت بمنقاش خاص أو بإزميل معين، فإن مكتشف هذه البيضة يرى بأن الفنان المغربي قد استخدم في عمله نوعا من الحوامض. وهو الامر الذي يتطلب دقة متناهية في الاداء وأناة في متابعة العمل، لا يمكن أن يتقنه سوى المتخصص الماهر (M. Ponsich, Tanger, Un oeuf d'autruche décoré, Bulletin d'Archéologie)

(marocaine, T. VI, 1966, p. 461 - 464). أما عن معاني الزخرفة المنقوشة في بيضة نعام مقبرة عين

دالية التي استخدمت المواضيع النباتية، كالعديد من النماذج المشابهة المكتشفة في الحوض المتوسطي، فإنها ترمز لا شك إلى الخلود أو بعث الحياة من جديد. أما أصل المواضيع الزخرفية فهي بدون شك من شمال افريقيا، حيث كانت تستعمل، ومنذ العصر النيوليتي، نفس المشاهد النباتية على شكل سعيفات ونفس

الفتالات ونفس الخطوط المعقوفة المنفرجة. وهي العناصر نفسها المستعملة في تكوين الزخارف البربرية على العموم، المعتمدة على رسم المثلثات والسعيفات والاشرطة العمودية، والتي نجدها بكثرة في الاواني المحلية المصبوغة وفي الزربية البربرية.

(80) — ركز المؤتمر الاركيولوجي الاول المنعقد بمدينة تطوان عام 1953 على العلاقات الاسبانية — المغربية خلال عصور ما قبل التاريخ. وقد توج باصدار عدة دراسات في هذا الاتجاه نذكر منها ما يلي :

L.Pericot, Sobre el problema de las relaciones preneolíticas entre España y Marruecos, **1er congreso Arqueológico del Marruecos español**, p. 57 - 62 ; L. Balout, Remarques sur l'extention géographique de certaines civilisations préhistoriques du Maghreb, *Ibid*, p. 67 - 73 ; F. Jorda Cerde, Las relaciones entre el Epigravetiense de la España mediterránea y el Iberomauritanico nordafricano, Gimpera, La cultura de las cuevas en Africa y en *Ibid*, p. 79 - 83 ; P. Bosch España y sus relaciones, *Ibid*, p. 139 - 153

(81) — L.Balout, Remarques sur l'extention géographique de certaines civilisations préhistoriques du Maghreb, *op. cit*, p. 71.

(82) — G. Camps, Aux origines de la Berbérie - Monuments et rites funéraires protohistoriques -, *op. cit*, p. 568.

(83) — ينبغي ألا نستغرب اذا كانت هاتان المنطقتان — اللتان أبرمتا علاقات قديمة مع جيرانهما الاوروبيين — تعتبران من بين أهم الجهات التي اهتم بها الفينيقيون منذ ابحارهم الأولى. ففيهما توجد أهم المستوطنات الفينيقية وأقدمها في شمال افريقيا، وهما ليكسوس بالنسبة لشمال غرب المغرب، وأوتيكا ثم قرطاج بالنسبة لشمال شرق تونس. وهذا يدل على أن الفينيقيين لم يكونوا يتعاملون مع الشعوب المتخلفة، بل مع أكثر الشعوب اتصالا بالحضارات ما قبل — التاريخية القديمة، ومع أكثرها انفتاحا على العالم الخارجي.

(84) — وهو الخزف مميز لبداية العصر النيوليتي المورخ عادة في شمال افريقيا وفي اوروبا بالالف الخامسة قبل الميلاد، تم العثور عليه على شكل أوان كروية الشكل تطبع قبل شوائها بمحار الكارديوم. انظر بعض المعلومات المقتضية حول هذا النوع من الخزف وحول توزيعه في الحوض المتوسطي عند :

M. Brésillon, Dictionnaire de la Préhistoire, Collection Larousse, Paris, Edition de 1980, n° D 34, p. 60.

(85) — A. Jodin, Les Grottes d'El Khil à Achakar, **Bulletin d'Archéologie marocaine**, T. III, 1958 - 1959, p. 149 - 313.

(86) — M. Tarradell, Noticia sobre la excavacion de Gar Cahal, **Tamuda**, T. II, Simestre II, 1954, p. 344 - 356.

(87) — محمد رضوان العزيفي، وادي مرتيل خلال العصور القديمة ومسألة عزل جبال الريف للمغرب عن العالم المتوسطي، أعمال الايام الوطنية الثانية المنظمة من طرف الجمعية المغربية للبحث التاريخي في موضوع "الجبل في تاريخ المغرب" (27 - 28 - 29 اكتوبر 1994)، تحت الطبع. وانظر أيضا :

M. Tarradell, Avance de la primera campana de excavaciones en Caf Taht El Gar, Simestre II, 1955, p. 307 - 322 **Tamuda**, T. III.

(88) — G. Camps , Aux origines de la Berbérie, *op cit*, p. 397, note n° 1

(89) — *Idem*, *Ibid*, p. 568

- (90) — تورخ عموما بداية استعمال الخزف الجرسى الشكل أو الناقوسي الشكل في حدود الالف الثالثة قبل الميلاد.
- (91) — A. Jodin, Les problèmes de la civilisation du vase campaniforme au Maroc, *Hespèris*, T. XLIV, 1957, p. 353 – 360.
- (92) — A. Garcia y Bellido, Fenicios y Carthagineses en Occidente, Madrid, 1942, p. 176 – 177.
- (93) — انظر هامش رقم 96.
- (94) — نعرف ذلك من خلال مصادر أدبية مقتطفة من كتاب (Ora Maritima) للمؤلف الروماني (Festus Avienus) الذي عاش في القرن الرابع الميلادي. أما موقع جزر القصدير فقد حددها المحدثون إما في بريطانيا بفرنسا أو في إنجلترا أو في أيرلندا أو في غاليسيا بإسبانيا. انظر :
- (95) — A. Garcia y Bellido, Fenicios y Carthagineses en Occidente, op. cit, p. 170.
M. Tarradell, Marruecos púnico, op. cit p. 267
- بل إن الوجود الفينيقي نفسه كان يشوبه الكثير من الغموض، كما نفهم ذلك من خلال "كاركوبينو" عندما يقول : >> لا نعلم عن الاستيلاء القدم للفينيقيين على المغرب مساحته ولا طبيعته ولا مراحلها <<.
- انظر : J. Carcopino, Le Maroc antique, op. cit, p. 25
- (96) — M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 396
- وقد حددت المصادر القديمة مملكة طرطوسوس (Tartessos) الاسطورية، المطابقة في التوراة لترشيش (Tarshich)، في بلاد الأندلس بشبه الجزيرة الأيبيرية. وهي المنطقة التي تقع حسب المؤلفين الإسبان المحدثين في ناحية "ويلفة" (Huelva) وقادش واشبيلية، أي في جنوب غرب إسبانيا. ويبدو أن المكانة التي حظيت بها الأندلس الشرقية في استخراج المعادن منذ العصر الكالكوليتي، انتقلت إلى الأندلس الغربية نظرا لغناها بمادني القصدير والفضة الموجودتين بكثرة في مناجم ناحية ويلفة واشبيلية، واللتي أصبحتا مطلوبتين في الأسواق الدولية. أما عاصمة طرطوسوس التي كانت تحمل نفس الاسم، فقد تم الإجماع على تحديدها في مدينة ويلفة نظرا لموقعها الاستراتيجي في الخليج الذي يصب فيه كل من نهري "تيتو" (Rio Tinto) و"أوديل" (Rio Odiel). وهو الموقع الذي لا يمكن تفسيره إلا باعتباره أهم ميناء طبيعي على الواجهة الأطلنطية للأندلس قبل مجيء الفينيقيين، لتصدير معادن المنطقة في اتجاه أوروبا الغربية وربما في اتجاه البحر الأبيض المتوسط إلى حدود إيطاليا. وقد عرفت حضارة طرطوسوس أربع حقب ثقافية مختلفة امتدت على مر خمسة قرون :
- الحقبة الأولى، التي ظهرت خلال نهاية عصر البرونز المورخ ما بين القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، كانت حقبة محلية محضة. وقد تميزت بمنتجات خزفي خاص (الخزف الملمع ذو الزخرفة الشبكية — الخزف المصبوغ)، وبممارسة الفلاحة وتربية الماشية، واستخراج المعادن (الفضة) وتصنيعها، وتشيد القبور على شكل الصناديق (cistes) كما كان الشأن في ناحية طنجة. ومن أهم مراكز هذه المرحلة نذكر (Huelva - Rio Tinto - chinflon Almonte).
- الحقبة الثانية بدأت مع مطلع القرن الثامن قبل الميلاد، ومثلت بداية الاتصالات مع الفينيقيين، الذين أسسوا إذاك عددا ضخما من المستوطنات الثابتة على الواجهة المتوسطية والأطلنطية لإسبانيا. في هذه الحقبة ستعرف حضارة طرطوسوس استعمال الحديد والخزف المخروط الذي أدخله الفينيقيون. كما سوف تتغير

مرفلوجية مباني الطرطوسيين من تشييد الاكواخ المستديرة إلى تشييد المباني المستطيلة على النمط الشرقي، كما تؤكد ذلك أركيولوجيا في مدينة وبلقة.

أما الحقبة الثالثة، التي امتدت خلال القرن السابع قبل الميلاد، فهي تمثل أوج ازدهار حضارة طرطوس، والتي يسميها المتخصصون بالمرحلة الاستشراقية. وهي الحقبة التي تميزت بتساقف المحليين بالحضارة الفينيقية، بفضل توطيد العلاقات التجارية مع المستوطنات الفينيقية، سواء مع الموجودة منها في شرق الاندلس أو في غربه. وقد تجلّى ذلك في تعميم استعمال الاواني المخروطة، وتقليد مواد التجارة الفينيقية كالخزف والعاجيات والايوان المعدنية والحلي. كما أصبحت قبور أعيان الطرطوسيين تتأثر بالنماذج الفينيقية الضخمة الشبيهة بالمقابر المكتشفة في اتروريا، وتستعمل عادة الدفن إلى جانب عادة حرق الاموات (- Carmona - Torre de Cruz del Negro - Mesas de Asta - Acebuchal - Setefilla

- El Carambolo - Dona Blanca). كما كانت هذه القبور، كما هو الامر في ناحية طنجة، غنية بالمستوردات الفينيقية مثل الاواني المعدنية الرفيعة والمواد العاجية والحلي. وهذا يدل على ظهور طبقة ارسقراطية غنية بطرطوس خلقت صداها لدى الاستوريوغرافية الاغريقية - الرومانية (قصة الملك الاسطوري "أركانطونيوس" (Argantonios)). أما على المستويين العقائدي والثقافي، فقد انتشرت في هذه الحقبة عبادة رشيف - ملقارت، وظهرت كتابة خاصة بطرطوس كانت بمثابة اقتباس للابجدية الفينيقية.

غير أنه ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد سنلاحظ فقرا في محتويات قبور طرطوس مع العودة إلى ممارسة الطقوس الجنائزية المحلية، وانخفاض في التأثيرات الفينيقية. إنها بداية الحقبة الرابعة والاخيرة من حضارة طرطوس التي تميزت ببداية دخول المؤثرات الاغريقية. إلا أن اضمحلال التجارة الفينيقية خلال النصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد، وعدم تعويضها بالشكل المطلوب من طرف قرطاجنة ولا من لدن تجارة اغريقية قارة ومستمرة، سيؤدي مع حلول أواسط القرن السادس قبل الميلاد، إلى تدهور حضارة طرطوس، لان مكانتها كمنطقة للاستقطاب التجاري بفضل الفينيقيين لم تعد كما كانت من قبل. بذلك تنتهي الهوية الثقافية لطرطوس، ليتم تعويضها رويدا رويدا بالثقافة الايبيرية.

توجد ببيليوغرافية غنية حول طرطوس لا مجال لذكرها الآن. ولاجل الاختصار انظر ما يلي :

بولي بر كوفيتش تسيركين، الحضارة الفينيقية في اسبانية، ترجمة يوسف أبي فاضل، بيروت، دار النشر جروس برس، 1988. وانظر من المراجع باللغات الاجنبية :

J.Ma. Blázquez, Tartessos y los origines de la colonizacion fenicia en Occidente, Universidad de Salamanca, 1968 ; A. Schulten, Tartessos, Hambourg , 2è édition, 1950 ; M. Fernandez-Miranda, Huelva, ciudad de los Tartessos, in. **Los Fenicios en la peninsula iberica**, Barcelona, Editorial AUSA, 1986, T. II, p. 227 - 261 ; Ju.B. Tsirkin, The Hebrew Bible and the origin of Tartessian Power, in. **Los fenicios en la peninsula iberica**, op. cit, T. II, p. 179 - 185

(97) — يقول "سانتاس" في هذا الصدد معتمدا على دراسة "للونرمان" (F. Lenormant, Tarshich, Etude) d'éthnographie et de géographie biblique, **Revue des questions historiques**, T. (XXXII, 1882, p. 5 - 40

>> تحمل كلمة ترشيش معنى غامضا ... فهي تمثل مجموعة الاراضي التي اعتبرت الحد الغربي للبحر الابيض المتوسط، بنفس المعنى الذي مثله اسم "الهند الغربية" بالنسبة للمحدثين، حيث كان يقصد به بصفة عامة — ولمدة ثلاثة قرون — كل القارة الامريكية اضافة الى الجزر التابعة لها <<. انظر :

P. Cintas, Manuel d'Archéologie punique, T. I : Histoire et Archéologie comparées - temps archaïques de Carthage et des villes phéniciennes de Chronologie des l'Ouest - , Paris, Picard, 1970, p. 276 note 121

ونحن لا نستغرب من هذا المدلول لأن التوراة تذكر بعض المواد المستوردة من ترشيش (سفر الملوك الاول، الاصحاح العاشر : 22) لا يمكن أن يكون مصدرها حسب "بلاسكيس" إلا من المغرب كالقردة والعاج. انظر :

J.Ma. Blázquez, Tartessos y los comienzos de la colonización fenicia en Occidente, op. cit, p. 18

G. Camps, Aux origines de la Berbérie, op. cit, p. 34 — (98)

R. Roget, Le) هناك من المؤلفين من يعتبر أن رحلة "سكيلاكس" تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد (Le) — (99)
 (Maroc chez les auteurs anciens, op. cit, p. 11). غير ان المعلومات الواردة في الرحلة، المتحدثة عن علاقة الساحل الاطلنطي المغربي مع الفينيقيين وليس مع القرطاجيين، جعلت بعض المؤلفين يعتبرون أن نص الرحلة إنما يحكي عن احداث تورخ على الاقل بالقرن السادس قبل الميلاد. انظر :

J. Desanges, Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique, Ecole française de Rome, Palais Farnèse, 1978, Chapitre VII : La Libye dans le périple du Pseudo-Scylax, p. 87 - 120 ; A. Blázquez, Las Costas de Marruecos en La Antigüedad, op. cit, p. 407

— (100) انظر هامش رقم 73.

— (101) حول الأساطير الإغريقية المتعلقة "بموريطانيا" أي المغرب القديم، والتي تجعل ناحية مضيق جبل طارق مسرحا خصبا لها، انظر بالخصوص :

E. Arques, Huellas de la Historia fabulosa en la Libia Mauritana, Alta comisaria de Espana en Marruecos, Tetúan, 1950

REGARD SUR QUELQUES CHAPITEAUX DE BANASA

Abdellatif KHARBACH*

I - QUESTIONS DE STRUCTURES ET DE MODELE DES CHAPITEAUX DE BANASA

La suite des opérations de traçage et des détail qui aboutissent à la forme définitive des chapiteaux de Banasa a attiré notre attention. Les réponses aux questions que posent ces opérations devraient apporter des renseignements utiles pour la compréhension du processus de création et, en général, pour une meilleure connaissance de cet élément caractéristique de la structure et des modèles.

La recherche portant sur la phase de réalisation du chapiteau de Banasa depuis l'établissement du projet jusqu'à la pièce finie se heurte à des difficultés objectives. Ces difficultés dérivent en premier lieu du nombre relativement réduit d'exemplaire dont l'état de conservation permet la prise de mesures suffisamment assurées pour pouvoir en déduire l'enchaînement des relations numériques ou géométriques qui définissent la symétrie de l'ensemble.

La variété typologique recensée pour les chapiteaux de Banasa conduit, elle-même, à des résultats décevants du moment qu'on essaie l'application stricte du même type d'analyse qui se propose essentiellement de découvrir des rapports exprimés par

Professeur chercheur à la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Marrakech.

des nombres entiers entre les dimensions caractéristiques. Faut-il en déduire que le chapiteau de Banasa est un bloc sans rapports définis tel qu'il a été opposé au système de proportions qui régissent l'agencement des chapiteaux classiques selon les lois canoniques de Vitruve? Nous ne le pensons pas, ne fût-ce qu'en raison des opérations de traçage qui demandaient une mise au point préalable des relations entre les parties qui devraient être rapportées sur le bloc à sculpter. Il est donc, légitime de supposer que les artisans de Banasa ont abordé ce problème en partant d'une autre base conceptuellement différente. Il nous semble raisonnable dans certains cas d'imaginer comme hypothèse de travail la prévalence d'une conception qui aurait accordé plus d'importance au tracé géométrique pour l'établissement des proportions et la mise en place des différentes parties du chapiteau.

Un autre facteur déterminant pour le résultat de ce genre d'analyse est la fonction même de l'objet. On peut supposer que si les chapiteaux des monuments de premier ordre étaient l'aboutissement d'une recherche stylistique menée par un artisan d'assez bonne qualification, des produits de moindre importance n'étaient pas nécessairement investis des mêmes qualités, en tant qu'oeuvres par un artisan plus au moins habile, qui pourrait se contenter de quelques recettes simples pour la mise en place des éléments constitutifs de la pièce qu'il se propose de sculpter. Et même pour les chapiteaux corinthiens les mieux conçus à Banasa, on a constaté que dans la majorité des cas les proportions de ces éléments sont loins d'être conformes aux théories de Vitruve.

Nous pouvons en déduire ainsi qu'à l'étape du projet, l'intérêt de l'architecte de Banasa, comme c'est probablement le cas aussi des autres centres de la Maurétanie Tingitane notamment Volubilis, est dirigé en premier lieu vers le choix de la forme, dont l'ensemble est déterminé aussi par le goût personnel et les capacités créatrices de l'artiste, que par des

traditions d'ateliers ou par le désir de se rapprocher de quelques modèles célèbres préférés ou simplement mieux connus.

Ainsi, les éléments que nous avons considérés en premier étaient donc les composantes fondamentales du chapiteau et précisément ceux qui définissent le modèle en général.

En fait, tous les chapiteaux trouvés à Banasa, si on les considère sous l'angle des modèles, peuvent être divisés en deux groupes.

Le premier comprend des reproductions de styles consacrés aux œuvres greco-romaines, connues par des répliques nombreuses d'époque romaine. A cette catégorie appartiennent tous les chapiteaux corinthiens trouvés dans la ville.

Le second groupe comprend les variantes de modèles connues aussi dans le répertoire romain mais modifiées d'une manière plus au moins importante et même parfois en combinant des motifs issus d'œuvres différentes, notamment puniques comme c'est le cas des chapiteaux maurétaniens.

Ainsi, à Banasa pendant la durée de la période maurétanienne avant l'annexion de la Maurétanie Tingitane une influence considérable fut exercée par les formes locales ou d'inspiration punique sur le sens et le goût des artistes. Après, quand les villes de la Maurétanie Tingitane furent étendues à l'époque romaine et se furent constituées aux points de vue politique et urbain, lorsque la richesse publique provoqua le développement architectural, l'habitude chez les artisans Banasitains d'observer ces anciennes œuvres les porta à vouloir les revêtir de quelque grâce ou de quelque grandeur, ils ne peuvent se soustraire à l'influence des formes nouvelles, les styles nouveaux envahissant l'architecture s'y plantent et restent reconnaissables malgré les modifications qu'ils subissent comme c'est le cas des chapiteaux corinthiens.

L'emploi plus au moins intense de ces formes nouvelles greco-romaines sur l'architecture de Banasa comme c'est aussi le cas de l'ensemble des villes de la Maurétanie Tingitane s'est propagé suivant différentes façons :

- Par divergence : il est dans la nature des créations architecturales de rayonner autour des centres où elles reçoivent des développements considérables. De proche en proche; de province en province, l'influence des monuments romains d'Afrique et d'Espagne s'est répandue dans la Maurétanie Tingitane.

- Par transport, les villes de la Maurétanie Tingitane importaient directement de l'Occident (d'Italie et d'Espagne) de nombreux objets de céramique et de bronze, elles peuvent aussi probablement importer des formes architecturales répandant ainsi dans toutes les villes des modèles greco-romaine qui peuvent être imités.

- Et après, sur certains points, l'installation de vétérans en Mauritanie Tingitane après la création des colonies romaines, et le mélange des peuples furent tel que toutes les formes à peu près du monde romain familières aux artisans locaux, à l'exception du chapiteau composite qui; à notre connaissance, ne paraît avoir tenté le ciseau d'aucun tailleur de pierre à Banasa.

Ainsi, Banasa, port fluvial, a bénéficié, comme les autres villes de la Maurétanie Tingitane de la diffusion des modèles et des oeuvres architecturaux liés à la koiné gréco-romaine comme elle n'a pu se soustraire à l'influence des formes antérieures.

La conclusion que l'on peut tirer de ce chapitre est qu'entre la fin du premier siècle avant J.C. et le troisième siècle après les chapiteaux de Banasa paraissent indiquer une interprétation constante entre le courant de romanisation répandant le style lié à l'art gréco-romain et la résurgence des formes traditionnelles liées à un « art » local imprégné d'inspirations puniques, égyptiennes et hellénistiques, ce qui à montrer non seulement le danger, mais l'impossibilité, parfois, d'expliquer les formes d'architecture à l'aide d'un seul système, d'un seul principe, la comparaison quelqu'en soit le point de départ, et ce qui est vrai pour l'architecture en Mauritanie Tingitane pourrait l'être également pour toutes les oeuvres d'arts; elles sont le produit de causes multiples toujours vivantes, qui sont employées, ou

restent inutilisées suivant la faculté que possèdent les artisans, de comprendre et de saisir la technique et la beauté d'exécution. Et même les circonstances, les conditions résultant des matériaux et des climats s'imposaient avec telle énergie qu'elles annihilèrent tous les instincts artistiques. Tout n'est pas explicable, d'ailleurs, dans les formes d'architecture et c'est pour cela que Socrate disait : « L'architecture et la théorie des autres sciences analogues sont toutes connaissances accessibles à l'intelligence humaine, mais ce qu'il y a de plus grand en elles, les dieux se le réservent, sans en rien laisser voir à l'homme »⁽¹⁾.

II - L'ETUDE DE L'EVOLUTION DES CHAPITEAUX DE BANASA

L'étude de l'évolution des chapiteaux de Banasa présente un intérêt théorique et pratique sur le quel il n'est pas nécessaire d'insister. Terme et référence fondamentale, l'écoulement univoque du temps devrait fournir l'appui le plus sûr à toute étude de ce genre et surtout une base ferme pour la définition hiérarchisée de séries des chapiteaux. Or le décor architectural à Banasa, et même dans d'autres sites de la Mauritanie Tingitane, ne nous semble pas assez bien connu dans son évolution et si parfois l'architecture de certains centres est mieux étudiée, rares sont les cas où sa datation peut-être bien précise. Le cas de Banasa est encore pire que les conditions de la découverte dans ce site, emploi, absence de substructions ou incertitude de l'attribution des chapiteaux ne nous permettent pas de disposer de données sûres pour l'établissement d'un cadre chronologique suffisamment précis, de plus, ces chapiteaux sont le plus souvent l'objet de découvertes isolées, donc difficilement datables. De ce fait le problème de la chronologie et de l'évolution des formes reste dans plusieurs cas posé. D'autre part on a coutume de dire que les profils les plus complexes sont les plus tardifs. Or, nous nous apercevons que sur un même site, à Banasa comme c'est aussi le cas à Volubilis coexistent profils simples et profils complexes. Ces derniers étant probablement déterminés, beaucoup plus, par l'habileté des équipes et les schémas en circulation qu'une évolution chronologique qu'il reste difficile

d'apprécier en l'état actuel de la documentation. Ainsi, les différences entre les chapiteaux de Banasa, qui se rencontrent aussi bien dans l'espace que dans le temps, sont peut-être, comme nous l'avons signalé épisodiquement dues à des inégalités dans la main d'oeuvre que dans le degré de finition; cependant de façon générale, il semble aussi possible de recevoir une certaine évolution chronologique de ces chapiteaux quoi qu'elle ne peut être avancée qu'avec un maximum de prudence en l'absence de toute autre indication stratigraphique et les observations qui peuvent être faites sur l'ensemble de la structure monumentale à qui appartient tel ou tel groupe de chapiteaux.

Aussi, si les proportions des ordres des chapiteaux de Banasa, plus tassées que dans d'autres villes plus romanisées ont rarement changé au cours de cette longue période (du premier siècle avant J. C. jusqu'au troisième d'après J. C) , pour la décoration, l'évolution est plus marquée. Ainsi durant la seconde moitié du premier siècle avant J. C elle est assez réduite ,souvent composés de moulures lisses ou bien alors de motifs décoratifs sobres ou d'un décor floral ou géométrique incisé plutôt que sculpté qui unissent de vieux thèmes orientaux notamment puniques ou égyptiens, à des formes hellénistiques, sont caractéristiques de cette époque, les chapiteaux maurétaniens, les chapiteaux lisses en grès, les chapiteaux corinthiens rudimentaires. Ces types de chapiteaux vont céder la place à une gamme de chapiteaux corinthiens simples répondant aux exigences accrues après l'annexion totale de la Maurétanie Tingitane, ce qui nécessite une exécution plus facile et plus simple comme c'est le cas aussi des chapiteaux lisses tronconiques en grès trouvés à Volubilis. Le progrès accompli par rapport à la phase précédente se manifeste surtout dans le sens d'une conception plus unitaire, mieux agencée. Il est vrai que la forme architecturale est encore mal équilibrée que l'ensemble, allongé, est marqué par la prédominance d'une de ces faces, ce sont des carences dues soit au début d'une expérience soit au partie fondamentale.

L'époque impériale des Antonins voit apparaître un style plus riche et raffiné, le rôle du modèle corinthien devient très sollicité, le décor est plus prononcé et plus subtil ce qui permet de déceler une certaine conception esthétique qui essaye de tourner le dos aux anciens modèles. Nous trouvons sur ces chapiteaux les mêmes motifs ornementaux que l'art greco-romain répandu dans l'ensemble de l'empire. Les chapiteaux dits chapiteaux corinthiens impériaux figurent parmi les plus belles réussites de Banasa à cette époque. La feuille d'acanthé est plus prononcée les volutes sont plus au moins bien tracées.

A la fin du deuxième siècle et au début du troisième le développement des modes paraît plus confus, plus au moins localisé ou rattaché aux tendances générales du décor dans l'empire romain. Le règne des sévères (Sévère Alexandre et Caracalla) semble pour sa part, caractérisé par un retour à un style classique comme c'est le cas des chapiteaux appartenant à une colonnette et à une demi colonne trouvés à Banasa et qui témoignent d'une meilleure connaissance de l'art impérial romain, les techniques sont alors bonnes et le travail soigné. Cette mode, correspondrait donc à la renaissance des années 220, maintenant décelée dans diverses régions de l'Europe, aussi bien dans le décor des sarcophages que dans les portraits⁽²⁾. Ces mutations ne sont pas un phénomène tranchant, elles se réalisent à travers des variantes dans lesquelles se retrouvent des procédés de composition ou de formules décoratives témoins de la survivance de certaines traditions locales détectées à Banasa et à Volubilis d'autre part.

A côté de cette gamme d'exemples bien individualisés des chapiteaux évolués, on constate la continuation d'une production de chapiteaux grosso-modo de type simple dont on ne peut pas préciser la datation.

Par la suite les thèmes s'appauvrissent et quant il ne s'agit pas de remploi, un retour semble se faire au décor simple comme c'est le cas des chapiteaux corinthiens à feuilles lisses. D'autres chapiteaux, dont l'exécution paraît souvent maladroite ou

sommaire paraissent dater aussi de cette époque sans que l'on puisse préciser davantage cette datation.

La première impression qui se dégage des constructions appartenant probablement à la deuxième moitié du troisième siècle après J.C. est une certaine confusion due en raison même des premières fouilles entamées dans le site de Banasa qui sont restées sans suite exposant ainsi l'ensemble du site à l'abandon et au pillage, et en particulier, certainement, des remaniements successifs et du emploi de matériaux hétérogènes qu'a connu le site peu avant son abandon total.

En effet, les fouilles de R.Thouvenot ont démontré que nombres de changements ont commencé dans ce site dès la deuxième partie du troisième siècle. Ainsi, si on se réfère à ces données archéologiques, on constate qu'à cette époque le paysage monumental de la ville ne cesse alors de se transformer. C'est ainsi qu'en bordure du forum dans le macellum, des murs de refonds en moellons et mortier de terre subdivisent des salles ouvertes sur le portique, qui sont détournées manifestement de leur destination première et deviennent très probablement des locaux d'habitation⁽³⁾. Des déformations ont été aussi constatées dans le plan du capitole, qui présente des axes brisés et la structure des murs et des supports frappe par son hétérogénéité; cela est dû probablement au emploi des murs antérieurs à la profusion des matériaux disponibles, des blocs de grand appareil déjà taillé, de colonnes, de bases, de chapiteaux, récupérés dans les bâtiments des époques antérieures. Il ne s'agit plus de restaurer ou de décorer de nouveau, de vieux édifices délabrés tout en leur conservant leur ancienne affectation mais de déformer délibérément la destination originale de ces édifices.

R.Thouvenot nous dit à ce propos :

« A une date tardive, en effet, a vécu sur l'emplacement de la maison romaine une population qui avait perdu le souvenir sinon de son existence, au moins de la disposition des aîtres, elle a dû abattre certains vestiges de murs en reconstruire d'autres en aveuglant les portes, car il ne lui fallait que de petites demeures,

et à l'angle Nord de l'atrium, elle a bâti de petites latrines bien au dessus du sol romain... près sur le côté Nord, près des termes à la mosaïque dionysiaque, les deux pièces 1 et 2 sont des boutiques semble t-il. Le palier de cette pièce jugé trop grand a été rétréci par un mur adventice qui a permis d'aménager un grand vestibule, traversé par une canalisation en briques. De chaque côté, en bas en haut de l'escalier, devaient en dresser deux piliers connelés dont les baguettes entre les camalures ont été aplanies à la boucharde (dont ne se sont retrouvés que les morceaux), couronnés par des chapiteaux quadrangulaires qui rappellent en petit ceux du capitole; Certaines marches sont entaillées dans des pierres de gros appareil, on dirait qu'à ce moment on ne savait plus tailler ni ajuster de marches rectangulaires sur un bâti de terre ou de maçonnerie, ou qu'on n'avait plus les moyens de faire venir d'ailleurs les pierre nécessaires, on s'est servi alors des blocs provenant de quelque autre édifice démoli. »(4).

Les mêmes constatations sont aussi détectées dans le quartier Sud-Est de la ville : « Les bâtiments voisins, qui continuent vers le midi de la même rive du cardo, sont en trop mauvais état pour qu'on puisse même deviner leur destination. Mais leur grand intérêt est de nous présenter, en raccourci saisissant l'état de Banasa lorsqu'il est définitivement abandonné. Ce sont des murs la plupart du temps construits avec des blocs taillés enlevés à des monuments publics détruits, pierres à bossage, tambours de colonnes, chapiteaux, dont les intervalles sont aveuglés avec la terre et de la pierraille. Plus le bloc était volumineux mieux il faisait l'affaire, car s'il était plus difficile à transporter plus vite s'élevait le nouveau mur. »(5).

Nous ne pouvons que multiplier les exemples et les témoignages archéologiques attestant ces différents remaniements et plus encore le bouleversement architectural qui se reflète des fouilles de Banasa juste avant son abandon et nous ne pouvons que souscrire à la constatation de R.Thouvenot lorsqu'il dit : « La dernière période de Banasa que nous ne

savons encore exactement dater, vit une population moins nombreux et plus pauvre. Quelque catastrophe, comme l'arrivée des premières bandes germaniques, celles qui détruisirent Tarragone en Espagne et vinrent se faire écraser près de Tamuda sous Gallien ou quelque Invasion des Maures insoumis sous Murélin ou Probus, dut contraindre les riches à enterrer leur argent et à s'enfuir précipitamment. Beaucoup ne revinrent pas. Les survivants, pour aménager les anciennes demeures, purent piller impunément les monuments publics avec l'aveu des autorités municipales si elles existaient encore. Plus de commerce, donc plus de monnaies, la vie se retira peu à peu de ce petit centre agricole qui dut mourir obscurément. »⁽⁶⁾.

Ainsi, ce n'est pas exagéré de dire que l'architecture de Banasa en cette époque du troisième siècle, est, en grande partie, une architecture de remploi. Les données archéologiques que nous avons évoquées ci-dessus suffisent à prouver que les remaniements sont tardifs et aussi que les artisans ne manifestèrent aucun souci de soins dans l'aménagement des lieux, ce qui correspond parfaitement aux critères de cette période. Et ici, le fait significatif est que, dans beaucoup de constructions en cette époque, les artisans ont renoncé à créer librement et à produire des formes nouvelles pour l'ornementation de leurs édifices, ils se sont contentés d'emprunter les éléments d'architecture: frises, chapiteaux, bases des édifices avant déjà existé et si parfois on a inventé pour des édifices nouveaux ou remaniés des formes et des détails contemporains, ce n'est pas, dans la plupart des cas, vraisemblablement, dans l'intention de créer un style nouveau, mais pour parer à l'absence de matériel ancien, car ces formes nouvelles répondent rarement à un désir de création artistique, ce sont des imitations plus ou moins lourdes de chapiteaux déjà conçue comme c'est le cas de certains chapiteaux corinthiens tardifs trouvés à Banasa.

Nous parvenons ainsi à saisir, de manière claire, à Banasa, toute une série de remaniements attribuables, selon des critères

plus ou moins sûrs mais cependant convaincants à cette époque (le dernier tiers du troisième siècle).

C'est vrai que les dégagements anciens ont malheureusement fait disparaître beaucoup de ces vestiges, sans qu'ils soient signalés dans les maigres rapports de fouilles, ou du moins détruit leur contexte archéologique. Or, actuellement, la problématique concernant l'histoire de l'abandon romain de la Maurétanie Tingitane se pose en termes qui remettent radicalement en question la vision traditionnelle d'une décadence irrémédiable s'amorçant dès le dernier tiers du troisième siècle après J.C. surtout pour les centres situés à l'intérieur du pays. L'attention prêtée aux données archéologiques avait, depuis quelques temps, soulevé des questions posées avec précision en particulier par O. AKERRAZ en ce qui concerne Volubilis. Malheureusement ces travaux archéologiques n'ont guère dépassé cette dernière ville et il reste encore beaucoup de renseignement à tirer des autres centres notamment de Banasa où le problème reste encore posé.

Nous sommes encore incapables de décrire cet abandon d'autant plus, que les circonstances de cet acte nous sont totalement inconnues. La ville ne semble pas avoir été prise ou détruite, mais brusquement désertée. Des dépôts monétaires témoignent de la panique qui a pu précéder immédiatement ce drame sans plus. En effet, à l'heure actuelle une bonne partie de la fin de l'histoire de la ville nous échappe encore, car à part une inscription et quelques monnaies nous ne disposons d'aucun autre élément émanant des sources directs, susceptibles d'éclairer la question. De plus, des études exhaustives analysant tous les aspects de cette question en tenant compte de tous les éléments dont on dispose sont très rares même si l'essentiel des travaux réalisés par R. Thouvenot est entièrement publié, faute de fouilles stratigraphiques précises. R. Thouvenot, affirme à propos de l'abandon de Banasa qu'entre la fin du règne de Probus et les premières années de Dioclétien les maures de l'Atlas rompirent les communications entre la Césarienne et le Tingitane. Dans le

même temps les maures du Rif, Baquates ou autres, descendaient dans le Rharb et détruisaient Banasa de fond en comble » (7).

Or, comme l'ont relevé les fouilles de Banasa et comme l'a constaté aussi O. Akerraz, aucune destruction violente n'a été constatée, et cette « affirmation ne repose sur aucune observation archéologique mais sur une interprétation de l'absence de monnaies et d'inscriptions à partir du règne de probus qui est difficile à suivre » (8).

En effet, les plus récentes inscriptions découvertes à Banasa sont celles en l'honneur d'Aurélien et sa femme Ulpia Severina datées en 272-275 et comme le remarquait J. Mario : « S'il n'y avait pas à Banasa de dédicaces à Aurelien et à Ulpia Severina, son épouse, peut être même à Carus, on pourrait croire que toute vie s'y était éteinte dans les derniers jours de 270 » (9).

Quant aux monnaies les plus récentes découvertes, elles sont trois pièces d'Aurélien et deux de Probus. Aucune monnaie correspondant aux règnes de Carus et Numerien ne fut découverte à Banasa. Ces cinq pièces caractérisent bien l'économie pauvre de la ville à cette époque et témoignent aussi d'une mauvaise circulation monétaire.

Nous ne comptons guère s'étaler sur ce problème de l'abandon de Banasa qui nécessite une documentation assez argumentée, mais signalons tout de même que dans la période qui nous occupe c'est à dire le dernier tiers du troisième siècle, le pays possède déjà au point de vue historique certains traits communs avec les autres provinces de l'empire romain ; nous ne trouvons presque nulle part dans cet empire un état de chose tranquille, consolidé, il s'agit plutôt, d'une époque troublée, caractérisée par les guerres qui s'étendent dans tout l'empire. La Maurétanie Tingitane comme on l'a déjà démontré, s'ouvre davantage sur la Bétique que sur le reste du continent africain. Il paraît donc logique de supposer que cet abandon ait été associé, ne serait ce que d'une manière indirecte aux bouleversements qui ont secoué l'Occident romain. Mais nous ne pensons pas que cet acte a été instantané car la nature même et la maladresse des

différents remaniements effectués à Banasa à cette époque, et que nous avons nuancés, attestent d'une certaine survivance dans cette ville, probablement jusqu'à une époque plus récente que celle déjà proposée pour l'abandon de la ville de Banasa. Nous rejoignons ainsi la constatation d'AKERRAZ sur ce site lorsqu'il dit :

« La continuité de l'habitat à Banasa et à Thamusida, au IV siècle, peut-être même après, n'est pas démontrée les fouilles de ces deux cites ont relevé plusieurs remaniements tardifs et des vestiges installés au-dessus de maisons devant appartenir aux mêmes étapes de l'habitat que nous avons décelé à Volubilis»⁽¹⁰⁾.

Conclusion

La répartition chronologique des chapiteaux de Banasa, si elle ne permet pas de saisir une évolution nettement distinguée de ces éléments d'architecture il est possible néanmoins de discerner à certaines époques des groupes de productions relativement homogènes. Mais là encore il faut rappeler les difficultés que l'on rencontre dès qu'on cherche plus de précision faute de documentations bien datées.

Ainsi, Banasa apparaît comme une ville qui avant l'annexion totale de la Maurétanie Tingitane nous offre une gamme de chapiteaux dont l'exécution paraît souvent maladroitement sommaire, reflétant l'influence punique.

L'époque impériale brille, quant à elle, par une certaine évolution dans le goût comme dans l'exécution des chapiteaux. Nous trouvons les mêmes motifs ornementaux qui caractérisent l'art greco-romain.

L'époque allant de la fin du deuxième siècle après J. C. jusqu'à la première moitié du troisième siècle est celle de l'apogée de l'architecture à Banasa, les chapiteaux sont plus évolués, le travail est plus soigné et plus du prototype du chapiteau corinthien classique que l'architecture romaine a diffusé.

Ainsi les chapiteaux de Banasa donnent une image d'une architecture qui d'une part est commencement et renouveau et

qui d'autre part reprend des traditions antérieures multiples, parmi lesquelles il faudrait faire une part de celles qui sont d'origine locale, car nombre de particularités trahissent une certaine prédilection pour l'emploi de certains éléments, particularités qui, probablement, ne tiendraient pas seulement à la fantaisie du décor, mais à une préférence délibérée d'un certain style provincial local.

- (1) - XENOPHN, *Mémoire sur Socrate*, I.
- (2) - G. PICARD, *Le septizonium de Cincari*, *Monuments*, Piot, 1962, p. 89.
- (3) - R. TOUVENOT, *P.S.A.M.*, 1951, p. 82.
- (4) - R. TOUVENOT, ALLUQUET, « *Le Macellum et les bâtiments* » *P.A.A.M.* 9, 1951, p. 82.
- (5) - *Ibid*, « *Le quartier Sud-Est de Banasa* » *P.S.A.M.* 9, 1951, p. 74.
- (6) - R. THOUVENOT, A. LUQUET, *P.S.A.M.*, XI, 1954, p. 57.
- (7) - R. THOUVENOT, *Une colonie romaine Banasa* p. 67.
- (8) - Aomar AKARRAZ, *Le Maroc du Sud de Diocletien aux Idrissides*, thèse de doctorat, Paris, IV, 1985, p. 36.
- (9) - J. MARION, *Antiquités Africaines*, T, 12, 1978, p. 209-210.
- (10) - AO. AKERRAZ, *Op. cit.*, p. 209.

متابعات

- نص قرار بلدية سالا سنة 144 م
- وثائق عرفية : منطقة دادس
- أهل فاس بعيون أندلسية
- البلديون الفاسيون

نصر قرار بلدية سالاسنة 144 م والظروف المحيطة به

مصطفى اعشي*

بعد مرور حوالي مائة سنة على احتلال الرومان للجزء الشمالي الغربي من موريطانيا التي أطلقوا عليها موريطانيا الطنجية نسبة إلى مدينة طنجة ورغم محاولاتهم الساعية إلى إقناع الموريين، بشتى الوسائل والإغراءات، بقبول هذا الاحتلال والتعامل معه، إلا أنه يبدو أن الرومان فشلوا في سياسة استمالة الموريين إلى جانبهم، مما أدى إلى وجود حالات انعدام الأمن والاستقرار، واستمرار انتفاضات وثورات المجموعات البشرية المورية. وعلى الرغم من أن النصوص التاريخية الرومانية والنقاش الأثرية لا تمدنا بمعلومات كافية حول هذه الانتفاضات والثورات فإنه، بين الفينة والأخرى، يستخرج رجال الآثار والباحثون شهادة من تلك الشهادات التي تشير إلى انتفاضات الموريين ورفضهم للمحتل الروماني. كما أننا نستعين، لقياس حالات الثورات أو الهدوء، على مجموعة من المؤشرات نحاول أن نستخلص منها الحد الأقصى من المعلومات. فبالنسبة لحالات الثورات والاصطدامات مع الرومان نتساءل مثلاً: هل أنشئت أسوار للمدن؟.

وهل تم بناء قلعة عسكرية أو معسكر ؟ - وهل عين حاكم للولاية يتمتع بصلاحيات استثنائية ؟ - وهل شمل هذا التعيين ولاية مجاورة ؟ - وهل استقدمت تعزيزات عسكرية من خارج الولاية ؟. وفيما يتعلق بحالات السلم وعودة الهدوء، فتساءل : هل سرح الجنود الذين أنهوا خدمتهم؟ لأن عملية التسريح لا يمكن أن تتم قبل عودة الهدوء. وهل رفع منبج للسلام؟ وهل وقعت معاهدة سلام؟. وهل أقيم موكب للنصر؟ وهل خلد النصر على نصب تذكاري ؟ لأن منبج السلام ونصب النصر يستلزمان القيام بحرب قبل ذلك.

وتصبح هنا مذابح السلام ونصب النصر شواهد على انعدام الاستقرار.

والجدير بالإشارة هنا، أن حالات المواجهة والاصطدام بين الموريين والرومان ينظر إليها من زوايا مختلفة: فمن جهة الموري، فهي مقاومة و دفاع وثورة ضد الأجنبي و دفاع عن أرض الآباء والأجداد وملحمة المعارضة الشرسة والاستعادة البطيئة لأرض ضائعة.

ومن وجهة نظر الروماني، فتري على أساس أنها قصة أمجاده وينظر إلى الثوار كصوص وعصابات تهدد أمن واستقرار مناطق النفوذ الروماني.

وبما أن اللغة الأمازيغية لم تترك لنا، لحد الآن نصوصا مكتوبة تتعلق بهذا الموضوع فإن النصوص والنقاش المتوفرة هي نصوص عسكرية رومانية بالدرجة الأولى، تتعلق بحملات القادة العسكريين الذين يقدمونها محاطة بروية عقلانية في الوقت الذين يعرضون فيه أعمال الثوار المور على شكل فوضوي ، ولا يتعرضون فيه لأهداف وبواعث الثوار ومطالبهم لذلك يجب أن نتحرى وأن نضع على المحك كل ما يذكره العسكريون الرومان، والنتائج التي يعتقدون أنهم حققوها والتي يركزون فيها على الصراع بين الخير المتمثل في الرومان، والشر المتمثل في المور، طوال سنين احتلالهم لموريطانيا الطنجية.

ومن تلك النصوص التي تشير بطريقة غير مباشرة إلى حالات عدم الاستقرار في المنطقة المحيطة ببلدية سالو، نص قرارها الذي يعود، على ما يبدو،

إلى حوالي 144م والذي سنحاول تقديمه ودراسة جميع جوانبه والظروف المحيطة به.

منذ بداية القرن الثاني الميلادي - وخاصة في عهد الإمبراطور الروماني هادريانوس (117 - 138) (1) - عرفت موريطانيا الطنجية انتفاضات وثورات قامت بها العديد من المجموعات البشرية المورية التي تعرضت مجالاتها لعمليات تحديد من طرف السلطة الرومانية. وتعتبر عمليات تحديد مسار تحركات المجموعات البشرية ومجالاتها نقط إثارة ومواجهة اصطدام بينها وبين القوات الرومانية، بل وإشعال الثورات، وهذا لا يشار إليه في المصادر الرومانية إلا بطرق غير مباشرة. وعلى الرغم من أن هذه المصادر لا تخبرنا بذلك بطريقة صريحة، فإن مقاومة المور تمكنت من إيقاف وتثبيط عزم المبادرات الرومانية مرات عديدة عندما تفرض على القوات الرومانية الاكتفاء بالدفاع. وكمثل على ذلك، حالة الهجوم على كارطينا (تينس الحالية بالجزائر) التي يمكن اعتبارها هجوما موريطانيا مضادا لمواجهة استيلاء روما على جزء من مجال المجموعات البشرية. لأن رد الباكوات كان يتمثل في الهجوم على مدينة بعيدة عن مواطنهم بحوالي 400 كم.

وأن هجوما مضادا من هذا النوع وإن لم ينجح، لا يمكن أن يحدث دون أن تكون له نتيجة. وهذه النتيجة، التي يمكن اعتبارها نوعا من الردع، تتأكد إذا تقبلنا رأي فريزول القائل: "ليس ممنوعا أن نعتقد في هجوم كبير لا يستهدف في الأساس كارطينا، إلا أنه وصلها بعد عدد من المدن التي لم تذكر" (2). ومهما كانت الأسباب، من الملاحظ أن الانتفاضات الخطيرة يمكن أن تحدث لأسباب لا تمس مباشرة أو ظاهريا حياة الإقليم، مثل سد الطرق التقليدية، المؤدية لمجالات الانتجاع في وجه المجموعات البشرية في الشرق، مما جعلها تتجه غربا للبحث عن مجالات أخرى. وهذا ما أدى إلى تكاثر الضغط على المجموعات الموجودة في موريطانيا الطنجية. وتشهد الشهادات العسكرية المكتشفة في كل من ويلي وبناسا (3) بوجود القلاقل والانتفاضات اعتمارا للزيادة في عدد أفراد الجيش المرابط في موريطانيا الطنجية.

كما تشهد على حالة انعدام الأمن نقائش عشر عليها في موقع ساللا (شالة الحالية) مكتوبة على قاعدة تمثال، وتتضمن ثلاث نقائش (4) (أنظر الصورة رقم 1): على الواجهة الأمامية وعند قدم التمثال نقيشة التقدمة المرفوعة لقائد الحامية العسكرية ماركوس سولبيكيوس فيليكس. وعلى الواجهة اليمنى للقاعدة نص قرار مجلس بلدية ساللا.

أما الواجهة اليسرى فتحمل لائحة تتكون من ثمانية وثلاثين (38) اسما هم عبارة عن أصدقاء قائد الحامية.

نص التقدمة الموجودة على الواجهة الأمامية: (إلى ماركوس سولبيكيوس ابن ماركوس (الملقب) فيليكس القاطن بروما والمسجل (كمواطن روماني) في قبيلة كويرينا. محررهم وحاميمهم (الذي شغل المناصب التالية) قائد الفصيلة الجرمانية الأولى، وتربيزون عسكري للفرقة الفلافية السادسة عشرة، الحازمة والأمنية وتربيون عسكري للفصيلة الأولى الثالثة والبالغ تعدادها ألف رجل. ثم عين بعد ذلك واحتفظ (بمنصبه) للقيام بإحصاء (المواطنين وما يملكون) في قسم من ولاية أرمينيا، وفي كبادوشيا. وأصبح قائدا للجنح الثاني السوري المكون من المواطنين، فنظرا لمحبتة لبلدية ساللا وإحسانه لها، رفع له أصدقاؤه هذا التمثال ووضعوا بجانبه قرار مجلس العشرة (5).

أما النص المتعلق بأصدقاء قائد الحامية فيتضمن ثمانية وثلاثين اسما مكتوبة على عمودين، والأسماء هي :

العمود الثاني

- ك. فابيوس فابريسيانوس
- ك. فاليريوس مارتياليس
- م. فابيوس فيبيليوس
- ك. انيوس كابيطو
- ك. ايونيوس كاسيلنوس

العمود الأول

- م. فاليريوس فابولوس
- ك. فابيوس فيفاتيانوس
- م. أنطونيس باسيانوس
- ك. فاليريوس ساترونينوس
- 5 ك. فابيوس فيدوس

- ل. فال. كورلبنوس ساتورنينوس
 م. فالبريوس بوليو
 ك. ايونيو او فنيانوس
 سيكس. انطونيو باسينوس
 م. كاسيوس كاسيانوس
 ت. كاسيوس باسيانوس
 ت. ايلبوس افريكانوس
 ك. اتبليوس زوباس
 ل. كونيلىنوس فيكتور
 كم. كورنيليو كورنيليانوس
 كن. فاليريوس بريموس
 ل. فالبيوس املندوس
- ل. فالبيوس فابيانوس
 ك. كاسيوس ساتورنينوس
 ل. فالبريوس كالوس
 ك. فاليريوس روكاطوس
 10 ب. بوستيمبوس هير ميساندير
 ك. انطونيس بريسكوس
 ك. فالبيوس موديستوس
 ك. فالليريوس افيتوس
 م. فالبريس كابيتو
 15 ك. بونتوس كابيتولينوس
 ل. هورتينوس موروس
 ك. فالبيوس بوننس
 م. ايونيو كاسيانوس
 ك. هيرينوس توسكوس
 20 ك. فاليريوس ساتورنينوس وت. ايلبيوس زوسيموس (6)

وفيما يتعلق بنص قرار مجلس العشرة الذي يتضمن ثلاثة وثمانين سطرا، فهو:
 "في عهد لوليوس افيتوس وستاتيليو ماكسيموس [144م] وبخمس أيام قبل
 فاتح نوفمبر [28 أكتوبر] اجتمع مجلس شيوخ ساللا في الكورية الاولى.
 وبعد أن استمع الأعضاء إلى كايوس فاليريوس روكاطوس، وببليوس
 هيرمساندير - اللذان يكونان مجلس الاثنتين [بالبلدية] - إلى الخبر المتعلق بتعيين
 خلف لسولبيكيوس فيلكس، ونظرا لنماذج أعماله الفريدة التي خلفها، فمن الأليق
 الآن، خاصة وبعد أن اعترف له العموم بالجميل فيما سبق، أن تكافئه بالمرّة [هذه
 المكافئة] المستوحاة ليس من الود فقط ولكن من حكم ذي تعليل واضح.

فنظرا لأنه كان من اللازم الإنعام عليه بالأمجاد الجديدة في كل مرة [مقابل] الخدمات الجديدة التي أداها للجماعة، وأعمال الخير المقدمة للأشخاص، ولأنه من جهة أخرى [كان من الواجب] العمل على إبراز الأمل المماثل أمام أنظار أولئك الذين سيتصرفون بالمثل. وعن سؤال حول معرفة نوع الخلاصة التي ستعطي لهذا المحضر، فقد وافق رجال العشرة بالإجماع على الرأي الذي صاغه كوينتوس كورنيليوس كابيلا واتخذ القرار التالي:

(نحن السلويون)

"اعتبار لكل أعمال الجيد جدا والناذر جدا القائد سولبيكيوس فيليكس الذي جعلنا لا نتمنى له أحسن من القدر الذي جعله يولد مواطنا [رومانيا]، ويرتقي فيما بعد إلى هذه الوضعية البارزة، وهو الجدير بالقرارات السماوية التي أسندت إليه ثلاث قيادات من مستوى الفرسان، قبل أن يتجاوز مرحلة الشباب، والجدير بدروس اورتيديوس هونوراتوس، الشخصية المتتورة ومعلمه الأكيد في نشاطه المدني والعسكري. وبما أنه كان بإمكانه أن يلمس من بعيد نموذجا رفيع المستوى، ظن أنه لا يمكن إيجاد شيء أكثر شرفا لكرامته، عن رضى وال عظيم، ولا شيء يستسيغه في نكراه إلا حبنا وذلك بتحريرنا، - ومع ذلك بالتالي هي أحسن - عملا برصانته، من العنف والسلب الذي كنا قد اعتدنا عليه (7). أو أننا نكتشف في شؤون ماليتنا كونه حكيما متسامحا دون ضعف، وعادلا دون تشدد. وفيما يتعلق بالمشاكل الصعبة التي تواجهه في الأوقات المظلمة، وبالخسائر المتساوية للعموم والخواص، فيوضحها ببصيرة ويقضي فيها بالعدل، وذلك إما بإحاطة بلديتنا في نقطها الخطيرة، بجدران جد قوية وبأثمنة جد منخفضة، وأما أن يعالج [الأمور] ويقضي فيها بسرعة وبحكمة]."

فأمام ضغط صعوبات التمويل اقتطع من زاد فرقته، وغالبا لفائدة [سكان البلدية]، ودائما على حساب جنوده، واعتبارا أيضا للخصال التي تشهد له بروح الوفاء، وبأنه معتدل أكثر من الحدود التي بلغها أسلافه، ومتواضع، ووديع وعفيف،

ويحترم مجلس الشيوخ: و[كان] صديق الشعب وشغوفاً بواجبه، دبر لنا المرور الحر إلى غاباتنا وضيعاتنا، لدرجة أنه ضعف من الحرس لحماية العمال. وفضلاً عن ذلك فحياته مليئة باللطف، وفي جميع الظروف، وقد أظهر انشغالا كبيرا بالعدل والمساواة، فإذا [تعلق الأمر] باستعمال الأملاك الجماعية بين أعضاء الجماعة، كان يتقدم الآخرين ليس اعتماداً على سلطته، ولكن لالتزامه. ونحن نعتبر سهره دائماً كجميل مستساغ في الحاضر وكنموذج صحي للمستقبل.

واعتباراً لكل هذه الأعمال وهذه السيرة، فقد اتفقنا في السابق على جعل سولبيكيوس فيليكس عضواً في مجلس العشرة مع منصب عضو سابق في مجلس الاثنين، وهو القرار الذي وافق عليه والينا الممتاز بالترحاب. والآن، وبالإضافة إلى ذلك، وبعد أن عين له الآن خلفاً، فإننا نفكر في ذهابه بكثير من الإبراك المشوب بالخوف لدرجة أننا بالكاد، لو نستطيع تخفيف الأفق المحزن لحسرتنا، بالأمل الكبير في ترقيته في المستقبل، [ولأجل ذلك] فقد ارتأينا أن نكافئ بأعلى مناصب الشرف، الرجل الذي ظل يقدم لنا الخدمات الاستثنائية، كما نلتمس في المقابل من الوالي، الكثير التسامح والسعيد باستمرار، من ثناء قواده عليه، لدرجة أنه الوحيد الذي يعرف أنه يعود إليه الفضل في أن يتقبل منا هذه الحظوة: كما أننا بالتالي نريد أن نبرئ نمتنا [تجاه سولبيكيوس]، وذلك بأن يرخص لنا بإقامة تمثال لفائدة قائده وزميلنا في مجلس شيوخ سالا، حتى لا نضيع الشخص الذي نتذكر حسناته. كما وأنه في نفس المكان الذي كرمه رجال البلدية الشرفاء بالتمثال، الذي أقيم له اعترافاً بالخدمات التي قدمها للجماعة، لا يعيب شيئاً - الغياب الذي يعني الجمود - هذه الجماعة التي كافأته بنفسها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، السماح لنا بإرسال بعثة إلى شخصية الأمير المقدسة تمجد سولبيكيوس فيليكس الذي كان بالنسبة لنا القائد الذي يجب أن يكون في هذا القرن الأغسطسي، وتحت إمرة التوجيه السليم لأوتيديوس هونوراطوس [وفي انتظار ذلك نقترح] تكليف فابيوس فيديوس وفاليريوس بولوبان بأن يقدموا للوالي الجليل دلائل هذه المحبة العمومية

التي يعبر عنها مجلس الشيوخ والشعب [يساللا]، وأن يشرحوا له [أولا وقبل كل شيء] بأننا لم نصوت لتكريم سولبيكيوس وكل ما له في رقبنا، لكن فقط ما خلف لنا تواضعه لمكافأته(8).

المعلومات التي يقدمها لنا النص

يحدثنا هذا النص عن قائد الحامية العسكرية المرابطة ببلدية ساللا - من الجناح السوري الثاني المكون من المواطنين الرومان - واسمه ماركوس سولبيكيوس فيليكس. قدم هذا القائد حسب نص العشرة لساللا وسكانها خدمات منها:

- 1 - أنه دافع عنهم وحماهم من العنف والسلب الذي تعودوا عليه مدة طويلة. وأصبح بإمكانهم المرور إلى غاباتهم وضيعاتهم لاستغلالها، هذا بالإضافة إلى أنه كان يضاعف من الحراسة لحماية العمال أثناء مزاولتهم لأعمالهم.

2 - أحاط مدينة ساللا في نقطها المهددة بجدران قوية.

3 - أمام الصعوبات التي كانت تعترض ساللا في تموين سكانها اضطر إلى أن يقطع من زاد الحامية لصالح السكان.

ولأجل هذه الأعمال وغيرها أقام له أصدقاؤه تمثالا بالمدينة تكريما له وتخليدا لذكراه.

من خلال هذا النص تتضح حالة انعدام الأمن والاستقرار في ساللا وضواحيها في العبارة (ad solitis niurus pe corumqcue iactura) التي تشير بوضوح إلى وجود سرقات دورية معتادة، يعني أنها كانت منذ مدة. فكلمة سوليتيس (solitis) التي تعني بصفة اعتيادية، تؤكد أن السلب والنهب لم يكن وليد الساعة، بل كانت المنطقة تعرفه منذ مدة. لذا يحق لنا أن نتساءل: متى بدأت هذه الحالة؟ ومن يقوم بها وما هو الدافع لذلك؟

بالنسبة لتاريخ بداية السلب والنهب في نظر الرومان، والذي يمكن أن نسميه تاريخ الانتفاضات، أو هجومات المور على ساللا. من الصعب الإجابة على هذا السؤال بالضبط نظرا لعدم توفرنا على وثائق تشير إلى ذلك.

وكل ما يمكن أن نقوم به هو اقتراح بعض التواريخ انطلاقاً من تاريخ تكريم سولبيكيوس فيليكس ورجوعاً إلى الوراء إلى تاريخ تعيينه على رأس الحامية العسكرية بساللا.

فبالنسبة لتاريخ التكريم حدد في 28 أكتوبر 144م، وهو التاريخ الذي أصدر فيه مجلس شيوخ ساللا القرار الخاص بتكريمه، بعد أن اتضح لهم أنه سيعوض وسيغادر ساللا بعد انتهاء مهمته فيها. ولكن هل تاريخ التكريم وتعويضه يشيران بالفعل أيضاً إلى أن حالة الاضطرابات قد انتهت - ولو مؤقتاً - أم أنها لا تزال مسترسلة؟ وهل مجيئه صادق وجود هذه الهجومات أم أنه جاء للقضاء عليها؟ يعني هل كانت هذه الأحداث هي السبب في مقدمه إلى ساللا مع الجناح السوري الثاني؟

من الصعب القطع في هذا أو ذلك الآن، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن الزمن الذي تتطلبه مختلف الإجراءات التي تسبق إقامة تمثال التكريم، تجعلنا نعتقد أن الأحداث التي تعرضت لها ساللا وضواحيها وقعت قبل سنة 142م، يعني في نفس الوقت الذي كانت فيه السلطة الرومانية تتفاوض زعيم الباكوت وتتعم عليه بالمواطنة الرومانية(9).

فهل الحالة في شمال وجنوب مدينة ساللا هي التي دفعت بحاكم ولاية موريطانيا الطنجية إلى التفاوض مع الباكوت سنة 140م وعقد الصلح معهم حتى يتفرغ لمواجهة الحالة؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإن سنكون الأحداث التي عرفتها ساللا تعود إلى ما قبل سنة 140م أي إلى بداية عهد حكم الامبراطور أنطونين (138 - 161م). وهذا يعني أن مدينة ساللا كانت تعرف الاضطرابات والهجمات منذ سنة 140م، وربما قبل ذلك، لدرجة أن السلويين يعترفون في قرارهم بأن الهجمات كانت عملية اعتيادية (Solitis iniuris). فما دامت اعتيادية، فقد استمرت إن حالة الاضطرابات مدة طويلة. كما أنه لا يبدو أن هذه الأحداث توقفت أو قضى عليها لأن حاكم الحامية بساللا غير، وربما تغييره يدل على فشله أكثر مما

يدل على نجاحه. وأن الوفود التي أرسلت إلى الوالي والامبراطور كان الهدف منها الدفاع عنه وعدم معاقبته أكثر منها تكريمه.

والمرجح أن طابع الانشغال بأحداث موريطانيا الطنجية، التي بدت مؤثراتها الأولى في ساللا ثم تكررت وترددت بين باقي المجموعات البشرية الموريطانية إلى أن انتشرت في الموريطانيين عند نهاية 144م، تسبب في تغيير المسؤولين الكبار كذلك، وكانت الاستعدادات في روما قائمة في محاولة لوضع حد لها. ويخبرنا قرار ساللا أنه كان على رأس الولاية وال ينتمي إلى مجلس الشيوخ وهذا دليل على العناية الخاصة التي تولدت نتيجة للحالة القلقة في ولاية موريطانيا الطنجية، التي كان ولايتها عادة ينتمون إلى فئة الفرسان. ويبدو أن الوالي الجديد أوتيديوس هونوراطوس كان يحكم الموريطانيتين الموحنتين تحت إمرته (القيصرية والطنجية) بصفته وكيلا للامبراطور ويتحكم في الفرق العسكرية الرومانية. وأن تعيين شخصية من هذا المستوى دليل على وجود تحركات خطيرة بالطنجية سنة 144م. ولأن العمليات العسكرية ستشمل الطنجية والقيصرية في السنة التالية حسب رأي كاركوبينو (10) وبارانيز (11)، إذ أن إسناد مهمة فوق العادة لهذا الوالي تتضمن سلطات وإمكانات استثنائية مما يعني أنها كانت تتجاوز من بعيد إطار أحداث ساللا وأن موضوع هذه المهمة عسكري بالدرجة الأولى. وهذا يؤكد أنه في سنة 44م حينما صوت مجلس شيوخ ساللا على قرار التكريم فإن العمليات العسكرية المهمة قد بدأت، رغم أننا لا نجد لها صدى في نقيشة ساللا. هذه النقيشة التي اهتمت بمختلف التفاصيل الدقيقة للتكريم بينما لم تتعرض ولم تشر من قريب أو بعيد للانتصارات التي أحرزها القائد سولبيكيوس فيليكس لو كان هناك انتصار. ولذلك فإن تعيين أوتيديوس هونوراطوس ليس له علاقة بتدبير مستعجل اتخذ بسرعة تحت ضغط الأحداث، بل يبدو وكأن الأمر يتعلق بإجراء يدخل في إطار مخطط عملي أكثر اتساعا يستهدف تهيب هجوم عام ضد المور (12) لحماية بعض المستعمرات الرومانية الواقعة على الشاطئ في الموريطانيتين القيصرية والطنجية، ونشئت

قوات المور (13). وهذا ما يرجح أن أحداث سالا كانت بداية فقط لأحداث أخرى ستتشر وتعم الموريطانيتين، وبالتالي فإن تغيير قائد الحامية سولبيكيوس فيليكس لا يعني بالضرورة انتهاء الأحداث، بل ربما قد يعني عدم نجاحه في القضاء عليها. وإذا راجعنا حياة الإمبراطور انطونين الورع (132 - 161م) في تاريخ اغسطس نجد أنه قام، بواسطة وكلائه، بعدد من الحروب (14) منها حروب بموريطانيا، وذلك على الرغم من أن المؤلف لم يميز بين موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية، فهل هم مور القيصرية أم مور الطنجية أم هما معا؟ ربما كانت الحالة في الموريطانيتين جد قلقة مما استدعى المبادرة الإمبراطورية، فبدأت العمليات سنة 145 بالقيصرية واستمرت إلى سنة 147، حينما أبحر تيتوس فاريوس كليما نص من اسبانيا مع تعزيزات في اتجاه موريطانيا الطنجية (15).

واعتمادا على بوزانياس فإن آخر الثوار طرد في اتجاه الأطلس على أطراف ليبيا (16). كما يبدو أن الهجومات المورية انتهت سنة 150م، لأنه في هذه السنة أصبح لموريطانيا القيصرية واليهما الخاص. وهذا يعني أن جمع الولايتين بيد أوتيديوس هنوراطوس انتهى سنة 149م أو بداية سنة 150م (17). وبذلك أصبح لكل ولاية حاكمها الخاص بها من الفرسان كما يحدث في حالات السلم.

إعفاء سولبيكيوس فيليكس راجع لفشله؟

وبما أن الحالة ظلت قلقة عند ذهاب سولبيكيوس فيليكس، فهذا يعني أنه لم يقض على الهجومات المورية، وبالتالي فإنه فشل في مهمته. ويشير كاركوبينو إلى ما يشبه هذا حينما يقول: " لقد كان يدخل في حوار مع العصابات، وكان يناقش معها المبلغ، ولكن دون مناقشة المبدأ وهو الفدية" (18). إلا أن روبرتا يرفض هذا الرأي ويعتقد بأن سولبيكيوس فيليكس لم يشتر هدوء السكان لأن كلمة ليميتر (Limiter) التي تعني العنوبة أو الابتسامة تعني الشيء الكثير مما فعله، إذ كان ينظم دوريات ليلية. وهذا إجراء رادع، فالقائد لم يلق بفرسانه على السكان المجاورين ولم يستعمل الهجوم أو الهجوم المضاد، بل عمل ببساطة على أن يفهم كل ثائر أو

منتقض أو كل مجموعة ثائرة أنه بإمكان دوريات الجناح السوري التي تقضي الليل في الخارج أن تفاجئته (19). وكلام كاركوبينو أو روبوفا يؤكد أن سولبيكيوس لم يواجه الثوار مواجهة فاصلة، بل حاول شراء هدوئهم بالمال وتنظيم دوريات لتخويفهم. وسواء قام بهذه العملية أو بتلك أو هما معا، فإنه على ما يبدو لم ينجح فيهما معا. وعدم نجاحه في القضاء على الثوار وإعادة الهدوء إلى منطقة ساللا هو الذي دفع الوالي إلى تغييره وتعويضه، وربما أخذ زمام الأمور بيده، وإلا ما معنى جمع الولايتين في يد واحد وإعلان الحرب على المور لمدة خمس سنوات حسب بوزانياس (20) بين 145 - 149 ؟

فإذا رجحنا أن سولبيكيوس فشل في مهمته، فلما أذن أكرمه مجلس شيوخ بلدية ساللا ؟

ربما كان وجوده - في حد ذاته بفرقة بينهم، كافيا لإعادة نوع من الطمأنينة بين سكان ساللا وبالتالي الأمل في القضاء على الثوار. إلا أن استمرار الهجمات المورية تغلبت على جهود قائد الحامية الذي لم يعد قادرا على تقويم الحالة لصالحه، ولذلك فيمكن اعتبار ذهابه نوعا من التوبيخ له. ونظرا لأن له علاقات خاصة مع أعضاء مجلس شيوخ ساللا، ولأنه ساعد السكان في عدد من الأمور كتقويم مالية المدينة وتوفير المؤونة. فاعترافا له بهذه الخدمات قرر مجلس شيوخ ساللا إرسال وفدين: أحدهما إلى روما للدفاع عنه أمام الإمبراطور والآخر إلى والي الطنجية - الرئيس المباشر له - للدفاع عنه أيضا. وعلى الرغم من أن سولبيكيوس فيليكس لم ينجح في القضاء عسكريا على الثوار إلا أنه نجح في تحصين ساللا وإحاطتها في نقطها المهددة بأسوار قوية وبأثمنة جد منخفضة. وبناء السور في حد ذاته دليل آخر على حالة انعدام الأمن في ساللا وضواحيها. لأن السور عبارة عن جهاز دفاعي بالدرجة الأولى واستجابة لحالة انعدام الأمن الحقيقية أو الممكنة. وبناء السور عم الهدوء نسبيا بين سكان ساللا، وهنا يكمن نجاح سولبيكيوس النسبي وذلك على الرغم من أن روبوفا يرى أن بناء السور ليس من

الضرورة أن تكون له علاقة بانعدام الأمن لأنه من الممكن أن يكون عبارة عن مرحلة في تطور المدينة (21) ولارتقائها إلى مرتبة أعلى. كما أن السور يعطي للمدينة إجلالا جديدا بالإضافة إلى أنه مفيد لها في الحاضر والمستقبل (22).

لماذا كل هذا ؟ لأن بناء السور يتطلب أموالا، وهذه الأموال يدفعها سكان المدينة. ولذلك فبناؤه لا يكون إلا عند الضرورة. وبالطبع الضرورة في ساللا هي حالات انعدام الأمن، فإن السور بني لحماية سكانها من هجومات الثوار المور.

من هم الثوار وما هي الدوافع التي جعلتهم يثورون ؟

ولكن من هم هؤلاء الثوار أو "اللصوص"، والعصابات حسب المفهوم الروماني الذين يسلبون وينهبون كما يسميهم نص سولبيكيوس فيليكس ؟ وهل هم في الحقيقة لصوص وعصابات وقطاع الطرق أم أنهم مجموعات نائرة رافضة للاحتلال الروماني ؟ أعتقد أنه من الأفضل إزالة فكرة قطاع الطرق واللصوص لأنه على ما يبدو هم السكان الأصليون الذين اضطروا للدفاع عن وجودهم ونمط عيشهم وذلك بالقيام بعمليات هجومية ضد الرومان الذين اقتطعوا من مجالاتهم.

فمن هم هؤلاء الثوار ؟

هل هم الباكولات أم الكاوني أو السالينسي أو الأوطولسول أم مجموعات بشرية أخرى لا نعرف عنها شيئا ؟ لأن أعداء روما الحقيقيين هم أولئك الذين لا يتفاوضون معها والذين لا تظهر أسماؤهم إلا نادرا في الكتابات كما يقول فريزول (23). ويبدو أنه ومنذ البداية يجب أن نحذف الباكولات من اللائحة لأنها وقعت مع الرومان معاهدة سلام عام 140م. أما الكاوني، فلم تذكرهم أي كتابة أو نقيشة إما كثور، وإما كأصدقاء لروما. ولذلك فمن الصعب أن ننسب إليهم هجومات على ساللا وضواحيها، وذلك على الرغم من أن مواطنهم كانت قريبة منها. وفيما يتعلق بالسالينسي أو السلويين فهي المجموعة البشرية التي تتعرض أرضها للهجومات

فهل هم يدخلون تحت النفوذ الروماني أو أنهم طردوا من أراضيهم التي استولى عليها الرومان ؟

ويبدو أن جزءا كبيرا من مجالات مواطنهم كانت تقع خارج النفوذ الروماني. ولذلك فليس من المستبعد أن يقوموا بالهجمات على ساللا أو على الأقل أن يساهموا فيها، إلا أن الوثائق الإيبغرافية لا تساعدنا في هذا المجال لأنها لا تتحدث مطلقا عن جماعات بشرية سلاوية أو عن هجوماتها مما يرجح سكونها وهذوها وربما موالاتها للرومان. وتبقى مجموعة الأوطولول التي تعيش حياة الترحال أو نصف الترحال والتي تنزل في فصل الشتاء إلى السهول الساحلية المحصورة بين أكادير ونهر تانسيفت، وفي الصيف تصعد إلى الشمال إلى ضفاف الأودية المحصورة بين وادي أبي رقرق ووادي الملاح بحثا عن الكأ والمرعى (24) فهل هذه المجموعات هي التي كانت تهاجم ساللا وضواحيها ؟

ليس من المستبعد أن تكون هي ، خاصة وأن بليينوس الشيخ أشار إلى حالة انعدام الأمن حوالي المدينة في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي قائلا: "إن مدينة ساللا الواقعة على نهر يحمل نفس الاسم، تقع قرب الصحارى المملوءة بقطعان الفيلة، بل والأخطر من هذا شعب الأوطولول" (25).

ينكر بليينوس الشيخ في هذا النص، أن الأوطولول كانوا يهاجمون المنطقة القريبة من ساللا منذ النصف الثاني للقرن الأول الميلادي، فهل ظلوا يهاجمون المنطقة إلى غاية القرن الثاني الميلادي؟ وهل هم الذين هاجموا ساللا وكرروا هجماتهم عليها والذين أشار إليهم نص ساللا ؟ وهل هم الثوار الذين ألقوا سكان ساللا، وبالتالي الامبراطورية الرومانية مما دفع الامبراطور إلى تعيين وكيل له من فئة الشيوخ للقضاء على الثورات المورية التي انتشرت في الموريطانييتين، ربما انطلاقا من ضواحي ساللا ؟

من المرجح أن الأوطولول هم الثوار والمهاجمون، ويؤكد هذا الرأي الباحثة المعاصرة ماركريت راشي التي تقول: "هاجم الأوطولول مدينة ساللا من

الشمال والجنوب مما حال دون تموين المدينة" (26). أما كاركوبينو فيكتفي بتأكيد ما ذكره بليينوس الشيخ (27) مما يوحي بأنه يعتقد أن الأوطولول هم أصحاب الهجومات على سالا، ومما يعني استبعاد الآراء الأخرى التي تقترض السلاينسي والكاوني. فإذا رجحنا أن الأوطولول هم المهاجمون فيجب أن نتساءل لماذا يهاجمون المنطقة المحيطة بسالا من الشمال والجنوب مما أدى إلى قطع طرق التموين؟

لقد أشرنا إلى أن الأوطولول رحل وأنصاف رحل (الخريطة رقم 1) يتوجهون في فصل الصيف إلى المنطقة المحصورة بين وادي الملاح وبورقراق بحثاً عن الكلاً والمرعى. ووجود الرومان بسالا منعهم من استعمال جزء من مراعيهم فضاعت بهم المراعي المتبقية بالإضافة إلى أن عدداً من المجموعات البشرية الأخرى اضطرت تحت ضغط الرومان للتخلي عن مراعيها التقليدية ومجالاتها، والبحث عن المراعي البعيدة عن النفوذ الروماني. ونظراً لأن هذه المراعي قلت وبالمقابل تكاثرت تعدد المجموعات البشرية الباحثة عن المراعي، فقد كثر الضغط على المراعي المتبقية. وهذا الضغط سيدفع عدداً منها إلى محاولة لاستعمال المجالات القديمة. ومن هذه الأوطولول التي اضطرت لمهاجمة جزء من مراعيها التقليدية التي أصبحت تحت النفوذ الروماني، رغبة منها في إعادة استعمالها عند صعودها إلى الشمال في فصل الصيف. وهذا يعني أن الهجومات كانت ربما موسمية، ولم تكن مسترسلة، وهذا ما سهل على سولبيكيوس فيليكس مهمة القيام بتقوية أسوار سالا.

ومحاولة الأوطولول هذه ستدفع عدداً من المجموعات البشرية الأخرى إلى تقليدها للعودة إلى مجالاتها القديمة التقليدية، وهذا ما سيؤدي إلى حالة يمكن أن نعتبرها ثورة محلية عامة. هذه "الثورة" المحلية التي لا نعرف عنها الشيء الكثير، إذا استثنينا إشارة تاريخ اغسطس السابقة الذكر. على كل، يبدو أن سولبيكيوس فيليكس لم يستطع القضاء على هجومات الأوطولول مما دفع الوالي الجديد إلى تغييره، بل والأدهى من هذا، أن حالة الثورة انتقلت عدواها إلى باقي المناطق في

موريطانيا الطنجية بل وربما إلى مجموعات بشرية بموريتانيا القيصريّة. وهذه الحالة الجديدة هي التي دفعت الامبراطور إلى إرسال تعزيزات عسكرية جديدة من إسبانيا، إلى موريطانيا الطنجية، مما زاد في عدد القوات الاحتياطية، التي وضعت تحت إمرة قائد من فئة الفرسان(28). وأن وصول الإمدادات العسكرية إلى موريطانيا الطنجية كانت نتيجة إلزام المور بطلب السلام(29). هذا السلام الذي جاء بعد مقاومة دامت بين أربع وخمس سنوات، إذا اعتمدنا على الوثائق الإبيغرافية، لأنه في فاتح غشت 150م فقط قام البروكوراطور بورسيوس فيستوستينوس بتسريح القوات الاحتياطية(30) في القيصريّة. كما تخلد النقود التي سكّت سنة 152م، السلام المفروض على الموريطانيين الثائرتين، مما يؤكد أن السلام لم يعد إلا سنة 151 أو بداية 152م.

ومن جهة أخرى، فنجد أن تسريح القوات الاحتياطية في موريطانيا للطنجية لم يقع إلا سنة 156 - 157 (31)، مما يرجح أن الثورة، أو حالة انعدام الأمن، ظلت في الطنجية إلى ما يقرب من سنة 157م وذلك على الرغم من أن الامبراطور خلد انتصاره سنة 152م. ورغم هذا التسريح فإن عدد قوات الاحتلال التي احتفظ بها في موريطانيا الطنجية، كان مهما جدا، إذ تتكون من إحدى عشرة فصيلة وخمسة أجنحة. وهذا العدد أهم بكثير من العدد الذي كان موجودا وقت ثورات (118 - 122)(32).

ومع ذلك، فحالة انعدام الأمن ظلت كما هي عليه في الطنجية، لأن المور ظلوا يواصلون هجوماتهم. إلا أن النصوص الإبيغرافية لا تمدنا بأية معلومات عنها. ولا ندري هل هم الأوطولول؟ أم الباكوات؟ أم جيليو الأطلس المتوسط أم الأطلس الكبير الشرقي؟ أم الماكينيت؟ أم الرحل الصحراويون الذين اتجهوا غربا بعد أن سنت في وجوه منتجعات نوميديا وموريطانيا القيصريّة بواسطة الليمس النوميدي، فاتجهوا إلى جنوب شرق الطنجية وإلى جنوبها حيث وجدوا ممرا نحو مراعي فصل الصيف؟

أم أن الثوار هم كل هؤلاء؟ وقد اضطروا للقيام بالثورة نظرا للضغوط الكثيرة التي تعرض لها سكان الطنجية بواسطة المجموعات البشرية القيصرية والنوميديّة الذين سددت في وجوههم مجالاتها التقليدية، فاتجهوا غربا وزاحموا سكان الطنجية الذين بدورهم كانوا مزاحمين. وهذا الضغط والازدحام على المجالات المتوفرة والتي اقتطع منها الرومان جزءا كبيرا - دفع المجموعات البشرية المجاورة للنفوذ الروماني تحت الضغط - إلى الهجوم على الأراضي التابعة للرومان، وكل مجموعة بشرية تضغط على الأخرى، إلى أن تحركوا كلهم ضد الرومان، الذين يعتبرون السبب الحقيقي في خلق هذا المشكل الأساسي. لأن الرومان هم الذين اقتطعوا من مجالاتهم ومنتجاتهم وحولوها إلى مغارس ومزارع سلموها لمستوطنين غرباء عن المنطقة. ولذلك فالمرجح أن أسباب أحداث 140 - 157م بالطنجية لها علاقة بالأرض التي تمثل رأس المال الموري، هذه الأرض التي كان فيما سبق، يستعملها بكامل الحرية، إلا أنه حرم منها الآن، وسلمت لغريب دخيل تحميه قوات عسكرية دخيلة بدورها.

وبالإضافة إلى هذه الاقتطاعات السابقة فقد حدثت، بدون شك، محاولات جديدة أثارت المور ودفعتهم للثورة وترتبط المحاولة الجديدة أساسا بالسفر الثاني الذي قام به الإمبراطور هادريانوس (117 - 138) سنة 128، إلى إفريقيا، رفقة أنطونين الورع. وقد أنعم الإمبراطور خلال هذا السفر بالحق اللاتيني وحق المدينة على عدد من المدن (33). فليس هناك أي شك في أن هذا التوسع في الحقوق لا بد أن يترجم - أو على الأقل يصاحبه - توسع موازي في الاستيلاء على الأراضي الجديدة التي تقطع من مجالات السكان الأصليين. ومن هنا تولدت حالة انعدام الأمن في عدد من المناطق، لأن التقدم الروماني بالاستيلاء على الأراضي واجهه المور بالثورة. وهذا ما دفع أنطونين المعروف بميله للهدنة والسلام إلى القيام بهجوم واسع للقضاء على الثورات الموريطانية. إلا أن الرومان رغم جهودهم ورغم التعزيزات الكبيرة فإنهم لم ينتصروا على المور، بل يبدو أنه كان هناك

تكافؤ بين القوتين، لأن الرومان لم يتمكنوا من توسيع مناطق نفوذهم، وفي نفس الوقت لم يستطيعوا دفع المور إلى مناطق بعيدة. بحيث لم يتمكن أي منهما من تحقيق انتصار ساحق على الآخر، وذلك على الرغم من تخليد الانتصار الروماني بإقامة نصب تذكاري، إلا أن هذا النصب في حد ذاته يمكن اعتباره نصب الهزيمة الرومانية وانعدام الاستقرار في الطنجية، وهو في نفس الوقت يعتبر بالنسبة للمور نصب المقاومة والدفاع عن الأرض. والأهم من كل هذا هو الاعتراف الضمني بوجود المقاومة، والدليل على هذه المقاومة، أن المور فرضوا على ولاية أنطونين حالة الطوارئ لمدة ثمانية عشر عاما بالطنجية ما بين 140 و 157م، ومع ذلك، فإن الهدوء لم يعد إلى ما كان عليه، وأن حالة الطوارئ التي سجلت بدايتها ثورات الأوطولول على ساللا ونواحيها حوالي 140م، وسجلت نهايتها الموقته تسريح الجيش الاحتياطي سنة 157م، يثبت أن حالة انعدام الأمن كانت مسترسلة بالطنجية، من 140م إلى 157م تقريبا. ورغم التوقف المؤقت للصراع على أرض موريطانيا الطنجية فهذا لا يعني استكانة المور وخضوعهم للرومان بل يبدو أنهم كانوا يهيئون أنفسهم ليتحركوا مرة أخرى ويوجهوا ضربتهم إلى مكان غير منتظر إلى ولاية البتيك في إسبانيا.

وبصورة عامة، فإن نص قرار مجلس بلدية ساللا أمدنا بمعلومات قيمة حول الوضعية الأمنية لمدينة ساللا وضواحيها والمواجهة بين الرومان والمجموعات البشرية التي كانت تستعمل هذه الضواحي والتي حرمت منها نتيجة توسع النفوذ الروماني واستيلائه على مجالات ومنتجات السكان الأصليين.

الهوامش:

- (1) — إذا تركنا جانبا حياة هاد ريانوس فالملاحظ أن عدد المشاكل المطروحة حول ترجمات الأباطرة، في تاريخ اغسطس كبيرة، وذلك لأن القيمة التاريخية لهذه الترجمات مشكوك فيها، اعتمادا على أن الهدف من الكتابة كان موجهها من طرف الأباطرة وهذا ما يفرض علينا المراجعة الحذرة والتروي عند التعامل مع هذه الترجمات.
- (2) — Frezouls, Les Baquates et la province romaine de Tingitane, BAM, II, 1957
(= Frezoulz, les Baquates).
- (3) — Banasa, CRAI, 1942, p. 171 (= AE, 1942, 43, 84), CRAI, 1942, P. 11 (= -3 CIL, XVI, 73) Volubilis, CRAI, 1942, p. 141 (= AE, 1942, 1943, 83, Fragment N 8).
- (4) — Chatelain, pp.8-9 , Le Forum de Sala CRAI, 1930, p.198, Carcopino, Sala (Chellah Rabat) au temps des Antonins d'après les textes sur la base de Marcus Suplcius Felex, MEFR, 1931, pp.1-32, Carcopino, le Maroc antique, Paris 1943, pp. 200-230 (= Carcopino, Le Maros).
- (5) — نص المقدمة باللاتينية كما نشرها كار كوينو
- (6) — نص اللوحة كما ذكرها شلاتان و كار كوينو
- (7) — LHarmand observation sur l'inscription de Sala , melanges Piganiol
يقول حسب ترجمته: (حمانا ضد الخسائر العادية و ضياع قطعان الماشية).
- (8) — نص قرار مجلس شيوخ سالا كما نشره كار كوينو وشاتلان :
- (9) — علاقات الباكوات مع الرومان سنتناوله في مقال آخر إن شاء الله.
- (10) — Carcopino, Le Maroc antique ..., p.224.
- (11) — Baradez, les fouilles de Tipaza et les operations d'Antonin le pieux en Maurétanie, Lybeca, II 1954 P 128
- (12) — نظرا لميول انطونين الورع للهدنة والسلام سيصعب أن ننسب إليه المبادرة المطلقة لهذا الهجوم. وعلى العكس، فيمكن أن نفكر في أنه ورث حالة فرضت عليه التدخل: ففي السفر الثاني لهادر يانوس إلى إفريقيا سنة 128م والذي رافقه فيه انطونين، منح الحق اللاتيني أو حق المدينة لعدد من المدن Histoire Auguste, Vita Had, XIII, 4 فليس هناك شك في أن هذا التوسع في الحقوق المدنية يترجم — أو على الأقل — بصاحبه توسع موازي في احتلال الأراضي. ومن هنا تولدت حالة قلق في عدد من المناطق، لأن التقدم الروماني واجهه الموريطانيون بالمقاومة والثورة، وهذا بدون شك ما دفع انطونين إلى القيام بهجوم واسع.
- (13) — MBenabou, 1976 Laresistance Africaine à la romanisation , Maspero Paris, P 137
138 (Benabou , la Resistance)
- (14) — Histoire Auguste , Vita Pii , Julius Capitolius, V 4 per legatos suos plurima bella gessit, nam te Britannos vicit et Mauros ad pacem postulan dam coegit

- (15) - هذا التاريخ التقريبي ناتج عن أن فاريوس كليمانص أصبح واليا على موريطانيا القيصرية حوالي سنة 152م - وذلك بعد أن قام بثلاث مهام متتالية عندما أرسل إلى الطنجية. بينما يرى روبروفا أنه كان بموريطانيا بالقيصرية بين 148 ، 149.
- (16) — Pausanias, 1903 ed, Spira Teubner , lecpziq , VIII , 43 , 3
- (17) — Carcopino , le Maroc P 228
- (18) — Ibid P 219
- (19) — Rebuffat , Enceintes Urbaines P 502
- (20) — Pausanias , op cit , P 515 note 2
- (21) — Rebuffat P 521
- (22) — Seston, Les murs , les portes et les tours des enceintes urbaines et le probleme des ressanctae en droit romain , melanges Piganiol , pp 1489 -149_
- (23) — frezouls, les Baquates P 116
- (24) — فيما يتعلق بالتحركات البشرية وتغيير مجالاتها والبحث عن مراعي جديدة سنعود إليه في مقال آخر إن شاء الله.
- (25) — Pline l'ancien , H,N,V,5 Oppium Sala eiusdem nominis fluvio impositum iam solitudinibus , Vic inum , elephantorumque gregibus infestum , multo multo tamen magis Autoloum gente
- (26) — Mrachet , 1970 Rome et les berbères , Latomus n° 110 , Bruxelles
- (27) — Carcopino , le Maroc P 221
- (28) — تحدث عن تدخله كل من 42 Cagnat, L'armée romaine, p. الذي اقترح سنة 146 و 148م بينما كاركوينو يقترح سنة 145م / 146م - 149م.
- (29) — Romanelli , op cit p 359
- (30) — في هذا التاريخ كان لموريطانيا الطنجية واليهما وللقيصرية واليهما، مما يؤكد تحسن الحالة الأمنية.
- Rachet, Rome et les berbères, p. 200, CIL, III, 2213.
- (31) — Romanelli , op ; cit ; p 359
- (32) — Thouvenot , CRAI , 1948 p 45 , CRAI 1949 p 332
- حدد تاريخهما في عهد انطونين، يعني بين 10 / 2 / 156م و 9 / 12 / 157م.
- (33) — Histoire Auguste , Vit a Hariani , XIII, 4

وثائق عرفية منطقة "داس" خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

صفية العمراني.

داس: داس لفظة " هي من ضمن أسماء الأماكن التي لم يقف أحد عن معناها. لكن اللفظة الغالبة عند المؤرخين والإخباريين هي كلمة "القبيلة" فـ "داس" أو "داس" في النطق الصنهاجي الذي ينتمي إليه أهل "داس" تعني "أمامه" أي أمام جبل "درن" من الجهة الشرقية أي قبلته التي عممها مؤلفو المصادر التاريخية. لكن لفظة أو مصطلح "القبيلة" هو ذو معنى عام وأوسع، ويحدد عادة بين الفيحة (الجنوب) وتافيلالت. وأصبحت هذه المنطقة وحدها التي تعرف بالاسم العام الدال على الجهة. وقد تقلص هذا المجال حتى أصبح يطلق على حوض واد داس حالياً. وهذا المجال يمتد من جبل أمكون شمالاً إلى جبل صاغرو جنوباً، بين قبائل أمكونة وإمغران، وأيت عطا وأيت احدو وامسمرير. كما أن هذا المجال كان دائماً مجالاً مفتوحاً ومعروفاً، إذ كانت تمر عبره الطرق التجارية الرابطة بين مراكش وتافيلالت وبلاد درعة.

وخلال الفترة التي سنتطرق لها في هذه المداخلة، كانت منطقة "داس" تابعة للسلطة المخزنية. وكانت شؤونها تسير من طرف ممثل المخزن با "كومت" في أعالي واد داس، أو في منطقة "أيت أحمودن" بأسفل الواد، حيث لا تزال في هذه المنطقة بقايا دار القيادة المخزنية منذ العهد السعودي، هذا من جهة، أما من حيث التأطير الديني، فإن المنطقة عرفت ظهور عدد من الزوايا الطرقية الصوفية مما يعني وجود مساجد وأئمة قادرين على شرح وتقريب جوانب ومبادئ كثيرة من الشرع والعقيدة من سكان المنطقة. ومن أقدم هذه الزوايا "سيدي بوعمران" وسط داس، وزاوية أيت عبد الله البومسهليين بإماسين قرب "إيمگران" ثم بأيت يحيى منذ أواخر القرن الماضي.

أما من الناحية الجغرافية، فإن وادي داس يشكل أعالي واد درعة فهو امتداد بشري لهذه المنطقة، حيث توجد الزاويتين "الناصرية" بتامكروت و"القادية" بتلمسك⁽¹⁾.

ويمكن القول إجمالاً، بأن منطقة "داس" بقيت إلى حدود أواسط القرن الثامن عشر الميلادي واحة فروع وأفخاذ قبيلة أيت سدرات. لكن زحف مقدمة اتحادية أيت عطا نحو مواطن المياه الدائمة والأسواق القارة، وإلى سهول ما وراء الأطلس الكبير، أدخل الشطط على الحياة العامة لهذه المنطقة، ذلك أنها ستصبح مجالاً لحروب بين الرحل الوافدين (أيت عطا) وبين المستقرين (أيت سدرات). وقد تزامن هذا الوضع مع الظرفية التي تحولت فيها قوة المخزن كلها للدفاع على الشواطئ المتوسطية والأطلنطية. وحتى وإن كان الشرع سائداً ومنتشراً كمرجع قانوني، فإن الظروف الجديدة التي تجتازها المنطقة بصفة خاصة والمغرب بصفة عامة حتمت الرجوع إلى الاتفاقيات العرفية التي كانت تعتبر أساليب حمائية وتقنينية للملكية العامة القبلية والعائلية والفرعية، وكذا أعراف الانتفاع من المياه وتوزيعها حسب معطيات الوضع الجديد. وما هي في الغالب إلا تأكيد للعادة المعروفة

والجاري بها العمل. كما أن الأعراف عادة " سلسلة " لإعادة التوازنات الجديدة لمنطقة ما. "القانون العرفي يعطي أهمية قصوى للأرض. بحيث يستغل كل الاستراتيجيات للحفاظ عليها. ويكون العرف نفسه أهم استراتيجيات للحفاظ على وحدة الملكية، ووحدة الأرض، لأن وحدتها من أهم الأسس المادية التي يقوم عليها التهام الجماعة العائلية كأدنى وحدة دفاعية داخل القبيلة" (2).

بهذا، يعتبر العرف كقانون وكاستراتيجية يتم بواسطتها الحفاظ على تلاحم النظام القبلي، فلا يمكننا إنن أن نفسره على أنه نظام متعارض مع الشريعة، كما ذهب إلى ذلك عدد من الأبحاث الاستعمارية التي قامت بتقسيم المجتمع المغربي إلى : المخزن / السبية - العرب / البربر - الشرع / العرف ؛ بقدر ما هو نظام تقنين لحياة اجتماعية وسياسية خاصة، وللتناقضات التي تتخلل هياكلها. لذلك يستمد العرف، على الرغم من تأثيره في بعض الأحيان بالشرع، عناصره الضرورية من التعبير عن الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه القبائل" (3).

إن ما يمكن استخلاصه من بعض العناصر المحورية التي يدور حولها العرف، هو أن هذا الأخير يكون استراتيجية للحفاظ على البنية التحتية اللازمة التي تضم الالتحام القبلي كنظام مجند، إذ يدرك الوعي القبلي أنه ليس من الممكن استمرارية الوحدة القبلية كواقع وكأيديولوجيا للمواجهة (مواجهة المخزن، ومواجهة القبائل الأخرى) إلا بضمان الأسس المادية التي تجمعها، وتؤكد وحدتها وتماسكها لمواجهة المخاطر الخارجية. لذلك نجد في عدد من هذه الوثائق العرفية الخاصة بمنطقة "داس"، استعمال كلمة "الخواة" - أي الأخوة- إذا التأكيد على رابطة "الدم" التي يتم بواسطتها الحفاظ على تلاحم النظام القبلي وتماسكه داخليا وخارجيا. "فهذا الاعتبار لا يجب تعريف العرف بأنه نقيض للشرع بقدر ما هو بديل محلي له، يعبر عن بنية اجتماعية وسياسية متناقضة. عليها أن تندمج داخل المجتمع الشمولي من جهة، وعليها أن تحافظ على تلاحمها ووحدتها من جهة أخرى" (4).

إذا، فالوثيقة الأولى التي نعرض لها في إطار هذه الندوة العلمية الهامة، هي وثيقة عرفية يمكن نعتها بأنها وثيقة عرفية جنائية وجنحية يرجع تاريخها إلى أواخر شهر رمضان عام 1207هـ - 1792م.

نص الوثيقة:

الحمد لله وحده

اجتمعوا أهل القبيلة أهل الزاوية سيدي بعمران (5) نفع الله ببركته بصلاح بلدهم بمحضر أهل معيش منهم خي الكبير ترختي وخي حميد نسعد مع خي القرشي مع ايراهيم نيت احماذ كلهم أهل معيش بمحضر مولاي عبد الرحمان الحاج مع مولاي يسف نيت علي مع مولاي حميد نيت حم مع خي الحسين نيت حمو ايراهيم القدر ومن خصم احاد مع أحد فإنه يعطي خمسة وعشرين أوقية (6) مع الدفع اثنين من طرايين، ومن تبصر أحد فإنه يعطي ربعين متقال (8) ، ومن كسر أحد فإنه يعطي عولته حتى يبر وزد له عشرون متقال، ومن كسر السن احاد لأحد فإنه يعطي عشرة مثاقيل لكل سن، ومن هجم الدار فإنه يعطي خمسين متقال، ومن سرق فإنه يعطي خمس أواق ومن سرق الشاة فإنه يعطي ربعة اشياه، ومن ضرب لمره فإنه يعطي متقالين إذا أخطت لمره على الرجل تعطى متقال ومن سرق في النادر فيعطي خمسة مثاقيل، ومن سكن احاد، يعطي عليه مارد القبيلة. وتكفل مولاي علي نيت حم بإخوانه، وتكفل مولاي يسف نيت علي بإخوانه وتكفل خي بيكر بإخوانه وتكفل مولاي عبد الرحمان الحاج بني أيت لحسن ابزید

الله يصلح حالتهم وحالة المسلمين كلهم أجمعين بمحضر أهل المعيش كلهم بجمعهم ووقفوا إليهم الشرفا مع لحراطن مع أيت لحسن ابزید. ومن نحر احاد بجنوي يعطي عشرين متقال إذا جرح إلى مجروح يعطي عشرة مثاقيل. إذا نسينا شيء قليلا ولا كثير يعطي عدا وما جرا. هذا فشهدا علينا ونقلنا عنه بعد إينهم وتوبياتهم وعرفهما وهما بحال الأكمال وبتاريخ أواخر شهر الله العظيم رمضان عام 1207 سبعة سنين ومائتين وألف، عبد ربه سبحانه:

عبد المالك بن محمد الخلوفي الدرعي إمام مسجد أهل الزاوية سيدي بعمران نفع
الله ببركته.

ءامين.

فكما سبقت الإشارة إلى ذلك، يعتبر العرف أو "تعقيدين" أو "ءازرف" بمثابة
القانون المنظم للحياة داخل القصور في الجنوب المغربي(8). فالأهمية التاريخية
للعرف تكمن في تنظيمه للحياة داخل القصور، ويحتم على سكان القصور تنظيم
أنفسهم، وذلك بوضع قوانين "إيزرافن" تضمن لكل فرد في القصر حقوقه، وتحتم
عليه في نفس الوقت القيام بأعمال جماعية لصالح القصر كوحدة تنظيمية.

فإذا أخذنا الأحكام العرفية التي سنتها قبيلة "أيت بعمران" وقبيلة "امعياش"
سنجد أن هذه القوانين لم تكن قوانين اعتباطية، بقدر ما هي قوانين وأحكام وضعت
من أجل الحفاظ على سير الحياة داخل القبيلتين بصفة منظمة. فالعرف هنا، يمكن
اعتباره كبديل محلي للشرع وليس نقيضا له. يقول ميشو بلير BELLAIRE
(Michaux) وهو المتصفح لكتب النوازل عن العرف والشرع "إن هذه التصرفات
متناقضة مبدئيا مع الشريعة، لكن الفقهاء أدركوا بأنه يستحيل خوض صراع مجد
ضد الأعراف التي أحدثت لتلبية حاجيات المجتمع الإسلامي نفسه. وبما أنهم وجدوا
أنفسهم أمام مبادئ الشريعة من جهة، والممارسات العرفية المتناقضة مع الشريعة
من جهة أخرى، فإنهم كتبوا كتبا فقهية يحاولون فيها الحفاظ على ثبات الأسس
الفقهية، وفي نفس الوقت يتنازلون لصالح الأعراف"(9).

فانطلاقا من التكتل الذي يحتمه إنتاج المواد الضرورية لسكان
القصور والاتحاد الذي يفرضه الدفاع عن المصالح المشتركة (المراعي - منابع
المياه بالدرجة الأولى)، فإننا نجد أن القبيلتين المشار إليهما فسي الوثيقة وضعتا
"قوانين" ردعية ضد كل مخالفة يرتكبها فرد من أفراد القبيلتين المتحدتين - نكرا
كان أم أنتى - ونستشف أيضا من خلال هذه الوثيقة (والتي يرجع تاريخها إلى
أواخر القرن الثامن عشر) أن الأحكام العرفية يمكن أن تطبق على سكان قبيلتين

على الرغم من بعد المسافة بينهما، لكن شريطة أن يكونا في حلف مشترك "تاضا". كما أن الهدف من وضع أحكام هذه الوثيقة الهامة والتي دونت من لدن فقيه وإمام مسجد زاوية سيدي بعمران (10) كان الهدف من ورائها تحفيز سكان القبيلتين على التقليل من ارتكاب المخالفات حتى تكون الحياة سمكنة داخل مجتمع يتسم بالقلّة في الإنتاج، ويعيش على الاكتفاء الذاتي في غالب الأحيان.

كما أن القبيلتين حريصتين على الحفاظ على كيانهما ضد "التدخل الأجنبي" (11) ، ويتجلى لنا هذا في "الضريبة" المفروضة على كل من قام بإسكان أحد، يعطي عليه مارد القبيلة" (الوثيقة). إذا فالحكم العرفي هنا واضح وصارم، ولا يسمح لأحد بخرقه، لأن كل فرد من القبائل المتحالفة مطالب بالامتثال للالتزامات التي يفرضها عليه التحالف. فالأفراد الذين ينتمون إلى الجماعات المتحالفة يعتبرون أكثر من أخوة (خي إبراهيم الكبير تزختى - خي حميد نسعد - خي محمد القرش - الوثيقة -).

كما يمكننا أن

نستنتج أيضا من خلال العقوبات المنصوص عليها في هذه الوثيقة كلها تعويضات مالية وهو واقع يفيدنا، بصفة غير مباشرة، عن مدى دخول النقود إلى حياة القبائل، ويفيدنا بصفة مباشرة عن طابع القانون العرفي، الذي هو عموما، قانون إرجاعي وهو في ذلك يخالف الحدود الشرعية عن السرقة والتي هي من قبيل القانون الردعي *désuasif*.

كما أن إعطاء أهمية قصوى لتقنين سرقة الماشية يكشف لنا عن أهمية القطيع في الحياة الاقتصادية، لا كمكمل للزراعة، فحسب، بل كمواز لها. (ومن سرق الشاة فإنه يعطي ربعة أشياء - الوثيقة).

وعلى الرغم من كون هذه الوثيقة اتفاقا عرفيا فقد اتبعت في كتابتها شكليات الإشهاد في الوثائق الشرعية وذلك في تصديرها بالحمدلة وبعبارة "أشهدنا على

أنفسهم". بل أكثر من ذلك فإن محررها وهو الذي وقع إشهاده ، إنما هو "إمام مسجد أهل الزاوية سيد بعمران نفع الله ببركته ءامين" الوثيقة.

ما يمكننا استخلاصه من هذه الوثيقة العرفية الهامة هو حرص القبيلتين (امعياش - وزاوية أيت بعمران) على أن تكون بنود الاتفاقية وشروطها شاملة بحيث تتطرق لمختلف القضايا اليومية " من خصم احاد مع أحد من تبصر أحد، من كسر أحد، من كسر السن احاد لأحد، من هجم الدار، من سرق الدار، من سرق في جنان، من سرق الشاة، من ضرب المرأة، من سرق في النادر، من سكان أحد، من نحر احاد بجنوى" الوثيقة - والمخالفات المؤكد أو المحتمل وقوعها. وهي كلها قضايا عادية وتتحصر في السلوك الفردي أو الجماعي لأفراد القبيلة وما يرتبط بهذا السلوك من نزاعات وخصومات في وسط تتسم إنتاجيته الاقتصادية بالقلة وما قد يقع من مخالفات تمس هيبة الجماعة واستقرار القبيلة، كالسرقة في المنازل والحقول والضرب والجرح كما هو منصوص عليه في هذه الوثيقة الهامة.

الوثيقة الثانية:

يرجع تاريخها إلى سنة 1266هـ - 1849م أي إلى أواسط القرن التاسع عشر وهي عبارة عن عقد جماعي بين شرفاء زاوية "ءاماسين".

نص الوثيقة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله.

أشهدوا لادي شرفاء ءال اماسن أنهم عقنوا الرضى في محاكمة مصالحهم في سبعة رجال كل واحد منهم يتكلم عن نفسه وعن إخوانه وما صعب عنهم من عرفهم وعاداتهم يرفعها لشريعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من ذلك مولاي ابراهيم بن محمد البوري البوعمراني ومولاي أحمد بن عبد القادر بمسهل ومولاي محمد بن عبد الله نيت موسى ومولاي عبد الله بن محمد نيت سيدي علي ومولاي امحمد بن محمد نيت عبد القادر ومولاي محمد بن علي بن عبد الله ومولاي عبد

الرحمان بن محمد نيت عبد الله نسب عقدا صحيحا شهد به عليهم من اشهدوه به وعرفهم في ثالث عشر ربيع النبوي عام 1266 ستة وستين ومائتين وألف. عبد ربه أحمد بن عبد الله الشرقي ملازم مسجد القصر القديم لطف الله به. وعبد ربه محمد بن علي بن عبد الله البعمراني لطف الله به ءامين.

فمن خلال قراءتنا لهذه الوثيقة العرفية الثانية التي نتناولها في هذه المداخلة، نلاحظ أنها عبارة عن عقد جماعي "l'acte collectif" بين شرفاء زاوية ءاماسين(12)؛ وهذا العقد ذو صبغة خاصة لأنه مزوج المستوى:

المستوى الأول هو قول الذين حضروا وشهدوا برفع كل " ما صعب عنهم من عرفهم وعادتهم لشريعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم".

فالنص يؤكد انتشار "الأحكام العرفية"، واعتمادها كقاعدة قانونية أساسية بين سكان قصور شرفاء ءاماسين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما حصر النص "العرف والعادة" في المرتبة الأولى، ولا يلتجأ إلى "الشرع" إلا في حالة انعدام الحلول لمشكلة ما. هنا تثار مسألة احتواء العرف داخل الشرع من طرف العلماء. و"التي كانت مسألة ظاهرية، تدخل في إطار مشروع متكامل للسلطة المخزنية، يستهدف احتضان الهوامش. إذ يعطن المخزن الحرب الكلامية وفي بعض الأحيان العملية ضد "السبية"، ضد العرف، ضد الزوايا، ولكنه في الوقت نفسه لا يمكن له أن يستمر إلا عبر هذه الهوامش"(13).

أما المستوى الثاني: فيتمثل في كون شرفاء إماسين شكلوا "لجنة" مكونة من سبعة رجال والذين ذكرت أسماءهم في الوثيقة عوض الجماعة أو "جماعت"، وكل واحد منهم ينتمي إلى عائلة من العائلات التي تتكون منها قصور شرفاء إماسين - والمشار إليها في الهامش 12 -.

الوثيقة الثالثة:

وهي نموذج آخر للعقود العرفية المحلية، وتاريخها حديث 1313هـ -

1933م - النصف الأول من القرن العشرين -.

نص الوثيقة:

اتفقت قبيلة آل الزاوية مع أيت لحسن أبزد وكلهما قبيلتين الشرفاء مع
 حراطينهما على الصلح وكل واحد منهم باسمه فإله يعاونهم ويصالح حاليتهم على
 منافع السقية والقدابين. وتكفل كل واحد بأخيه ورقد مولاي عبد الرحمن أيت
 بعمران وتكفل مولاي حميد بن يوسف بأيت علي وتكفل حم نيت خيا بيكر بإخوانه
 وأيت حميد وتكفل علي بن حم بأيت الحسين مع أيت خي علي وتكفل حمد بن محمد
 بأيت خي الحسن وتكفل علي نيت علا بإخوانه وأيت عبد الله وتكفل مولاي المدني
 نيت موسى بإخوانه وتكفل يشوا بن حميد بإخوانه وأيت بن عمر وكل من كسر
 الساقية في يومها يعطى ثمانية أوجوه (14) وكل من جاء في جنان أحد غير مولاه
 يعطى ثلاثة امدود (15) وكل من حشى (16) في فدان أحد فعنده مدين (17) لشات من
 الغنم والحمار والبغال مدين من الشعير وكل من قعد من غير الاخلاص (18) حتى
 يدعوه للشيخ يتنا عليه ما نكرنا في الاخلاص. واحد بإثنين في غرام الساقية (20)
 وكل من تعصب على احد يعطى ربع فضة وهذا كله شروط الساقية والغرم
 القدابين وبتاريخ شهر الله جمادى الأولى 1313 هـ وكتب

حمد بن عبد الكريم التسلي (21)

أمنه الله بمنه امين

فهذه الوثيقة العرفية الثالثة التي نتناولها تعود أحداثها إلى سنة 1933م وهي
 الفترة التي كانت فيها منطقة داس تابعة لسلطة القائد حمو بن محند المزوراري
 الكلاوي بتلوات، ومحاصرة القوات الفرنسية لعسو أوبسلام بجبل بوكافر بصاغرو
 مما يدل على أن التعامل بالاتفاقيات العرفية ظل حاضرا في السلوك اليومي للقبائل،
 سواء على مستوى العظام المتساكنة داخل أسوار القصور، أو على مستوى التعامل
 مع ممثلي الاستعمار الفرنسي؛ ويتجلى ذلك في سيطرة فكرة "العادة وما جرا" لحل
 المشاكل اليومية والبت في قضاياها العويصة فقد كانت "هذه المخالفات والجرائم
 كالسرقة والزنى والغصب والقتل وما شبهها، تعالج بمقتضى أحكام القانون العرفي

الذي تتفق عليه كل جماعة، وهي الأحكام التي عطلها الوجود المخزني في إينولتان تعطيلًا يكاد يكون تامًا" (22) . هذا عكس ما نجده في منطقة داس، حيث كان ضبط الشؤون الأهلية، يضطرون للعودة إلى الاتفاقيات التنظيمية لحل المشاكل اليومية التي واجهتهم بين قبائل القصور .

ومما تجدر الإشارة إليه - انطلاقًا من أسلوب كتابة هذه الوثيقة الثالثة والحديثة العهد مقارنة بالوثيقتين السابقتين أن هذه الاتفاقية العرفية والتنظيمية، كتبت بأسلوب أقرب إلى العامية منه إلى العربية الفصحى، حيث نلاحظ أنها تتضمن مفردات "مدرجة" أو أمازيغية في بعض الأحيان (23) وذلك على الرغم من أن محررها قد تكون له معرفة كافية لتحرير الاتفاقية بين قبيلة آل الشرفاء البوعمرانيين - و"حراطينهم" بلغة عربية فصيحة، خاصة وأنا نعلم - أن حمد بن عبد الكريم التسلي كان يشغل آنذاك إمام مسجد زاوية سيدي بوعمران - إلا أنه ربما كان مضطرا إلى تحرير "الوثيقة الاتفاقية" باللغة التي كانت تملئها عليه الجماعة المذكورة أسماؤهم في الوثيقة. وقد حرصنا في تعاملنا مع الوثائق العرفية التي نتناولها في هذه المداخلة، على نقلنا حرفيا للاتفاقيات بجميع أخطائها النحوية منها والإملائية، كما قمنا بنقل مصطلحاتها وأسمائها كما جاءت في الوثائق الأصلية، ذلك أن محاولة تصحيح الوثيقة الأصلية أمر سيؤدي لا محالة إلى طمس المعاني الحقيقية لبعض الألفاظ والمصطلحات والأسماء ذات الدلالات المحلية والخاصة بالمنطقة موضوع البحث والدراسة، وكما يقول الأستاذ أحمد التوفيق بهذا الصدد ومعلوم أن هذه الأعراف المسماة "بأزرف" وإن كانت لها سمات مشتركة، لم تكن موحدة لا بين القبائل ولا داخل قبيلة واحدة. وإذا وقع تحريرها على يد بعض الطلبة، فبعبارة تتقل ألفاظا أمازيغية إلى ما يقابلها من الألفاظ العربية بكيفية يستعصى معها فك أغاز تلك النصوص على من لم يرجع إلى الوسط الزراعي الذي وضعت له تلك النصوص أو يستعين بحفدة واضعي تلك الأعراف في فهمها" (24).

خاتمة

بناء على المعطيات السالفة الذكر، يتضح لنا أن الوثائق العرفية ذات الطابع "التعاقدية" سواء بين أفراد قبيلة واحدة، أو بين قبيلتين فأكثر خلال هذه الفترة تشكل حجر الزاوية في كل كتابة تاريخية، ذلك أن إعادة كتابة تاريخ المغرب انطلاقاً من رؤية علمية رصينة، ومعايير موضوعية صارمة تهدف إلى سبكه وصياغته صياغة جديدة، وترويضه في تيار المنظومة الشمولية، وتطهيره من التخريجات الاستعمارية الملوثة بالافتراءات والتشويه، يستلزم كشف النقاب عن تاريخ البادية المغربية، والحفر في تراثها، وأنماط وسلوك سكانها وأسلوب عيشهم حتى لا يظل تاريخنا مبتوراً وناقصاً. فهذه الوثائق "العرفية - التعاقدية" الهامة التي تطرقنا لها في هذه الندوة المباركة، ستساهم بشكل أو بآخر في إنارة بعض الجوانب المظلمة من تاريخ البادية المغربية ويمكن توظيفها كوثائق يستأنس بها كل باحث لوضع اللبنة الأولى لهيكله مدرسة تسعى إلى تصحيح قراءة مسار التاريخ المغربي وذلك برد الاعتبار إلى تاريخ البادية. فالنص العرفي هو مخزون مهم ومصدر مادي لتاريخ البادية المغربية ويجب التعامل معه من حيث هو، دون سابق لأي فكو معارض ومعادي. وبدون الاهتمام بهذا الجانب من التاريخ سيبقى البحث التاريخي مبتوراً وناقصاً.

الموامش:

- (1) - راجع كتاب : اللوزيدي (أحمد)، التاريخ الاجتماعي لمنطقة درعة، دبلوم الدراسات العليا، تحت إشراف الأستاذ أحمد التوفيق، الرباط 1994.
- (2) - بورقية (رحمة) ، الدولة والسلطة والمجتمع دراسة في الثابت والمتحرك في علاقة الدولة بالقبايل في المغرب، دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1991. ص. 81.
- (3) - نفس المرجع السابق. ص. 81.
- (4) - نفس المرجع ، ص. 82.
- (5) - أنظر بحث الإجازة المشار إليه سابقاً، فيما يتعلق بجميع أسماء الأعلام والأماكن الواردة في الوثيقة.

(6) – أوقية تساوي قيمة الدرهم الفضي. 25 أوقية = 25 درهم فضي. كما أن الأوقية تساوي

96 من الفلوس النحاسية. أي أن 25 أوقية كانت تساوي 2400 من الفلوس النحاسية.

(7) – متقال واحد = 10 دراهيم فضية.

متقال = 400 دراهيم فضية.

(8) – أنظر كتاب: Mezzine (Larbi), Le TAFILALT, Contribution à l'histoire du

Maroc aux

XVIIe et XVIIIe siècle. Imprimerie NAJAH ELJADIDA, Casablanca,

1987.

(9) – Michaux " La guelsa et le gza" revue du monde Musulman, n – 59

, 59

.145 – p. 117 .1995

(10) – فالوثيقة التي نحن بصدد تحليلها إذا، وضعت من طرف إمام – وفقهه – إذا من لدن

ممثل الشرع. مما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقا من أن "الشرع والعرف" لا يمكن اعتبارهما

نظامين – قانونيين متعارضين – بقدر ما هما متكاملين.

(11) – أي عدم استضافة أي دخيل على القبيلة قبل استشارة الجماعة، التي كانت تتكون في

الغالب، من إمام المسجد مع مسني القبيلة، خاصة وأنه خلال هذه الفترة – أي نهاية

القرن الثامن عشر – انتشرت ظاهرة "إيمزواك" ومفرده "أمزواك" أي الشخص الذي

تتبعه قبيلته بعد اقترافه لجريمة "القتل". ويقوم بطلب الحماية من قبيلة أخرى – خاصة

التي ليست في نفس "حلف" قبيلته – وكان هذا سببا في خلق عدد من النزاعات بين

القبائل (ويمكن مقابله في نهاية القرن العشرين باللجوء السياسي – والدول التي تقوم

بإيواء المعارضين – لدول أخرى مما يترتب عنه التوتر في العلاقات الدولية.

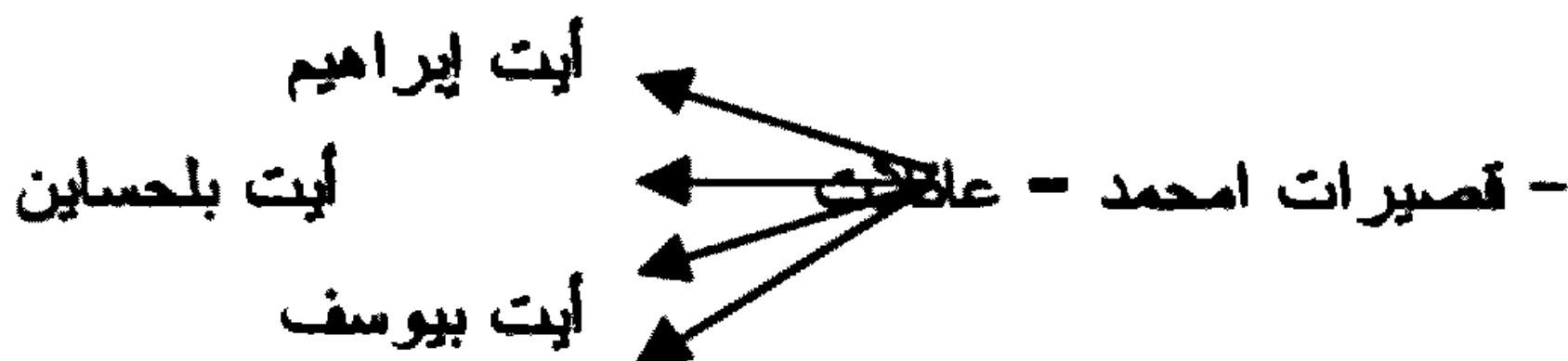
(12) – شرفاء أيماسين هم: شرفاء أدارسة ينتسبون – انرية سيدي بوعمران – المدفون

بزاوية بدانس وبلاد أيماسين تقع على واد داس الكبير، ويحدها من الجهة الشرقية

الأطلس الصغير، قبيلة أمغارن، ومن الجنوب بلاد هسكورة، ومن الشمال قبائل أيت

إحيا السدراتين (تاغيا). أنظر الخريطة. وينقسم شرفاء أيماسين إلى سنفه "عظام" أو

"داغسان" مقسمين على ستة قصور:



أيت م - علي

أيت عبد القادر
 - قصيرات إفران - عائلات
 أيت بصغير
 أيت عبد الله
 أيت بومسهول

أيت م - حيمد أدريس
 - قصر البور - عائلات
 أيت م - إبراهيم
 أيت م - إدريس
 أيت م - إبراهيم

أيت عبد القادر
 - قصر امجوك - عائلات
 أيت مولاي
 أيت عبد الله

أيت موسى
 - قصر اضرنين - عائلات
 أيت عبد الله

أيت عبد القادر
 - قصر تلات نتاحانوك
 أيت إدريس

(13) - بورقية (رحمة) ، ن . م . س ، ص . 74 .

(14) - ثمانية أوجه : وجهين - 12 فلما نحاسيا .

8 وجوه - 48 فلما نحاسيا .

(15) - ثلاثة امدود : مد = وحدة قياسية للحبوب والتين الموجودة بكثرة في منطقة داس .

ويساوي خمسة أكفاف من الحبوب .

(16) - حشى : كلمة أمازيغية ومعناها قطع الكلاً والكلاً المحصود بدوره يعرف با "لحشيش" .

(17) - مدين : سندس الصحيفة أو ما يعرف في المنطقة بـ " ايسيعي " .

- (18) – غير الإخلاص: أي كل من تأخر في دفع ثمن المخالفة التي ارتكبها والمنصوص عليها في الوثيقة.
- (19) – غرام الساقية: استعمل في الوثيقة فعل "كسر"، وهو لا يؤدي نفس المعنى الذي يؤديه في اللغة العربية. فكلمة كسر الساقية "مترجم حرفياً من الأمازيغية "إرزي - تركي" فعند عدم حضور الشخص للمساهمة في تكيس السواقي، عندما يتم الإعلان عن ذلك، فإنه يؤدي غرامة مالية تقررها "لجنة السواقي" وتسمى بأ"أغرام نتركي".
- (20) – من تعصب على أحد: أي من قام بالدفاع عنه، لأخذ ذلك يبقى من اختصاصات "الجماعة" الواردة أسماؤها في الوثيقة.
- (21) – التسلي: نسبة إلى قصر "تسلي" وهو قصر من قصور "أيت حمو" بدادس. وقد سمي بهذا الاسم، لأنه بني فوق صخور صلبة. والصخر بالأمازيغية هو "تيسلي". وينقسم إلى مجموعتين:
- تيسل الفوقانية: تماجكلت.
 - تيسل السفلانية: تمزدارت.
- (22) – التوفيق (أحمد) ، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ، إينولتان ، 1850 - 1912 الجزء الثاني ، مطابع دار النشر المغربية 1400 - 1980. ص. 63.
- (24) – من كسر الساقية، من جاء في جنان، غير مولاة، من حشى في فدان، قعد من غير الإخلاص، من تعصب على أحد.
- (25) – التوفيق (أحمد) ، إينولتان. ن.م.س.، ص. 63 - 64.

أهل فاس بعيون أندلسية (1)

محمد استيتو*

سنحاول في هذه المداخلة أن نعرض لبعض الجوانب من الشخصية الفاسية بعيون أندلسية، مركزين بصفة خاصة على ما خلده الأندلسيون في أهل فاس من اللقبائح وما نسبوه إليهم من نقائص وعيوب. صحيح إن من الأندلسيين من قالوا أشياء جميلة في فاس وأثنوا على فضائل أهلها - إن صدقوا أم جاملوا أم نفاقوا - إلا أنهم عرفوا كذلك بأنهم هم الذين كانوا أشد مضاضة على الفاسيين خاصة والمغاربة عامة من الحسام المهند، كما يقال. لذا لا غرو إذا كان أهل فاس كثيرا ما يرددون هذين البيتين(2):

حسدوا الفتا إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغضا إنه لنميم

وعلى أي حال، فأيا كانت الصورة التي جهد الأندلسيون في إخراجها لأهل فاس وإفشاء عيوبها بين خصوم الفاسيين أو بين أعدائهم، فإن تلك الصورة لا تحيد في المجمل عن إطار اللوحة العامة التي رسموها للمغرب وللمغاربة كافة، متأثرين

* أستاذ باحث بكلية الآداب - وجدة.

في ذلك بانعكاسات أسباب حالات التوتر والصراع التي شابت العلاقات بين العدوتين ونتائجها، وما تولد عن ذلك من حواجز نفسية ومظاهر من الانفعال والتشنج والنفور، وما إلى ذلك مما عبر عنه الأندلسيون أنفسهم بنعوت شتى، منها: العداوة، والحسد، والكراهية، والبغضاء، والنفرة... (3) وتجسد لديهم، بصفة خاصة، في مجموعة من الأمثال وفي ما ثار بينهم وبين المغاربة من نزاعات المفاخرة والمنافرة والمفاضلة... التي برع فيها الأندلسيون بشكل كبير، ولاسيما نوو الأصول المشرقية منهم، الذين غلب عليهم التعصب وأصابتهم آفة التبعج والاستعلاء، وندروا أنفسهم لنزع كل مزية فضل عن المغرب ورمي أهله بكل خلة شنعاء.

وهكذا فإن ابن بقي (4) لم ير في المغرب إلا بلد شح وبخل وقلة مروءة، كما في هذه الأبيات، التي قال فيها:

أقمت فيكم على الإقتار والعدم لو كنت حرا أبي النفس لم أقم
وظلت أبكي لكم عنرا لعلكم تستيقظون وقد نمتم عن الكرم
فلا حديقتكم يجبي بها ثمر ولا سماؤكم تهل بالديم
لا رزق عندكم لكن سأطلبه في الأرض إن كانت الأرزاق بالقسم

ولم ير ابن شخيص (5) في المغرب إلا بلدا فقرا، لا علم فيه ولا أدب، وليس فيه إلا الدهماء والغوغاء، كما في قوله:

وزادها في عماها أن أولها ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب
نشت مع الوحش في دهماء ليس لها في غير حسو الحسى رأي ولا أرب

أما المرتضى المرواني (6)، فإن المغاربة لم يكونوا بالنسبة له أكثر من عنصر مخرب ومفسد للأحوال والنظم، لذا وجب استئصال شأفتهم، كما في هذه الأبيات، التي نظمها لما ملك الأدارسة قرطبة، والتي جاء فيها:

قد بلغ البربر فينا بنا ما أفسد الأحوال والنظما

كالسهم للطائر لولا الذي فيه من الريش لما أصمى
 قوموا بنا في شأنهم قومة تزيل عنا العار والرغما
 إما بها نملك أو لا نرى ما يرجع الطرف به أعمى

إن مثل هذه النعوت والمواقف والصور لا تحصى في المؤلفات الأندلسية والمغربية والمشرقية على حد سواء، وتكاد تكون الإشارة إليها عامة سواء في كتب الوقائع والأخبار، أم في كتب الرحلات والجغرافية، أم في كتب التراجم والسير، أم في المصنفات الأدبية على اختلاف مشاربها، والتي يظهر في كثير منها أنه لم يسلم من بذاءة الأندلسيين حتى المغاربة الذين كانوا يشاركونهم الوطن أو يقيمون بين ظهرانيهم، بمن فيهم أولئك الجنود حماة الأرض الأندلسية وحراس ممتلكات أهلها، لا شيء إلا لأن كل ما كان يمت إلى المغرب بصلة كان غير مرغوب فيه، كما تعبر عن ذلك هذه النماذج من أمثال العوام، التي كانت كثيرة التداول في المجتمع الأندلسي:

- "كل ما يجي من الغرب مليح إلا ابن آدم والريح." (7)

- "البربري والفار لا تعلم باب الدار." (8)

- "أتيس من توقرت البائت الذي اكسر ضرس بش ينطبع له التصفير." (9)

- "أتيس من عبوا البائت الذي باع الجلابية واشترى المقرع." (10)

من خلال هذه الأمثال وغيرها، يمكن القول إن المغاربة الوافدين على الأندلس كانوا يعتبرون - في نظر الأندلسيين - مصدر إزعاج وتشويش لمخالفتهم للنظم، ويحملون مسؤولية ما كان يصيب المجتمع الأندلسي من انحرافات وآفات اجتماعية، لأنهم "طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع..." (11)، فلا غرابة إذن إذا كان المغربي البربري يمثل بالنسبة للأندلسي تلك الشخصية الغريبة الأتوار والأطوار والطباع، التي لا تستحضر سيرتها إلا في أجواء التفكه والتكيت، أو لرميها بما يستعاذ به من مكاره الأفعال والأمور.

ومهما يكن من أمر، فإن مواقف بعض الأندلسيين من المغاربة عموماً - بالأندلس كانوا أم بالعدوة الجنوبية - لم تقف عند مجرد الفتور والتحفظ والنفور، وإنما تعدته إلى النباش في أسرارهم والكشف عن نقائصهم وفضح عيوبهم ومساوئهم. صحيح إن كثيراً منها ليست أكثر من إسقاطات، أو حوادث وحكايات مختلفة، أو ربود أفعال انفعالية، يشهد على ذلك شحنها، في الغالب الأعم، بلهجات العدا والمبالغة والتهويل، لكن هذا لا يمكن أن يعتمد مبرراً لنفي بعض تلك الآفات والعيوب الاجتماعية التي عير بها الأندلسيون جيرانهم المغاربة، وأهل حاضرة فاس منهم خاصة، حيث يظهر أن من الأندلسيين من كانوا يجدون لذة ومتعة في إثارة نقائصهم، ولا سيما من قبل أولئك الذين أقاموا بينهم وعاشروهم وتمكنوا من الاطلاع على خباياهم وأسرارهم.

ويبدو أن الأندلسيين اعتمدوا، في كثير من الأحيان، أساليب لا تخلو من نكاء ومهارة في التشهير بتلك الأسرار والعيوب، كاعتمادهم على إثبات ما أفشاه المغاربة أنفسهم، وذلك حتى يقال: "لقد شهد شاهد من أهلها"، فتكون الحجة والبيانة أقوى ويصدق السند.

وعندما تحدث الأندلسيون عن فاس، فإنه بالرغم من الازدواجية التي ميزت التركيبية السكانية والعمرانية لهذه المدينة، بحكم أنها قامت منذ تأسيسها - إلى العصر المريني - على شطرين، هما: عدوة الأندلسيين (أو عدوة الأندلس)، التي غلب فيها العنصر الأندلسي، وعدوة القرويين، التي ساد فيها العنصر المغربي البربري، وبالرغم من غلبة روح التساكن بين العدوتين، إلا أن ذلك كله لم يمنعهم من التعصب لبني جلدتهم بعدوة الأندلسيين، وذلك بإثارة عوامل الاختلاف والتمييز بين عدوتي المدينة، والمفاضلة بينهما أحياناً لمجرد المفاضلة أو تقديم مقارنات لا تخلو في كثير من الأحيان من تصنع وتكلف، بل وسخف كذلك.

فهذا أبو عبيد عبد الله البكري الأندلسي (12) مثلاً، بالرغم من أنه يقر بأن "مدينة فاس مدينتان مقترنتان"، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن ينتقي من النصوص ما

يمكن من تمرير بعض أحكام القيمة والاستنتاجات والخلاصات، كتأكيد إن بعودة الأندلسيين "تفاح حلو يعرف بالأطرابلسي، جليل حسن الطعم، يصلح بها، وله غلة، ولا يصلح بعودة القرويين..."، التي إنما "يجود [بها] الأترج ويعظم ولا يجود بعودة الأندلسيين..."، ومثل نكره إن "سميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد عدوة القرويين لحذقهم بصنعتة..."، أو إن نساءهم أجمل من نساء القرويين، وأن رجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين!...

وعلى العموم فإنه يمكن القول إن الأندلسيين بهذا النوع من أساليب المفاضلة والمقارنة وبمثل هذه الآراء والأفكار، نجحوا في استئراجنا إلى استخلاص بعض الاستنتاجات، التي أبدوا، في كثير من الأحيان، هم أنفسهم نوعا من التحفظ والحيطه في التعبير عنها صراحة، ولاسيما ما تعلق منها بمجموعة من الظواهر الاجتماعية السلبية، التي نسبوها إلى الفاسيين وضخموا صورها ووقائعها ونفخوا في أحداثها، كما لو كانت مقتصرة عليهم دون سواهم، ومنها:

اللؤم :

الواقع أننا لم نقف على إشارات كثيرة ترمي أهل فاس بهذه المنقصة، وما هو متوفر منها انتقى الأندلسيون معظمه - عن قصد غالبا - من أقوال وشهادات محلية، كذلك التي نقلها البكري عن قاضي تاهرت أحمد بن فتح، والتي هاجم فيها أهل عدوتي فاس معا دون تمييز، وذلك من خلال هذين البيتين:

أسلح على كل فاسي مررت به في العدوتين معا ولا تبقين أحدا

قوم غنوا اللؤم حتى قال قائلهم من لا يكون لئاما لم يعش رغدا(13)

الأنفة والشتم ومقت الغرباء

كثيرا ما عير الأندلسيون أهل فاس بهذه الصفات النميمة المرتبطة ببعضها. وفي هذا الصدد كذلك، نقل البكري عن المغاربة - مرة أخرى - أن من أمثالهم: "فاس بلد بلا ناس"(14). فهل كانت مدينة فاس كذلك فعلا؟

لقد أورد الأسير الإيبيري دييغو دي طوريس Diego DE TORRES في القرن 16م - أي بعد حوالي خمسة قرون على عصر البكري - إشارة طريفة في الموضوع ، فقد ذكر أنه كانت على السور، قرب الباب المؤدي إلى فاس البالي، لوحة حجرية نقش عليها هذا المثل القائل: "فاس بلاد الناس"، (يعني: مقام الناس) و"من يخرج من فاس أين يذهب." (15) ؟

فهل يمكن القول إن هذه اللوحة كتبت لتقوم ما "اعوج" على لسان العامة وترد الاعتبار لأهل المدينة، أم إن ما جاء فيها على لسان العامة إنما كان تحريفا لمضمونها؟

مهما يكن من أمر، فإن عددا من الأندلسيين - لاسيما الذين نزلوا بفاس وافتتوا بجمالها - لم يخفوا، في المقابل، الإفصاح عن تذمرهم من بعض نقائص أهلها وعيوبهم كتبرمهم من الغرباء. وفي هذا الصدد قال يحيى بن سهل اليكبي (16) أحد أشهر خصوم الفاسيين:

فراق الهم عند خروج فاس لكل مسلمة تخشى وباس
فأما أرضها فأجل أرض وأما أهلها فأخس ناس
بلاد لم تكن وطنا لحر ولا اشتملت على رجل مواسي

وقال لسان الدين ابن الخطيب (17) في السياق ذاته دائما:

فاس لعمرى هي الدنيا بأجمعها لو لم يك القلب فيها ضيقا حرجا
من حل ساحتها لم ينج من كدر كأنما همها بمائها مزجا

وقال أيضا (18):

يا حبذا فاس الغراء من بلد كجنة الخلد أشجارا وأنهارا
الله يعلم أنني مذ حلت بها وجدت دارا ولكن لم أجد جارا

وأضاف ابن الخطيب، في مناسبات أخرى، إن من صفات أهل فاس "تجهم الوجوه للغريب..." حتى إن الرجل منهم "يلقى (...) أبا مثواه فلا يدعوه إلى بيته، ولا يسمح

ببقلة وزيته، [لذا] لا يطرق الضيف حماهم، ولا يعرف اسمهم ولا سماهم...، ومع هذا فإنهم "يرون لأنفسهم مزية الفضل..." (19)

وأكد الوزان من جهته بعض هذه النقائص المنمومة في أهل فاس من خلال قوله: "إن أكثرهم بغيضون لا يحبون الغرباء، مع أن عدد الغرباء قليل بفاس... و... أن الأعيان متكبرون جدا لدرجة أن عددا قليلا من الناس يستطيعون معاشرتهم، ويصدق نفس الشيء على العلماء والقضاة الذين يأبون، حفاظا على سمعتهم، أن يتعاملوا إلا مع بعض الأشخاص فقط..." (20)

الجبن وقلة الشجاعة :

كان من الطبيعي أن يتحدث الأندلسيون عن مدى شجاعة الفاسيين وقدرتهم على القتال، لاسيما في زمن سيطرت فيه هواجس المواجهة والتصدي والسمود والبطولة والفروسية والنود عن العرض. ولم يكن بالشيء الغريب أن يطعن بعض الأندلسيين في شجاعة أهل فاس ورجولتهم ويلمحوها، بل ويصرحوا أحيانا باتصافهم بالجبن وقلة الإرادة والعزيمة، كما قصد البكري، من خلال إثباته هذين البيتين المنسوبين لإبراهيم بن محمد الأصيلي والد الفقيه أبي محمد المفضل ابن عمر المنحجي، جاء فيهما (21) :

دخلت فاسا ولي شوق إلى فاس والجبن يأخذ بالعينين والراس
فلست أدخل فاسا لو حييت ولو أعطيت فاسا بما فيها من الناس

واللافت للانتباه أن الحديث عن مدى شجاعة أهل فاس لم يكن يثار، في الغالب، إلا في إطار من المقارنة أو المفاضلة أو التمييز أو قياسا بشجاعة أهل الأندلس، لاسيما منهم أندلسيو مدينة فاس وبالوافدين الجدد عليها على وجه التحديد، كما فعل البكري حين تحدث عن أن رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجد من القرويين (22)

وقد اعتمد الإيبيريون - ورثة الأندلس، بعد طرد المسلمين منها - بدورهم أسلوب المقارنة نفسه، عند حديثهم عن مدى شجاعة الفاسيين. فقد أكد الأسير الإسباني كربخال مرمول (23) في القرن 16م أن أنجد المجندين بفاس هم "مورسكيو

إسبانيا الذين نزحوا من غرناطة والأندلس. "أما أهل فاس" الآخرين إنما هم أناس تسلية مترفهون، لا يذهبون إلى الحرب إلا مكرهين. "ويعتبر مرمول هذه الخصلة مزية شهيرة يتمتع بها الفاسيون، منحها إياهم الملوك الأوائل (الأدارسة) الذين جعلوهم في حل من الدفاع عن أنفسهم إن لم يستطيعوا ذلك، بحيث إنهم يستسلمون للمنتصر إذا اقترب من المدينة بنصف فرسخ دون أن يتهموا بالجبن ولا بالخيانة، ذلك ما جعل عاصمة كهذه تتلقى التخريب لو كانت تتظاهر بوفاء باطل وخطير لأمير لا يستطيع الدفاع عنها."

وأيد مرمول في ما ذهب إليه مواطنه دي طوريس (24)، بل إن هذا الأخير ذهب إلى حد التلميح بأن الفاسيين مهياون نفسيا وعلى استعداد للقبول باستيلاء ملك مسيحي على مدينتهم، لأنهم - حسب زعمه - يعتقدون ذلك، كما يفهم من هذا الوصف الذي أعطاه للمدينة، والذي جاء فيه: إنه "تمتد بين مدينتي فاس [فاس البالي وفاس المرينية] ساحة كبيرة يقول المغاربة إن المجموع كله صورة سيف، نصله فاس البالي، وقبضته الساحة، ورمائه فاس الجديد، ويعتقدون أن ملكا مسيحيا سينال هذا السيف." (25)

انحلال الأخلاق وتفشي الفساد:

يبدو أن هذه الظواهر من فساد الأخلاق كانت أكثر ما ركز عليه الأندلسيون للطعن في أهل فاس، نسائهم ورجالهم وصبيانهم. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما كان يردده الأندلسيون من أمثال العوام بخصوص المرأة الفاسية بالذات، كهذا المثل القائل:

"عزبة باب السلسل(ة)، دخلت الزلال وطلقت الولول(ة)" (26)

فهل نذهب في الاستنتاج إلى أن نقول إن المجتمع الفاسي كان - في نظر الأندلسيين - مجتمعا منحلا ومتفسخا، والمرأة فيه غارقة في الرذيلة والفساد، إلى حد إنها لم تعد تخشى فضيحة أو عارا!!؟

مهما يكن من أمر، فإن هناك ما يؤكد أن الأندلسيين كان لهم - بلا شك - شيء من هذا التصور على الأقل، وإلا لما شاعت بينهم صور من هذا القبيل. بل

إن بعض الأندلسيين، الذين نزلوا بفاس أو أقاموا فيها، عاينوا - إن صدقوا - من مظاهر الخلاعة والتهتك ما هو أفظع، مثل تفشي ظاهرة اللواط والشنوذ الجنسي، وما شابه ذلك من منابر حتى بين بعض الأسر من خاصة المجتمع. والأنكى من ذلك أن من بين أولئك الأندلسيين من خصوا أنفسهم بفضح تلك الآفات والتشهير بها، لكن ليس من باب الورع والتقوى أو حتى من باب الاستنكار، وإنما بغرض التشفي والشماتة والطعن في أهل فاس. بل إن منهم من حرصوا على الاتغماس في تلك الرذائل - كما كان عليه الحال في الأندلس - وشجعوا عليها قولا وعملا، وأشاعوا ذلك بين الناس ووصفوه بأوصاف لا تخلو من إيحائية وبأقوال سافرة خليعة مفعمة بأحاسيس من الزهو والانتشاء.

ويعتبر يحيى اليكي - مقلب مواجع الفاسيين - أشهر مثال لهذا النموذج من الأندلسيين الذين عاشوا في فاس وقلبوا لأهلها ظهر المجن. فقد طعن في فحولتهم ورجولتهم، وعبث بصبيانهم، وسفه ببعض أفعالهم الشنيعة، وشتهم علانية، وبسط كل ذلك أمام خاصتهم وعامتهم من خلال ما نسب إليه وما روج من أقوال منظومة فيهم، كقوله (27) :

إذا الطفل منهم مس دائرة استه درى أنها مخلوقة للفاشل

وكقوله (28) :

قصدت جلة فاس أسترزق الله فيهم
فما تيسر منهم دفعت له لبنيههم

وقوله في صبي عبث به (29) :

عصابة سوء قبح الله فعلهم أتوا في علي بالدناءة والقبح
فززوه من وقت الصبح إلى المساء وناكوه من وقت المساء إلى الصبح
إذا جاء منهم واحد قام تسعة كما اختلفت نحل الربيع على الجبح

وقال كذلك (30) :

اطعن بنعلك من تلقى من الناس من أرض حمص إلى أقصى قرى فاس
 قوم يمصون ما بالبعل من نطف مص الخليع زمان الورد للكاس
 وعلى أي، فقد كان لهذه الآفات الاجتماعية مواسم مد وجزر، تبعا للظروف
 التاريخية العامة التي مر منها المجتمع الفاسي، ويبدو أن بدايات العصر الحديث
 كانت من بين "أزهى" تلك العصور، كما تؤكد ذلك العديد من الإشارات والشهادات.
 فقد تحدث الوزان عن شيوع ظاهرة الفساد بصفة عامة في معظم أحياء فاس
 وحومايتها. ففي عدوة الأندلس بالذات، كانت هناك دور عمومية تمارس فيها مهنة
 البغاء وتباع فيها الخمور بحرية وطمأنينة تامة، بل تحت رعاية السلطة (31)، تماما
 كما كان عليه الحال في الأرياض الهامشية الفقيرة المحيطة بالمدينة (32).
 أما في الفنادق، لاسيما في عدوة القرويين، فقد كانت - حسب مرمول (33) -
 "ملاجيء للشياطين، ترتكب فيها آلاف المعاصي بكامل الإباحة وبدون عقاب،
 لدرجة أنه يسمح لأصحاب الفنادق بالخروج بزى النساء، محلقين اللحى، متمنطقين
 كالنساء، مرققين صوتهم عند الكلام ومقلدين النساء لتحريض الرجال على فسق
 بشع، ويباح لهم اتخاذ وسطاء عموميين وبيع الخمر وإيواء النساء والصبيان..."
 ويبدو أن هذه الأنواع من الموبقات كانت مألوفة وعادية في المجتمع الفاسي،
 أو على الأقل كانت متفشية في شريحة عريضة منه وفي فئات من مختلف الأعمار،
 يشهد على ذلك ما كان يتغنى به علانية من قصائد منظومة في تلك الممارسات
 والأفعال، كان ينظمها شعراء الملحون "في الحب، يصف فيها بعضهم حبه للنساء،
 وبعضهم حبه للغلمان، فيذكر نون حياء ولا خجل اسم الغلام الذي يهواه..." (34).
 والأكثر من ذلك أن هذه المنكرات كانت مستشرية حتى بين من كان
 يفترض فيهم أن يكونوا قدوة للمجتمع الشعبي على الأقل، ونخص بذلك بعض
 الفرق الصوفية، التي دبت بين جماعاتها ظاهرة اللواط، حتى لقد سرى في حقهم
 "المثل السائر على جميع الألسنة بفاس: (مثل مآبئة النساك التي حولتنا من عشرين

إلى عشرة)، ومعنى ذلك أن كل مرید حدث يعرف ما ينتظره ليلا..."، على حد تعبير الوزان (35).

ويظهر أن هذه المفاصد والعيوب التي كانت منتشرة بين أهل فاس، ولاسيما منها ظاهرة اللواط، كان شائعا أمرها حتى في بعض المجتمعات المسيحية الأوربية، بل إن هذه المجتمعات اعتبرتتها قدرا محتوما بالنسبة لمدينة فاس، فإذا صدق دييكو دي طوريس، فإنه كان معروفا "أن لدى المسيحيين خبرا (أوحي) إلى سانت إيزيدور، أسقف إشبيلية، بأن ملوك فاس سيستأصلون بخطيئة اللواط." (36) علما أن هذا الأسقف عاش تقريبا في الفترة ما بين عامي 570 و636م، أي قبل تأسيس مدينة فاس بما يزيد عن قرن ونصف القرن (37). ويغلب على الظن أن خبر هذا (الوحي) المزعوم هو نفسه الذي قصده مرمول، وإن بصيغة أخرى، حين حديثه عن تتكيل محمد الشيخ السعدي بالفاسيين وبعلمائهم خاصة، لما تغلب على أبي حسون الوطاسي - عام 1549م - معتبرا ذلك عقابا لهذا الأخير على المنكرات البشعة التي كان يبيح ارتكابها علانية محاربة لله ورسوله (38).

وعلى أي فإن هناك مجموعة أخرى من المساوي والعيوب التي رصدها الأندلسيون في المجتمع الفاسي، من بينها ما جمعه اليكي (39) في الأبيات التالية:

يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم	فأصبحت فيكم الآراء متفكة
كل امرء قد حاز منقصة	بها أحاط كدور العين بالحدقة
وربما اجتمعت في بعض سائتكم	نقائص أصبحت في الناس مفترقة
كالقرن والقود المشهور والكذب الـ	معروف والخلة الشنعاء والسرقه
فلا تهابن فاسيا مررت به	وإن تقل فيه خيرا حول الورقة
والعنه شيئا وكهلا واجفه حدثا	ونكه طفلا ولو ألقيته علقه
فلا سقى الله فاسا صوب غادية	نعم ولا اخضر في أرجائها ورقة

كانت هذه إذن جملة من مواقف وآراء أندلسية في أهل فاس، والتي ارتكزت، بصفة خاصة، على استعراض بعض من مساوئهم وقبائح أفعالهم التي كان

الأندلسيون يستحضرونها، في الغالب، في مجالسهم الخاصة أو في معرض أحاديثهم للترويح على النفس من خلال تجريح الآخر، وذلك بما عرف عنهم من غلبة الطباع المرححة وحلاوة في المحاوراة، وأجوبة مسكتة وسرعة بديهة، لاسيما لدى المولعين منهم بالدعابة والتندر والتفكه، أو لدى المشتهرين بينهم بالظرف وخفة الدم، وهي على أية حال خصال اجتمعت كلها في الأندلسيين "كالغريزة، في صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم..."، على حد قول المقرئ التلمساني(40)، وهي خصال يبدو أنه لم يكن يضاهيهم فيها في العدة الجنوبية إلا أهل مراكش.

ومع أن معظم تلك المواقف والآراء تبقى في معظمها - من غير شك - مجرد حشو في هجو وكلام لا يعتد به ولا يعتبر، لأن غايته الطعن والإساءة ليس إلا، إلا أنه يمثل لا محالة شكلا من أشكال النقد الاجتماعي، وإن كان الفاسيون لم يستسيغوه، لشدة وطأته عليهم، فحاولوا الحد ما أمكن من تجني الغير عليهم، كما فعل الشيخ الصالح علي ابن حرزهم، الذي سعى إلى يحيى اليكي معاتبا إياه لإثباته عن التماذي في التهجم على أهل فاس وما خلد فيهم من القبائح، غير أن خبيث الهجاء اليكي ما قدر فضل الرجل ولا اعتبر مكانته وشأنه، بل أطرق وأنشده ما يكره، قائلا(41):

رأيت جنان عدن في منامي وحوار العين في أسنا لباس
فقلت : بما أحصل على هذا؟ فقيل: إذا هجوت لأهل فاس
فدع عنك الصلاح وكل بر فهجوهم يؤمن كل باس

وهكذا وأمام تماذي اليكي في هجو أهل فاس وإفراطه الشديد فيه، لم يجد الفاسيون بدا من الكيد له والنيل منه والتعسف عليه، "وساعدهم [على ذلك] واليههم مظفرا الخصي... والقائد عبد الله بن خيار الجياني... فقموا رجلا ادعى عليه بدين، وشهد عليه به رجل فقيه يعرف بالزناتي ورجل آخر يكنى بأبي الحسين، من مشايخ البلد، فأثبت الحق عليه وأمر به إلى السجن فرفع إليه وسيق عنيفا، فلما وصل إلى بابيه

طلب ورقة من كاتبه، وكتب فيها وأنفذها إلى مظفر مع العون الذي أوصله إلى السجن، فكان ما كتب:

لرشوا الزناتي الفقيه ببيضة يشهد بأن مظفرا نو بيضتين
واهدوا إليه دجاجة يحلف لكم ما ناك عبد الله عرس أبي الحسين" (42)

كيفما كان الحال فإن هذا الأسلوب الذي اعتمده الفاسيون لتأديب اليكي يبقى، من غير شك، أرحم وأهون كثيرا من أسلوب التواطؤ الذي اعتمده للإجهاز على لسان الدين ابن الخطيب حرقا. نعم، قد يكون اليكي لقي هو الآخر حقه قتلا، لكن على يد أهله من الأندلسيين وفي بلاده الأندلس وليس على يد أهل فاس.

مهما يكن من أمر فإن هذه الأساليب في الرد على المغرضين والجاحدين والحاسدين والخصوم إنما هي استثناء في أفعال الفاسيين وإلا فإن لهم هم كذلك باع طويل في المنظوم والمنثور، وهو معلوم ومشهور. وبالإضافة إلى ذلك فقد ذهب أهل فاس إلى حد تحصين مدينتهم بإحاطتها بهالة دينية وإضفاء صفة القدسية عليها لتعزيز مكانتها في النفوس وتأكيد دورها في حياة الناس، وهذا من خلال إشاعتهم لحديث منسوب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - جاء فيه: "تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس، أقوم أهل المغرب قبلة، وأكثرهم صلاة، أهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق، لا يزالون متمسكين به، لا يضرهم من خالفهم، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة." (43) فهل يدخل الكشف عن قبر المولى إدريس الأصغر - مؤسس المدينة، إن كان هو فعلا - في العصر المريني هو أيضا ضمن هذا السياق؟

كيفما كان الجواب فقد كان من حق الفاسيين أن يدافعوا عن أنفسهم ويتعصبوا لمدينتهم بالشكل الذي يليق بهم ويرضونه لأنفسهم ما دام أن حب الأوطان من الإيمان.

إنما وبعد كل هذا، إلى ما ذا كان يرمي الأندلسيون من تحاملهم على أهل فاس ومعاداتهم، والتسفيه بأفعالهم، والتشنيع بأعمالهم بتلك الحدة التي تشير

أحيانا نوعا من النقرز والاشمئزاز، وتخلف شعورا وإحساسا بضرورة النفور منهم وتحقيرهم؟

الواقع أن الأندلسيين تجنبوا - كما سبق الذكر - على المغاربة كافة، إلا أنه في حالات كهذه كان من الطبيعي أن ينصب تحاملهم - بصفة خاصة - على أهم الرموز وعلى العواصم وأشهر الحواضر والأوطان فأدت بذلك فاس - مثل مراكش وسلا... - ثمن تحضرها ومباهاتها لمثيلاتها في الأندلس، وإلا فبم تكون المفاضلة والمنافرة والمفاخرة والسجال، أليس بالرجال والأمجاد والبلاد...؟ إن هذا هو ما يلمس في مختلف أطوار الصراع وأشكاله وألوانه التي طغت على العلاقات بين العدوتين - كما هو الشأن عادة بين بلدين جارين - سواء في طابعها السياسي أم في صبغتها الاجتماعية أم الثقافية أم في غير ذلك.

ويمكن القول إن الأندلسيين وجدوا هم كذلك أنفسهم مدفوعين إلى سلوك ذلك المسلك، بالرغم مما غلب عليه من تعصب وغلو أحيانا، وذلك رد فعل منهم على الحضور المغربي في الأندلس ودور العنصر البربري في مختلف أطوار تاريخها، الذي اعتبر منافسا قويا غير مرغوب فيه، لاسيما من العنصر العربي المشرقي، نظرا لكثرة ما حدث من احتكاك وصدام بين هذين العنصرين، سواء أثناء الفتح الإسلامي للأندلس أو بعد ذلك في فترات استتلال الغرب الإسلامي أو خلال عمليات الاسترداد المسيحي لهذه الرقعة من العالم الإسلامي.

لقد ظهر الأندلسيون من أصل عربي أكثر العناصر الأندلسية "قومية" وتشددا وتعصبا لانتمائهم العربي ولبلادهم الأندلس، وأكثر بغضا ومقتنا لمن ينافرهم فيها، لذلك حرصوا كل الحرص على التميز بهويتهم عن هويات غيرهم، وذلك واضح في تراجم أعلامهم، إذ تجد: الأزدي القرطبي، والأنصاري الخزرجي الغرناطي، والغساني المالقي، والقيسي الإشبيلي، والقضاعي المرسي، والطائي البلسي... أضف إلى ذلك فضلهم في حمل الدين وتحضرهم وكونهم أصحاب اللسن والبيان...

كل ذلك غرس في نفوسهم طبائع الأنفة والاستعلاء التي جعلتهم يشمخون بأنوفهم على غيرهم، لاسيما إذا كان هذا الغير من طينة البربر.

تبعاً لكل هذا إذن، فإنه يمكن القول إن النفور الذي سرى بين أهل العدوتين، نتيجة لظروف تاريخية معينة - وكان أهل فاس من أكبر "ضحاياها" - إنما هو في الأصل امتداد لانعكاسات ما كان يحمله مشرق العرب عن مغرب البربر منذ ما قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا من أفكار غير واضحة وأحكام قيمة مسبقة وقلّة معرفة بهذا العالم، مما ولد لدى عرب المشرق نوعاً من الحيطة والحذر وعدم المجازفة في التعامل مع البربر أو الاحتكاك بهم، وهو ما يمكن أن يستتج بجلاء من سياسة التريث ثم الرفض للخليفة عمر بن الخطاب لرغبة قائده عمرو بن العاص في فتح بلاد إفريقيا البربرية، لأنها، كما قال: "ليست إفريقيا، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"، أو "لا أوجه إليها أحداً ما مقلت عيني الماء" (44)، كما في رواية أخرى.

والراجح أن ما لقيه العرب الفاتحون لبلاد البربر من مقاومة شديدة وعنفية على امتداد عقود طويلة، وما ترتب عنها من فواجع وآلام وضغائن وتشنجات نفسية ووجدانية، كل ذلك خلف بعض الأحقاد ومواقف عدائية مستكينة وهواجس وانفعالات متدمرة خفية وكامنة لدى العرب، ظلت حية في نفوسهم يحملونها في صدورهم أينما حلوا ولارتحلوا، لكنها طغت في كتاباتهم التي عكست تلك الهواجس بتلقائية وعفوية أحياناً، فجاء ما خصوا به البربر بالتالي مشحوناً بذاتية منفعة ومفرطة، لما وصفوهم به من أوصاف غير موضوعية، ولما قدموا عنهم من معلومات وأفكار ليست كلها مستندة إلى أسس صحيحة، بل ومشوهة في الغالب عن قصد، فجاءت تبعاً لذلك إلى الهجو أقرب.

وعلى سبيل المثال، فإن البربر، بالنسبة لياقوت الحموي (45) هم "أجفى خلق الله، وأكثرهم طيشاً، وأسرعهم إلى الفتنة، وأطوعهم لداعية الضلال، وأصغاهم لنمق الجهالة..." ولما تعرض لأصل نسبهم، ركز الحموي على اختلاف المؤرخين

فيه، لكنه لم يستسغ أن يكون "أكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب." فرد على ذلك بأنه "بهتان منهم وكذب..."

وللإشارة فإن الحموي جمع مادة لا بأس بها عن البربر، لكنها كلها في ما نسب إليهم من قبائح الأفعال والخلل الشنيعة، ولم ينسب إليهم ولا مزية فضل واحدة إلا مزية إكرام الضيف، التي لم يسمح بها إلا ليقربها بأخس المناكر وأحطها: اللواط والشنوذ. لكل هذا لم يكن غريبا أن ينهي كلامه عنهم بهنين البيتين للسميسر الأندلسي، أنشدهما إياه أبو القاسم النحوي الأندلسي الملقب بالمعلم، جاء فيهما:

رأيت أم في نومي، فقلت له: أبا البرية! إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك، قال: أنا! حواء طالقة إن كان ما زعموا

وقصارى القول، إن حواجز نفسية كانت تقف بين العرب الأندلسيين والمشرقيين من جهة والبربر المغاربة من جهة أخرى، تراوحت بين مد وجزر، طفت أحيانا وتأججت، وخفت أحيانا وخمدت، ولكنها ما تولت أبدا، لأنها نتاج تاريخ وذهنية، وإلا ما معنى أن نجد إلى هذا العهد مفكرا كأحمد أمين يعزف نغمة الأمس نفسها على الوتر نفسه وبالعقلية ذاتها، تماما كما فعل غيره في التعامل مع تاريخ المغرب ورجاله. فإثناء تناوله لتاريخ الأندلس، لم يجد أننى حرج في نعت جيش يوسف ابن تاشفين بالبربر الأجلاف(46)، لا لشيء إلا لأنه خلص الأندلس من عبث ملوك الطوائف. ولما تعرض لحادث أسر أحد هؤلاء الملوك، وهو المعتمد ابن عباد، على يد ابن تاشفين، لم يتردد هذا المفكر في أن يبدي وبحماس زائد وبنزعة مشرقية تعاطفه الشديد مع الملك الأسير ونقمة على الأسر، لأن هذا الأخير "كان يستطيع أن يحبس ابن عباد في قصر فخم يليق به من غير قيود وأغلال، ويجري عليه من الرزق ما يكفيه عن سعة، وبذلك يضمن تحصيل رغبته ويخفف من وقع الألم على ابن عباد، ولكنه [ابن تاشفين] بدوي جلف لا يفهم معنى الإنسانية."(47).

كانت هذه إذن جملة مشاهد وصور ملتقطة بعيون أندلسية عن فاس أو بالأحرى عن أهلها، والتي تعكس نمونجا لأسلوب من صراع لم يمت بعد، جر على

فاس وأهلها ما كان وسار مما تعرضنا لبعضه على سبيل الاستئناس، إنما فاس بقيت، لكن أين هو الأندلسي فيها!؟.

الهوامش:

- (1) - ألقى هذا العرض في الندوة الدولية حول "فاس والأندلس" التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسايس - فاس يومي 29 و30 نونبر 1995، ونشرت ضمن "أعمال ندوة: فاس والأندلس"، منشورات ك.آ.ع.إ. سايس-فاس 2001، ونعيد نشره نظرا لما شابه من أخطاء مطبعية كثيرة وتمنى أن يساعد نشر النص كاملا على استيعاب أعمق لمضمون الموضوع وتبديد تأويلات بعض السادة المعقبيين وردود أفعالهم.
- (2) - أورد هذين البيتين أحمد ابن القاضي في: جذوة الاقتباس، في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. جزآن، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، دار المنصور، الرباط، 1973 و1974، 1 : 80.
- (3) - هذه النعوت كثيرة في المصادر أندلسية ومغربية على حد سواء، وعلى سبيل المثال فقد تحدث الأمير عبد الله الزيري في مذكراته عن بغض الأندلسيين لجنس البربر "وبغضهم لجنسهم"، وتكلم عن تألبهم وبغضهم للزيريين...، انظر: كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة زيري في غرناطة. القاهرة، 1955، صص. 20 و24. وتحدث لسان الدين ابن الخطيب من جهته عن "النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة..." راجع: أعمال الإعلام فيمن بويح قبل الاحتلام. القسم الثاني، تحقيق: ليفي بروفنسال، الرباط، 1934، ص. 227.
- ويمكن رصد هذه النعوت كذلك في كتاب نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب...، لأحمد المقرئ التلمساني، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، هنا وهناك.
- كما يمكن الرجوع كذلك إلى: طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف، المنسوب لعبد العزيز بن عبد الواحد المزروزي، تقدم: محمد ابن شريفة، مجلة كلية الآداب بالرباط، العدد 1، 1977.
- (4) - وجاء في التمهة:
- أنا امرؤ إذ نبت بي أرض أندلس جئت العراق فقامت لي على قدم
أين الرجا والعلی من حازم يقظ يغزو أعاديه في الأشهر الحرم
إن كان سهما فلا تنمي رميته أو كان سيفا فمسلول على البهم
لا يكسر الله من الرمح إن به نيل العلي وأتاح الكسر للمقام
ولا أراق دما من بأسل بطل ومات كل أديب عبطة بدم
أوغلت في المغرب الأقصى وأعجزني نيل الرغائب حتى أبت بالندم
الفتح ابن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان. طبعة تونس (مصورة عن طبعة باريس)، 1965، ص. 325.

- (5) - قيل هذا بمناسبة تغلب الحكم المستنصر على الأدارسة بالمغرب. راجع: ابن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، مطبعة سيما، بيروت، 1965، ص. 160.
- (6) - نفع الطيب، م. س.، 1 : 403.
- (7) - عبيد الله بن أحمد الزجاجي القرطبي: أمثال العوام في الأندلس (مستخرجة من كتابه: ري الأوام، ومرعى السوام، في نكت الخواص والعوام). جزآن، تحقيق: محمد ابن شريفة، فاس، 1971، 2 : 253، مثل رقم 1082. والمقصود بالغرب هنا: المغرب الأقصى.
- (8) - المصدر نفسه (م. ن.)، 2 : 45، مثل رقم 175.
- (9) - م. ن.، 2 : 111، مثل رقم 492. "أتيس" بمعنى: أغنى وأجهل.
- (10) - م. ن.، 2 : 110، مثل رقم 491. و"البائت" هو الحارس أو الجندي، و"المقرع" هو العصا. وهناك أمثال أندلسية أخرى كثيرة تتعلق بالبربري، منها:
- "أتيس من عبو الفحام الذي كان ينجم الفحم بالورد." ينجم، بمعنى يزين.
- "حموا، وبني عمو." بمعنى: جاء القوم قضهم وقضيضهم.
- "في كدية عبو." عبو: تصغير لاسم عبد الله، ويكنى به في المغرب عن الكذب.
- "شاهد دكالة من قاع المظمورة." ولعل المقصود هنا أقام الدكاليين بالكذب والزور. راجع: م. ن.، ق. 2، على التوالي: ص. 111، م. رقم 493، ص. 194، م. رقم 854، ص. 402، م. رقم 1751، ص. 433، م. رقم 1889...
- (11) - ورد في نفع الطيب (م. س.، 6 : 228؟) مايلي: "لما كان البربر بالقرب منهم [الأندلسيون] وليس سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع ازدادوا منهم نفورا وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة..." تقلا عن: ذ. محمد ابن شريفة: طرفة الظريف. م. س.، ص. 44، ولم تتمكن من الوقوف على هذا النص في الطبعة التي اعتمدها من نفع الطيب.
- (12) - المسالك والممالك. قسم: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. مطبعة الحكومة، الجزائر، 1957، صص. 115-116. ومما يدل على التكلف والتصنع الغالب على هذا النوع من المقارنات أن ياقوت الحموي، الذي استقى معظم مادته عن فاس من كتاب البكري، اكتفى بالإشارة فقط إلى تفاح عدوة الأندلسيين، في حين استتكف عن ذكر أترج عدوة القرويين. انظر: معجم البلدان. دار صادر، بيروت، د.ت.، 4 : 230. ومن جهة أخرى، ففيما يتعلق بخاصية الجمال، خالف ابن القاضي البكري في مقارنته تلك، حين اعتبر "رجال عدوة القرويين أجمل من رجال عدوة الأندلس، وكذلك نساؤهم." م. س.، 1 : 37.
- (13) - البكري: م. س.، ص. 117.
- (14) - م. ن.، ص. 115.
- (15) - تاريخ الشرفاء. ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1988، ص. 142.
- (16) - الحموي: م. س.، 4 : 231.

- (17) - ابن إبراهيم عباس بن محمد التعارجي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام. 10 أجزاء، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1974-1983، 1: 13.
- (18) - علي الجزنائي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس. ط. 2، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، 1991، ص. 33، هامش رقم 78 (نسخة الخزانة الحسينية بالرباط، عدد 5166).
- (19) - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. تحقيق: محمد كمال شبانة، المحمدية، المغرب، د. ت.، ص. 179. انظر هنا النص كذلك ضمن مجموعة "مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس"، مطبعة الإسكندرية، 1958، صص. 69-115.
- (20) - الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا. جزآن، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1980 و1982، 1: 214.
- (21) - البكري: م. م.، ص. 117.
- (22) - م. ن.، ص. 116. وبالمناسبة فإن ياقوت الحموي، اليوناني الأصل البغدادي الدار، بالرغم من أنه نقل هذا النص بخلافه عن البكري وأثبتته، إلا أنه سمح مع ذلك لنفسه بالإضافة إليه وشحنه أكثر، فجاء كالاتي: "... وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجب وأنجد من رجال القرويين..." م. م.، ص. 4: 230.
- (23) - إفريقيا. 3 أجزاء، ترجمة: محمد حجي وآخرين، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984-1989/88، 2: 145.
- (24) - ذكر دي طوريس "أن أهم قوة في هذه المدينة [فاس القديم] هم سكانها الذين ليسوا شجعانا بطبيعتهم." (م. م.، ص. 114). وأهم "أكثر غنى وتشبها بملذاتهم، لذلك يكرهون الحرب وينفرون منها... ويعلمون قلة شجاعتهم بأمر وجهه إليهم أول ملك أسس مدينتهم، مؤكداً أنه قال لهم: إذا جاء بعض الأمراء ليقوم الحصار أمام فاس ولم يكن أميرها إذ ذاك قادراً على مواجهته بالقتال، فلهم أن يسلموها للعدو، دون أن يمكن التمامهم حقاً بالجن أو الخيانة، يقولون إن الملك الأول اتخذ ذلك القرار لتحتفظ المدينة ببيئاتها..." (م. م.، ص. 145). وبطبيعة الحال فإن هذا الكلام إنما هو دعوة صريحة للملوك المسيحيين لتوجيه حملات لاحتلال المغرب عامة وفاس خاصة، وهو ما عبر عنه دي طوريس في مكان آخر، بقوله: "... بحيث إن ملكاً مسيحياً يمكن أن يعمل على أن يجي منهم [أهل فاس] الخراج، لأنهم على أي حال لا يريدون تحمل متاعب الحصار." (م. م.، ص. 147). وكيفما كان الحال، فسواء صدقت هذه الروايات أم جانبت الصواب بإلصاقها بالجن وقلة الشجاعة بالفاسيين، إلا أنه ينبغي أن نفهم أن حرص أهل فاس على الأمن ينبعث من طبيعة أعمالهم التجارية والحرفية، التي لا تستقيم إلا في ظل انتشار الطمأنينة.
- (25) - المكان نفسه. بل إن دي طوريس يذهب إلى القول كذلك إن أفراداً وأميرات من البلاط السعدي بمراكش يعتقدون بأن الأمير البرتغالي دم لويس سيصبح ملكاً على المغرب. م. م.، ص. 161.
- (26) - أمثال العوام، م. م.، ص. 2: 389، م. رقم 1707.
- (27) - صفوان بن إدريس التميمي المرسى: زاد المسافر، وغرة محيا الأدب المسافر. تحقيق: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ط. 1980، ص. 121.

- (28) - م. ن.، ص. 122. ودون الحموي (م. س.، 4: 231). هذين البيتين كالآتي:
 دخلت بلدة فاس أسترزق الله فيهم
 فما تيسر منهم أنفقته في بنيتهم
- ومثل هذه النقول محرفة لأبيات من شعر اليكبي كثيرة في مصادر مختلفة، وهو ما يدل، في الغالب، على أنها كانت كثيرة الانتشار وتحفظ بسهولة ويجتهد متلقيها في القرض على منوالها ومحاكاتها أو إدخال تغييرات عليها...
- (29) - زاد المسافر، م. س.، ص. 122.
- (30) - المكان نفسه. ودون الحموي هذين البيتين (م. س.، 4: 231)، كما يلي:
 اطعن بأبرك من تلقى من الناس من أرض حمص إلى أقصى قرى فاس
 قوم بمصون ما في الأرض من نطف مص الخليع زمان الورد للكاس
 وتظهر هنا الحمية الشرقية واضحة لدى الحموي، حيث إنه استبدل بلدة حمص الشامية بمصر، القرية من بلاد البربر.
- (31) - الوزان: م. س.، 1: 193.
- (32) - م. ن.، 1: 215-216.
- (33) - م. س.، 2: 147. وهذا النص شبيه بذلك الذي أثبتته الوزان، بل نقل عنه، وجاء فيه إن من أسوأ ما في هذه الفنادق "مساكنة رهط يقال لهم ((المهوى))، وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهن، يخلقون لحاهم ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهن... إنهم يتفخحون أيضا. ولكل واحد من هؤلاء الأتفال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها. ول هؤلاء الناس أيضا في الفنادق زوجات أخلاقهن كأخلاق المومسات في مواخير أوربا. ولهم كذلك ترخيص بشراء الخمر وبيعه دون أن يزعمهم موظفو الحاشية." م. س.، 1: 183.
- (34) - م. ن.، 1: 202.
- (35) - م. ن.، 1: 209.
- (36) - دي طوريس: م. س.، ص. 138.
- (37) - ولد هذا الأسقف بمدينة قرطاجنة وتوفي بإشبيلية. وقد كان عالم لاهوت، وإليه يعزى تنظيم الكنيسة الإسبانية، ويعتبر من المدافعين عن الديانة المسيحية ضد المذاهب الفلسفية والثقافات المادية الملحدة، وله مجموعة من المؤلفات الدينية وأخرى في الأخلاق والفنون المختلفة...
- (38) - ذكر مرمول أن محمدا الشيخ السعدي لما استولى على فاس و"عابه الفقهاء على محاربهه لملك يدين مثله بدين الإسلام، أجهلهم بأنه يفعل ذلك عقابا له على المناكر البشعة التي يبيع ارتكابها علانية محاربة لله ورسوله، بحيث إنه مثل هؤلاء الفقهاء بمجرد ما أصبح سيديا، وكان معه قاض (سيدي موسى) أخذ في ذبح كل من استطاع إمساكه، ومنع أن يدفنوا حتى أكلتهم الكلاب، الأمر الذي لم يطل، إذ ما كاد يرجع عنهم حتى استأنفوا عادتهم الكريهة، وإن كان ذلك بجرأة أقل من السابق." م. س.، 2: 148.

- (39) - زاد المسافر، م. س.، ص. 121.
- (40) - م. س.، 3: 381.
- (41) - جنوة الاقتباس، م. س.، ص. 1: 80.
- (42) - نفع الطيب، م. س.، 3: 324.
- (43) - ذكر الجزنائي أن الفاسيين كانوا يتناقلون هذا الحديث خلفا عن سلف، وأنه موجود في كتاب لدراس بن إسماعيل المكنى بأبي ميمونة بخط يده مسندا إلى علي بن أبي مطر بالأسكندرية عن محمد بن إبراهيم ابن المواز عن عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس عن محمد بن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم. م. س.، ص. 20. وبالنسبة لترجمة دراس بن إسماعيل، راجع: جنوة الاقتباس، م. س.، 1: 194 وما بعدها.
- (44) - عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس. تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964، صص. 33-34.
- (45) - راجع: معجم البلدان، مادة "بربر"، م. س.، 1: 368-369.
- (46) - ظهر الإسلام. ط. 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، 3: 174.
- (47) - م. ن.، 3: 180.

البلديون الفاسيون مجموعة من المسلمين الجدد من أصل يهودي

مرسيدس كارسيا أرغال"
ترجمة عبد العزيز بل الفايدة*

مقدمة

يتمحور موضوع هذه الدراسة حول مدينة فاس خلال فترة تمتد من نهاية الحكم المريني إلى بداية العهد العلوي، أما موضوعها فيتعلق بفئة اجتماعية مهمة لعبت دورا في حياة هذه المدينة، وهي شريحة اليهود الذين أسلموا (أو المسلمون من أصول يهودية).

إن شساعة وامتداد الفترة المدروسة وانعدام منوغرافيات لا تجعل من الموضوع سوى مقاربة وعرضا للإشكاليات أكثر مما هي دراسة شاملة. وكيفما كانت الفترة المدروسة من تاريخ المغرب، فقد لعبت فاس خلالها، منذ نشأتها دورا متميزا على مدى سنوات عديدة، غير أن الفترة التي تهمننا هي المجهولة من تاريخ هذه المدينة(1).

ظلت هذه الأخيرة تلعب دورا كبيرا على الساحة المغربية في النصف الأول من القرن السادس عشر لأنها كانت وريثة تقاليد ثقافية وحضارية لأجيال

خلت ولم تخضع أبدا كغيرها من جهات المغرب.

إن الصراع بين السلطة المركزية ومدينة فاس (وهو صراع بوشر منذ نهاية العهد المريني) يشكل أحد السمات الكبرى من تاريخ المغرب تحت حكم الأسرتين الشريفتين. لكن إذا كانت فاس دائما تظهر موحدة في مواجهة العالم الخارجي، فإنها على العكس من ذلك كانت مجزأة داخليا إلى شرائح وفئات متلاحرة فيما بينها خلال هذه الفترة [...]. وقد ظهرت هذه الفئات بهذه الصورة خلال القرن XVم يغديها الحكام المرينيون الذين حكموا المدينة ذات الحواجز المتماسكة بسهولة(2)، وسوف نتبلور مع بداية الفترة التي تعيننا وستصبح هذه الفئات أهم الفرقاء بالنسبة لهذه الدراسة وهي كالتالي:

- الشرفاء: وهي الفئة القوية، فئة نبيلة عن طريق الدم، تتمتع بسلطة دينية وتتكون من أسر تتحدر من الرسول(ص) ، وغالبا ما تحضى بحماية الأسرة الحاكمة.
- الأندلسيون: الذين هاجروا إلى فاس بكثافة في نهاية القرن XVم وعلى دفعات مستمرة خلال القرن XVI (3).

- البلديون أو (البلديين): المنحدرين من اليهود الذين أسلموا، بعضهم أسلم خلال القرن الثالث عشر ومعظمهم في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي. وإلى نهاية السادس عشر، ويعرفون تحت اسم المهاجرين(4).

- فهؤلاء وآخرون أقل أهمية لم تشملهم هذه الدراسة (مثل اللمطيون الذين يشكلون الساكنة البربرية المحلية) هم الممثلون السياسيون لتلك الصراعات الحضريّة المستمرة، في حين أن الموالاتة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الأساسية تترجم في إطار تنظيم أفقي وليس في إطار مجتمع تراتبي بشكل عمودي(5).

- حافظت النخبة على تلك العداوة الاقتصادية والسياسية بشكل مستمر وانبتت على هبتها الدينية، قدرتها على التأثير في السلطة المركزية. وقد أدت الصراعات التي كان وراءها المهاجرون والبلديون إلى جدال بصيغة قانونية - دينية خلال القرن XVIIم والذي تحدثت عنه أغلب المصادر التي اعتمدها هذه الدراسة إذ وضحت

بجلاء استمرارية هذا الصراع ووجود فئة اجتماعية ذات عزيمة، ومختلفة عن بقية الشرائح المكونة للمجتمع.

المصادر

اعتمدت هذه الدراسة على ثلاثة مؤلفات مخطوطة وغير معروفة، بالإضافة إلى الإخباريات العربية (والغربية) المعاصرة والمعاجم البيوغرافية التي ستسمح لنا الفرصة بذكرها.

1 - " نكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين " (مخطوط بالخرزانة العامة بالرباط K. 270 ، ونسخة ثانية D. 1115). إنه كتيب من ثلاث وعشرين صفحة، مجهول المؤلف وغير مؤرخ، ربما أنه كتب في النصف الأول من القرن XVIII وهو مؤلف خصص مبدئياً للحديث عن تاريخ بعض الحنطات الحرفية والتجار في فاس ، ولكنه في الواقع استهدف تجارا من أصول يهودية. وقد سبق للباحث لويس ماسنيون أن نشر ترجمة ملخصة أو تركيبية لقسم من محتواه كملحق لمقاله « Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de Commerçants au Maroc » ، الذي نشر في مجلة العالم الإسلامي (R.M.M.) لسنة 1924، ص. 221 -

224.، وقد قدم جاك بيرك ملاحظات بشأنه في مقال بعنوان :

« Des Marranos musulmans à Fés" Mélanges en l'honneur de F. Braudel, Histoire économique du monde méditerranéen, 1450, 1650, Paris , 1973, p. 123 - 135.

وقد سبق لي أن اعتمدت على هذا المؤلف في مقالي حول ثورة فاس سنة 1465:

The Revolution of fas in 869 / 1485 and The death of Sultan Abdelhaq el Marini, BSDAS, XLI, 1978, p. 42 - 66.

2 - محمد ميارة (المتوفى سنة 1072هـ / 1662م)، " نصيحة المغتربين وكفاية المضطربين في التفريق بين المسلمين " (الخزانة العامة بالرباط : K. 508)، وقد استعملت نسخة غير معروفة (K. 923).

إنه مؤلف لعالم مشهور، ينتمي هو الآخر لأسرة "بلدية"، وهو عبارة عن جامع لفتاوى ولوثائق شرعية ومراسلات عن "البلديين" في فاس وقد ألف للدفاع عن هؤلاء (7).

3 - أبو العباس أحمد بن عبد السلام بناني (المتوفى 1234هـ / 1818م) صاحب "تحلية الأذهان والمسامع" (الخزانة العامة K. 650)، وهو عالم آخر من العلماء البلديين"، يضم هذا المؤلف عددا من الإشارات عن الوضعية السوسيو-اقتصادية للبلديين(8).

وعلى هذا فإن المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها هذه الدراسة تعود للقرنين 17 و 18م وبالتالي فإن قيمتها كوثائق لهذه المرحلة والمعاصرة لها تختلف عن قيمة تلك التي تتعلق بتاريخ مرحلة سابقة. وبالإضافة إلى هذا فإنها مؤلفات تتعلق بالجدل وكما هو معروف، "إذا كان التاريخ جدلا فإن الجدل ليس تاريخا" وهذا ما يضطرنا مسبقا للتمييز بين مرحلتين:

1 - القرنان XV - XVI والليذان يتزامنان مع الحكم المريني - الوطاسي ثم السعدي.

2 - القرنان XVII - XVIII والليذان يتزامنان مع حكم الأسرة العلوية على مدى قرنين.

لكن الذي يبدو ولأول وهلة تمييزا حسب المصادر المتوفرة ، يطابق أيضا تمييزا حقيقيا بالنسبة للقضية المطروحة، فخلال الفترة الأولى، كان البلديون في صراع دائم مع "الشرفاء" وهو صراع لم يكن في صالح الفئة الأولى. فمن بين المشاكل المطروحة خلال هذه الفترة، مسألة أصول هؤلاء البلديين ومدى مصداقية الأحداث المتعلقة بهم، وخلال المرحلة الثانية سوف يحصلون على نفوذ متصاعد إلى حد سيصبحون معه فئة اجتماعية مهمة داخل المدينة.

إن موضوع هذه الدراسة ورغم ما قد يبدو من خلال المقدمة، ليس وصفا للصراعات الداخلية في مدينة فاس خلال أربعة قرون، فالقضايا الجوهرية التي تهمننا هنا تتمحور حول أصل "البلديين" وحول الطريقة التي توصلوا بها للتمييز على المستوى الاجتماعي والثقافي وهي قضايا لن تجد جوابا إلا في إطار صعود وبروز فئة الشرفاء".

إن البلديين هم جزء من القالب الذي تشكل فيه الشرفاء، وانتهوا بأن أصبحوا بصمة مقعرة لهذا القالب، فسواء كانت أصولهم اليهودية حقيقية أم أسطورة في بعض الحالات، فهذا ليس له دلالة بالنسبة لموضوعنا: وهذا أصبح صحيحا أيضا بالنسبة لفئة الشرفاء.

إن ما يهمنا هو أن المجتمع الذي عاشوا فيه هو الذي قام بهذا التمييز، وأنه يجب أن نتساءل عن العلاقة بين تطور هذا الزوج المتناقض داخل الجهاز السياسي وبين تطور الساكنة برمتها وهي أسئلة يجب طرحها وإن لم نستطع حلها إلا جزئيا في الصفحات الموالية.

العوابق

إن قضية دخول اليهود إلى الإسلام في بلاد المغرب وفي شبه الجزيرة الإيبيرية تستحق دراسة شاملة وهذا لم يتأت بعد، فالموضوع ليس سهلا لأن الوثائق قليلة ومتفرقة والمنوغرافيات منعدمة.

يبدو بديهيا، أن هذا المشكل من حجم كبير وكان له أثر حقيقي على المستقبل الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات المغربية في لحظات متعددة من تاريخها. نسلم عموما بأنه خلال العقود الأولى من الهجرة وفي كل الأقاليم المغزوة، كانت هناك موجة من الانتقالات وبكثافة إلى دين الإسلام(9)، إلا أنه يجب الإشارة إلى بعض الحالات الشخصية والمتفرقة لبعض هؤلاء (والذين حملوا نسب "إسلامي") والتي تكررت في العالم العربي الإسلامي طوال العصر الوسيط(10). إلا أن عدد اليهود الذين دخلوا إلى دين الإسلام أهم بكثير في بلاد المغرب كما بين ذلك Hirschberg على ضوء دراسة "الأحكام" « Responsà » المغربية الوسيطية(11).

إن هذا النوع من المصادر يعكس بوضوح ما آلت إليه القضية خلال فترات مختلفة نظرا للمشاكل التي طرحها هؤلاء الإسلاميون بالنسبة للأقليات اليهودية خصوصا فيما يتعلق بقضايا الإرث والخالصة (Halisa) (أي تجنب الزواج المبني بين الأرملة و(أخ الزوج) وغيرها) وهناك حالات أخرى ظهرت من خلال

الفتاوى(12) كما ان الأدبيات الأوروبية حول بلاد المغرب خلال القرنين XV وXVI ضمت معطيات متناثرة وعديدة عن حالات فردية أو جماعية لهؤلاء الذين أسلموا من اليهود(13).

ومن جهة أخرى فإن الانتقالات التعسفية كانت تترك آثارا عميقة بين الأقليات اليهودية المغربية (بما في ذلك الأندلس) وكما تبين ذلك كتابات شخصيات مهمة مثل "مايمونيد" الذي دخل الإسلام بشكل تعسفي ويتحدث عن هذه القضية في رسالة تعزية أو مواساة « Epître de Consolation » وهو موضوع تناوله أبوه قبله في "رسالة انتقال تعسفي من اليهودية إلى الإسلام Epître de Conversion « forcée » ، وبعده أحد مريديه وهو راهب سبته الذي دخل الإسلام، واسمه يوسف بن يهودا بن عقنين، في كتابه "طب النفوس"(14).

ومعلوم كذلك أن هناك انتقالات مكثفة حدثت خلال القرن XIIم لما فرض الموحدون (ولو نظريا) على اليهود القاطنين فوق ترابهم، الاختيار بين الموت وبين الإسلام(15). هكذا ظهرت الأقليات التي دخلت الإسلام واهمها تلك التي ظهرت في فاس التي كانت تضم أكبر جالية يهودية(16) وقد تعرضت لإجراءات تمييزية كانت تحركها الشكوك حول مصداقية هؤلاء "المسلمين الجدد". وفي هذا الإطار يجب الأخذ بعين الاعتبار ما كتبه المؤرخ عبد الواحد المراكشي في "المعجب" أثناء حديثه عن هذا التمييز على مستوى اللباس والذي كان مفروضا على اليهود وبالتالي على "الإسلاميين" فهو يقول: "إن الذي دفع أبا يوسف ليميزهم بهذا اللباس هي شكوكه في إسلامهم لأنه اعتاد القول "لو كنت متيقنا من إيمانهم لتركتم يختلطون مع المسلمين ويتزوجون منهم ولو كنت متأكدا من عدم إخلصهم لقتلت رجالهم وأسرت أطفالهم ووهبت أملاكهم غنائم للمسلمين لكني لدي شكوك بشأنهم"(17)، ويضيف قائلا: "لم يوقع أي عقد حماية عندنا مع اليهود ولا مع المسيحيين منذ وصول مصمودة للسلطة وليست هناك معابد لليهود ولا كنيسة في كل بلاد

المغرب، فاليهود يتظاهرون بإسلامهم فيصلون في المساجد ويقرأ أبنائهم القرآن ويتبعون ديانتنا وسنتنا ولكن الله يعلم ما في صدورهم" (18).

ويتوسع بن عقنين في كتابه "طب النفوس" في الحديث عن الآلام والتمييز الذي تعرض له "الإسلاميون" وهنا يتجلى في منعهم من امتلاك العبيد أو تنفيذ الوصايا أو كأولياء والزواج من مسلمات "أصيلات" وغيرها من الأمور. ومع صعود الأسرة المرينية للحكم تغير مصير اليهود بشكل جذري إلى حد أنه تحت حكم أبي يوسف يعقوب عاد الإسلاميون بكثافة إلى اليهودية دون أن يتحملوا النتائج الناجمة عن هذه الردة (19). غير أن هناك عددا غير محدود فضل المحافظة على عقيدته الجديدة، وهذه الظاهرة انتقلت إلى شبه الجزيرة الإيبيرية حيث احتفى بها يهود مغاربة فارين من اضطهاد الموحدين وخاصة في الأراضي المسيحية التابعة لمملكة أراكون. وهكذا وفي إطار سياسته العامة ومن أجل جلب اليهود إلى بلاده، أعطى جاك الأول الأراكوني أوامره من أجل تسهيل عملية تهجير أولئك القادمين من شمال إفريقيا (20). ومع ذلك توجد إشارات عديدة تبين بدون شك بأن الدخول الطوعي لليهود إلى دين الإسلام خلال القرنين XIII و XVI أصبح مشكلة حقيقية في أراضي أراكون وكاطالونيا (21). وهذا دليل على أن عددا من اليهود اندمجوا بشكل سريع في الإسلام وأن الهجرة لم تكن من علامات زيف إيمانهم بل هي من علامات قساوة الظروف المعيشية للإسلاميين".

مدينة فاس

إذا كان موقف السلاطين المرينيين الأوائل إيجابيا إزاء اليهود، فإن العداوة القديمة لمدينة فاس إزاء جالياتها حافظت على حدتها كما كان عليه الحال على عهد الموحدين وزاد من حدتها وجود موظفين ساميين يهود في حاشية السلطان (22) في سنة 674هـ / 1276م، اندلعت في فاس اضطرابات بلغت أوجها بتقتيل في صفوف اليهود وتخريب حيهم، وقد تدخل السلطان أبو يوسف يعقوب شخصيا على رأس

حرسه لإعادة السلم وتهئية المتظاهرين ويبدو أن عددا من اليهود سبق أن دخلوا الإسلام للتخلص من حد السيف(23).

وحسب صاحب "نكر قصة المهاجرين" فإن اليهود الذين ظلوا متشبثين بإيمانهم رغم الأخطار، كانوا يتهمون أو يسخرون من هؤلاء وأعطوهم اسما مشينا هو اسم "المهاجرين".

وبعد سنوات قليلة، بدأ أبو يوسف يعقوب في بناء فاس الجديد، وبما أن التواريخ متقاربة، فقد اعتقد بعض الباحثين أن السلطان استغل الفرصة لتهجير اليهود إلى عاصمته الجديدة حماية لهم (24) إلا أن بناء الحي اليهودي في فاس الجديد والمسمى الملاح، يعود لفترة لاحقة.

ورغم أن المعطيات الواردة في المصادر غير واضحة وملينة بالتناقضات، فيمكن أن نعتبر اعتمادا على Corcos و Hirschberg ومن خلال المصادر اليهودية، أن تهجير اليهود من "حي فندق اليهود" بفاس البالي نحو ملاح فاس الجديد حدث حوالي 1438م(25).

إن بدايات الحركة السياسية للدولة والتي تبلورت عند اكتشاف ضريح المولى إدريس سنة 1438م، أثرت على تهجير اليهود خارج مدينة فاس التي اعتبرت حرما منذ ذلك اليوم. وقد زادت حدة آلام اليهود هنا فضلا عن الغموض الذي كان يسود مدينة فاس خلال النصف الأول من القرن XV م. هكذا سوف تختار العديد من الأسر الثرية الدخول لدين الإسلام عوض التخلي عن أحيائها وممارستها التجارية، وهذا التحول الذي عاشه اليهود بمثابة آفة حقيقية سوف يحدث موجة ثالثة من الانتقالات إلى دين الإسلام التي ستعرفها فاس، وستقوي الجالية اليهودية المستقرة في فندق اليهود وقد شهدت العديد من الأسر المغربية هذه الظاهرة وخاصة في مدينتي الرباط وسلا(26).

لكن يمكن القول وبشفافية إن هذه التدابير قوت وزادت من الجالية الموجودة والتي سبق لها أن رسمت خطوط المنافسة الاقتصادية مع "الشرفاء". ويتحدث ابن

السكاك عن هذه الفئة في كتابه "تصح ملوك الإسلام" والذي يعود إلى السنوات الأولى من القرن XV والمهدى للشرفاء، إذ يشير إلى أنها فئة متجانسة وتوجد ضمنها أصناف متعددة، من بينها من يستحق الاحترام الشعبي وخاصة تلك التي تتمتع بنوع من النفوذ والثراء أو اليسر" وهو احترام يحظى به أيضا كل "رجل سلطة" وكل "ثري إسلامي" (27)، الشيء الذي قد يفيد وجود "إسلاميين" بفاس مع بداية القرن يتمتعون بنفوذ وغنى شأنهم في ذلك شأن "الشرفاء"، وليس غريبا أن نقيم مقارنة بين أفراد الفئتين (28).

مسار الصراع

يظهر المسار العام لهذا الصراع أو المنافسة بوضوح في كتاب "نكر قصة المهاجرين" ويجب أن لا ننسى بأنه مؤلف صغير نو طابع جدالي، ألف ضد المسلمين الجدد غير أن المعلومات أو الإشارات والتحليل التي يقدمها فهي ذات أهمية كبيرة. فالمؤلف المجهول بعد أن تحدث عن قيام المولى إدريس منذ تأسيس فاس، بالتمييز بين حنطات التجار والصناع، أشار إلى الفئة التي تهمنا، فحسب هذا المؤلف "مارس المهاجرون وبكثافة مهن المسلمين وغير المسلمين بعد نهاية الفتن التي تعود لسنة (674هـ / 1276م) واستقر البعض منهم في أسواق القيسارية حيث نشبت بينهم أعمال الغش والخداع وسوء النية والمعاملات الربوية" (29).

ومننذ بدأ الصراع حول الهيمنة على القيسارية وبدأت الاتهامات تحاك لزاء الممارسات الغير مشروعة وأعمال الغش التي يتحدث عنها كتاب "نكر قصة المهاجرين" مثل عرض بضاعة جيدة ثم تعويضها ببضاعة أخرى أقل جودة بالنسبة للزبون وغيرها (30) وحسب نفس المصدر فقد كثرت تظلمات سكان المدن، وسكان القرى وتعددت المحاكمات أمام القضاة وإنذارات العلماء والتي كان المهاجرون يجهلونهم وقد هدد قاضي فاس بتقديم استقالته للسلطان أبي يوسف إذا لم يتخذ هذا الأخير تدابير معينة. وهكذا وتحت الضغط قام السلطان بالإعلان عن عدد من الإجراءات ضد "الإسلاميين" أو "المسلمين الجدد" وخاصة منعهم من ممارسة كل

الحرف" باستثناء تلك التي تضيف على ممارستها الاعتداد بالصدق وحسن النية وتلك التي لا تتضمن إلا نسبة قليلة من الغش" (31).

وقد كانت لائحة الحرف التي يمكن امتهاتها غريبة نوعا ما (32) ولا تجمع بينها نقط مشتركة أخرى (باستثناء إيماء بعضها والمراقبة من طرف المحتسب وبالتالي من الصعوبة اقتراح الغش مبدئيا في ظلها)، وانطلاقا من هذا يتحدث الكتاب عن هذه الأحداث بشكل يسمح بالقول بأن الهيمنة على القيسارية كانت هي أصل الصراع.

وعند طرد المهاجرين من القيسارية - حيث منعوا من ممارسة المهن الشريفة والمربحة - عادت الأمور لحالتها الطبيعية وذلك إلى حدود فترة حكم عبد الحق آخر السلاطين المرينيين، وقد عين هذا الأخير وزيرا يهوديا هو هارون اليهودي،، وحاجبا اسمه "صمويل" وقائدا للشرطة هو "حسين".

وتحت ضغط هؤلاء اليهود، أصدر السلطان عبد الحق مرسوما قرر بموجبه أن يؤدي الخراج كل المواطنين بفاس بما فيهم الشرفاء الذين كانوا معفون من أداء الضرائب.

إن عدم احترام السلطان للشرفاء وفقدانه للموارد دفع المهاجرين للمطالبة بإمماجهم في القيسارية، وبمناسبة العيد قدم المهاجرون هدية للسلطان ووعدوا بتقديمها كل سنة إذا ما سمح لهم السلطان بولوج القيسارية، وهكذا وبعد استقرارهم بها طالبوا بأن يقدم الهدية في السنة الموالية كل تجار القيسارية إذا رغبوا في متابعة أنشطتهم التجارية - وقد كانت هذه المبادرة تفترض معاملة سيئة إزاء الشرفاء الذين تمتعوا دائما بالإعفاء من الضرائب. وبعد أن نجحوا في تطبيق تقديم الهدية على الكل، طالبوا ناظر الأحباس ببيعهم "حق جلوس المحلات" مقصين في أن واحد كل فرد أو مجموعة أخرى وقد رفض الناظر طلبهم لكن المهاجرين حصلوا على مساندة من حسين اليهودي وخاطبوه قائلين "لست ملزما ببيع الأصل بل الجلوس فقط ... وهذا من شأنه أن يوفر موارد مالية للسلطان هو في حاجة

إليها" (33) وهكذا وبعد شرائهم لحق الجلوس " أصبح كل من يشغل محلا يؤدي لهم واجب الكراء.

احتفظ المهاجرون بملكية المحلات والدكاكين إلى حدود ثورة المسلمين في فاس و"مزوار الشرفاء"، محمد الحافظ بن علي بن عمران الجوطي، ومقتل عبد الحق المريني (34). وقد قام الشريف بطرد المهاجرين من القيسارية ومن المحلات التجارية سنة 886هـ / 1481م. وقد دام هذا الإبعاد طوال حكومة الجوطي وسيعود المهاجرون إلى القيسارية من جديد تحت حكم أحمد بن محمد الوطاسي (932هـ / 1526م - 956هـ / 1549م)، ونتوفر حول هذه الفترة على روايات متعارضة، فحسب "الذکر" فإن احمد الوطاسي عين جابيا عاما للضرائب الغير المباشرة (المكوس)، المنجور الإسلامي، أحد المسلمين الجدد، ومقابل أداء 2000 قطعة ذهبية سنويا، اشتروا حق الاستقرار بالقيسارية.

ثم ستعود الصراعات بين التجار المتواجدين بها وبين المهاجرين من جديد وقد دفعت ضرورة الحرب الأهلية بين الوطاسيين والسعديين، بالأول إلى الاعتماد على الإعانات المالية للمهاجرين (35).

وحسب " النصيحة" لميارة (36) فإن مرحلة هذا الصراع بدأت سنة 934هـ / 1528م لما حاول أحد المهاجرين المدعو أحمد بن إبراهيم بن يحيى المكناسي، فتح دكان لبيع الأثواب الثمينة في القيسارية وقد عارض التجار ذلك وقدموا عريضة للسلطان أحمد الوطاسي يبينون فيها بأن المهاجرين - وحسب أقوال آبائهم - ليسوا أشخاصا يمكن أن نثق فيهم بل يلجأون إلى الغش في حين أن القيسارية مكان حيث يمارس التجارة، الأشخاص المتدينون ونوي الفضل ولهذا فإنهم يطالبون السلطان بمنعهم من الدخول إلى القيسارية.

وهكذا كلف أحمد الوطاسي وزيره محمد المسعود بمعاينة هذه القضية وبالأخذ برأي فقهاء مكناس وفاس وباقي المدن في هذه المسألة. وقد توصل السلطان بسبعة عشر جوابا: اثنا عشر جوابا من علماء فاس وثلاثة أجوبة من فقهاء

مكناس وجواب واحد من مدينة من شمال المغرب وواحدة أخرى من الجزائر (37). ويخبرنا صاحب "الذکر" كذلك بأنه تمت استشارة الفقهاء إذ يؤكد بأنه بعد انتصار السعديين، قام السلطان الجديد محمد الشيخ بإيداع المنجور في السجن نتيجة شكوى تقدم بها أهل فاس وحاول التدخل شخصياً في هذا النزاع. وأظهر المهاجرون للسلطان بالمناسبة، الفتاوى التي تحت على عدم التمييز بين المسلمين وعلى إمكانية لوجهم القيسارية، لكن السلطان الجديد اعتبر أن الفتاوى المضادة (إذ يشير كتاب الذکر لواحدة منها وهي غير مكتملة لعبد الواحد الونشريسي) لها قيمة أكبر، وبالتالي قام بطردهم (38). أما ميارة من جهته (والذي لا يتحدث عن وجود المنجور الإسلامي) فقد استطرد كثيراً في الحديث عن الفتاوى التي قدمت للسلطان أحمد الوطاسي، وتتفق كل الفتاوى - والتي توجد ضمنها أسماء أهم المفتين - على عدم التمييز الشرعي بين المسلمين كيفما كانت أصولهم وطبيعتهم، وتوجد كذلك فتاوى الونشريسي التي تتضمن شكاوى مقدمة من طرف التجار إلى السلطان (39).

"إن كل المسلمين بما فيهم المهاجرون يجب أن يكونوا نزيهين في معاملاتهم، وكل من أبان عن نوع من عدم الاستقامة، أو الرشوة داخل السوق سوف يعاقب أو يطرد نون تمييز بين مهاجر وشخص آخر..." (40). وهذا هو رأي "القصار" كذلك (المتوفى عام 1514م). إن هذا سوف يمكن من إعادة الاعتبار أو التقدير ليس للأصل فحسب بل للشهرة أو (التواتر) (Tawature) الشيء الذي لا يستتعي قدرة السلطان على القرار أو ضغوط العامة ويقدم في الحقيقة المبررات الأساسية للجدل (41).

ويمكن القول إنه بالإضافة للحوافز الاقتصادية، فإن جوهر المشكل هو معرفة كون احترام الشخص رهين بأصوله أم رهين بمؤهلاته الشخصية. ويجب كذلك ألا نغفل أهمية فتاوى أبي علي الحرزوز المكناسي حول طرد المهتدين لدين الإسلام، فهو يقيم نوعاً من الموازنة بين القاطنين بفاس وبين أهل مكناس وحسب رأيه فإنهم يعتبرون من المسلمين النقاة والمتصفين بالنقاة وصدق الإيمان (42). وعلى

ضوء هذه المشاورات الشرعية، رخص أحمد الوطاسي للمهاجرين دخول أسواق المدينة والقيسارية (43) أما بالنسبة للمنجور، فيشير ابن عسكر (نوحة الناشر) حول بيوغرافية عبد الواحد الونشريسي ما يلي: "حكى لي حاجب السلطان أحمد الوطاسي الحكاية التالية: اتهم أحد موظفي الدولة المعروف بالمنجور بإخلاله بالواجب وقد أكد أربعون عدلا صحة هذا الحادث. وهكذا أصدر السلطان أمرا بإعدامه ومصادرة أملاكه لفائدة بيت مال المسلمين، لكن أبناء المنجور حاولوا إخفاء الدلائل التي تدينه لاسترداد أملاك أبيهم وقدموا للسلطان مبلغا قدر بعشرين ألف دينار. وهكذا طلب السلطان من الحاجب الاتصال بالشيخ عبد الواحد ومساءلته في هذه القضية "قل له بأني بحاجة لهذا المال في حملاتي الحالية" ويتحدث الحاجب بعد اتصاله بالشيخ قائلا "نقلت للشيخ أقوال سيدي، وتحدثت معه ورجوته أن يوقع لفائدة السلطان بقبول الأموال" وتساءل الشيخ واستحلفه بالله". كيف يمكن أن أقبل - تحت رغبة السلطان - بإبطال شهادة أربعين عدلا ! اذهب وقل للسلطان بأنني لا أوافق على رغبته، وهكذا نقلت أقوال الشيخ لسيدي حيث استمع لرأي الشيخ وعدل عن مشروعته" (44).

وتظهر هذه الأسباب - حرفيا - حتى في النصوص من أصول مختلفة، من جهة اتهامهم بالغش والخداع وعدم النزاهة ومن جهة أخرى، حصولهم على امتيازات وحقوقهم لم تكن من حقهم. وأخيرا تمكنهم من الاتصال مباشرة بالسلطين الضعفاء أو عن طريق موظفين مرتشين غالبا من أصل يهودي أو "مهاجر". وسيعيد "المهاجرون" الكرة في عهد ابن السلطان أحمد المنصور الذهبي، الشيخ المامون عندما كان أميرا على فاس، فقد حاول المهاجرون شراء نمة "الإسلامي" أبي العباس أحمد المنجور (995هـ / 1587م) (ونلخص من جيد رواية "الذکر" (45) وفي سنة (991هـ / 1538م) حرر الأمير عقدا قانونيا رخص لهم بالإقامة في المدينة.

فحسب ميارة أصدر ظهيرا مؤرخا بسنة 1010هـ / 1601م حيث صرح بأن هذا يتنافى مع الشريعة وحضهم "على الابتعاد عن التفاخر بالألقاب وبالنسب وعدم

التمييز بين المسلم القديم أو الجديد لأن الدين واحد والمسلمون سواسية، إنكم تتحدرون من آدم وآدم من تراب وأن الإسلام يبطل ما سبقه ... وكل من لم يطبق هذا وكل من أخذ شخصا على كونه ليس عربيا أو أنه مرتد، أو كل من عمل على التمييز أو الاتشفاق، سيقع في الخطأ وسيزيغ عن الطريق المستقيم. إن أسواق المسلمين لا تنتمي لأحد دون الآخر ... فعلى الكل الأخذ بعين الاعتبار بهذا القرار وتنفيذه ..."(46). وسيعود خلفه مولاي عبد الله (1613 - 1623) لتهميشهم حيث سيتم في هذه المرحلة البحث عن وثائق إثبات في المبدأ المالكي المعروف "بسد الذريعة"(47)، والذي يرخص من باب الوقاية لبعض الاحتياطات الأمنية لما يتعلق الأمر بأمالك الدولة الإسلامية وكذلك لكون المهاجرين "متهمين بالرشوة على خلاف باقي المسلمين".

إن المهاجر السابق الذكر، نعرفه بدقة لأن الأمر يتعلق بفتية شهير أصبح أستاذا للعلوم العقلية في فاس وكان له تأثير كبير في الدوائر الحكومية زمن أحمد المنصور. ويذكر صاحب "النزهة" بأنه عين يوما ما من طرف السلطان ليقوم الصلاة بالناس، فمنع القاضي الحميدي (المتوفى 1003هـ / 1594 - 1595م) المنجور من دخول المحراب، لكن السلطان طلب منه أن يسمح له بالدخول قائلا: "اتركه يدخل لأنه أكبر منك علما" وأجاب القاضي قائلا " إذا كان علمه قد دفع به نحو الإمام فإن أصوله تضعه في أسفل الدرجات"(48).

وهكذا نصادف مرة أخرى إشكالية التعارض بين الاستحقاق على مستوى النسب أو الاستحقاق الناجم عن النجاح الشخصي. وهذا ليس مشكلا جديدا على مدينة فاس ومن الصعب مصادفته بهذه المدينة التي شهدت ميلاد نخبة سياسية واقتصادية قوية هي نخبة "الشرفاء" التي خلفت وراءها منافسات قوية.

إن مثل هذه الحكايات أو النوانر (أنظر واقعة الحميدي مع المنجور) التي دارت حول نفس القضايا ولكن بممثلين جدد ، حدثت في فاس قرنين من قبل فيحكي أن عبد الله المقرئ جد مؤلف نفع الطيب كان يوما ما موجودا في مجالس السلطان

المريني أبي عنان لما دخل مزوار "الشرفاء". ومن باب الاحترام وقف له كل الحاضرين بما فيهم السلطان، باستثناء المقرئ، وقد عاتبه المزوار على هذا التصرف وعلى عدم احترامه له ولأصوله الشريفة، وأجاب المقرئ قائلاً: "إنني أحمل الشرف في ذاتي، وأنشر العلم وهذا لا يشك فيه أحد، إن شرفك فيه شك، فمن يستطيع ضمان شرعيته بعد أكثر من 700 سنة؟ وإذا كنا متيقنين من ذلك فإننا سنخلع هذا (مشيراً للسلطان) لنضعه مكانه". ويبدو أن جواب المقرئ جعل كل الحاضرين مشدوهين (49).

لكن إذا كان الصراع حول القيسارية أمراً قائماً بين المهاجرين والشرفاء، فإن الأندلسيين دخلوا طرفاً فيه كذلك، فمباراة يهاجمهم بشدة في نصيحته، ويشتكى من خيلاءهم - وهو ناتج عن افتخارهم بأصولهم - والذي يدفعهم إلى الإحساس بتفوقهم على باقي المجموعات وسنعود لهذا الموضوع فيما بعد.

وبزوال الدولة السعدية، استولى الدلائيون على فاس (1051هـ / 1641م)، فحسب صاحب "الذکر" فإن اليهود الوسطاء، توسطوا لصالح المهاجرين وكسبوا عطف السلاطين، فقاضي فاس علي عبد الله التلمساني استقبل وفداً من المهاجرين إذ يقول "إن الشرفاء السعديين الذين منعونا من الاستقرار في فاس وممارسة المهن النبيلة، فقدوا سلطتهم والتي هي الآن بيد العوام. أقبلوا إن هذه الهدية وتوسطوا لنا لدى الأمير مستندين على بعض الاستشارات القانونية (50).

ويبدو أن عطف السلطات الحقيقي قد أحدث اضطرابات وقلقاً داخل المدينة، تحولت أحياناً إلى تمير ونهب نكاكين المهاجرين. وهكذا قرر الحاكم أبو بكر التلملي استشارة الفقهاء من جديد لكن هؤلاء التزموا الصمت بل لم يقدموا إلا أجوبة وجيزة أو غامضة إذ أرعبهم عنف خصوم التجار اليهود - الجدد، فالوحيد الذي كتب جواباً مستفيضاً يؤكد على المساواة بين كل المؤمنين، هو محمد بن أحمد الأبار.

مشكلة الأصول

في هذه الآونة تدخل ميارة وهو معاصر للأحداث، حيث أصبح من أهم المدافعين عن قضية المهاجرين بتأليفه كتاب "النصيحة"، وهو ينتمي إلى هذه الفئة وأحد رجال القانون أو اللاهوتيين المهمين في زمانه ولم يشغل مناصب عمومية نظرا لأصوله (51). وبتأليفه لهذا الكتاب أصبح محط انتقاد من طرف جزء كبير من الأرسنقراطية الفاسية إلى حد أنه أصبح مضطرا لمكاتبة السلطان محمد الحاج الدلائي يطلب حمايته. وقد دون كل هذا الجدل في "تقريظ" (Taqriz) محمد ابن عبد الواحد العوفي الذي كتب لفائدة ميارة من طرف أحد رفقائه في العلم وضدا على منافسيه (52). وكتب في نفس الوقت لفائدة ميارة ومساندا له في هذا الجدل، أحد العلماء من أصول يهودية، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان ابن زكري.

وحسب صاحب "تشر المتاني" (القاري) (53) فإنه مثل ميارة، فقد دافع عن مسألة تفوق "العجم" على العرب بل أكثر من ذلك فقد كان يتبجح بأنه ينحدر من بني إسرائيل ومن الرسل اليهود.

وفي الحقيقة، إن ميارة استعمل جزءا كبيرا من القرائن للرفع من قيمة "العجم" ومن جهة أخرى شكك في مسألة الأصول العربية لبعض الفئات وخاصة "الشرفاء" والأندلسيون بل أكثر من ذلك فهو يكن عداوة لهذه الفئة الأخيرة، فهو يتهمهم في أكثر من مناسبة بأنهم يعتبرون أنفسهم - علاوة على أصولهم - أكثر شأنا حتى من الشرفاء أنفسهم، بل لا يعترف بالأصول العربية لأغلبهم ويعطي قيمة للعناصر البربرية والإسبانية - الرومانية والعبيد في المجتمع الأندلسي (54). إنه يتهمهم بالجهل ويؤكد على أن أغلب الأندلسيين هم في الحقيقة عناصر غيرت دينها، إنهم فقد انضاف إلى عرقتهم جهلهم وعدم معرفتهم بالعلوم (55).

ويعلن في الأخير بأن الأصل الفاسي أعلى شأنا من الأصل الأندلسي ويؤكد صراحة بأن فاس أعلى شأنا من الأندلس (56). إن العائلات اليهودية التي دخلت الإسلام منذ وقت بعيد، تعتبر متجنزة في المدينة: إن "المهاجرين" يعلنون عن

"مواطنتهم" الفاسية ويفتخرون بأصولهم الحضريّة، فهم لا يفتخرون بأصولهم مشيرين إلى بني إسرائيل ورسلمهم إلا في الفترات العصيبة من الجدل وذلك بتصرف لا إرادي أو لتقليد الشرفاء، الفئة المميزة في المدينة رغم الصراعات. ومن جهة أخرى هناك حالات معروفة لبعض المهاجرين والأندلسيين "المتشرفة" أي أنهم ينحدرون من أصول شريفة أو يظهرهم أصولاً زائفة (Pedigrée) (57).

وحسب القادري، فإن مؤلف ميارة وبالأخص مؤلف بن زكري انتقداً بشكل كبير من طرف "الشيوخ" المعاصرين وأثاراً زوبعة كبيرة (58). ويؤكد الأستاذ محمد حجي بأن الأعداء كانوا يدفعون الدهماء للتجول في الأسواق وهم حاملين كتاب "النصيحة" ومستهزئين من مؤلفه ومن أصوله (59).

ويصرح القادري - وكتابات غير معاصرة للأحداث - بأن ميارة وبن زكري كانا يغاليان عندما كانا ينتقدان العرب وليس بأي حال من الأحوال التقرييق بين العرب والعجم حسب القانون وبالتالي فتعصب أعداءهم ليس فيه شك، وإن التمييز بين المسلمين غير مقبول كيفما كان مصدره.

وسيعود أحمد بناني أحد الإسلاميين الفاسيين (المتوفى عام 1818) لتناول هذه الدلائل من جديد ومناقشة هذه الكتابات الجدلية السابقة وذلك في كتابه "التحلية" (60). وكسابقه (ميارة وبن زكري) فقد حاول بناني البحث عن نوع من الطباق يسوده التعظيم بالأصول وبدوره سيعمل على الرفع من قيمة "سب بني إسرائيل"، فبرأيه فهم ينحدرون من إبراهيم شأنهم في ذلك شأن بني إسماعيل الذين يضمنون أنبياء ضمن سلالتهم (61). ويقر بسمو "العرب" على "العجم" على الأقل بالنسبة لبعض المجموعات العرقية نظراً لقربهم من سلالة الرسول وبالتالي فبنوا إسرائيل هم أعلى شأنًا من العرب القحطانيين لأنهم أقرب من نسب محمد.

ويضيف أحمد بناني بأن الكرم والشرف لا يرتبطان فقط بالنسب أو بالمجموعة التي ينتمي إليها الفرد ولكن بقيمته الشخصية وبعلمه واحترامه لتعاليم

الإسلام ويؤكد بأن الكرم يتجذر في طبيعته الخاصة "بالعمل الصالح، وبالنسب الصالح، وبصلاة الفرائض".

أما على مستوى الأنساب فإن الأبناء يمكن أن يشرفوا أو يعظموا آباءهم في نفس الوقت الذي يمكن فيه للآباء أن يعظموا أبناءهم (62). ثم يستعيد ثانية نفس دلائل ميارة ضد الأندلسيين. إن تضخم "أعلاميات" هؤلاء والتي كان الهدف منها استنكار الأصول والهجرة العائلية، هو مشين بالنسبة للبلديين، أهل فاس الذين يعوزهم النسب. ويصرح أحمد بناني بأن أنساب إشبيلية وطليلة ومالقا ورندا وغرناطة وبلنسية ليست محط احترام لأنها ليست متجذرة في الإسلام (63).

لكن الشيء المثير في كتاب "التحلية" هو أنه في نهاية القرن 18م ظلت هذه الدلائل سارية المفعول، وإن هذه القضية ظلت مهمة وحيوية، وهو دليل قاطع على أن التمييز الاجتماعي إزاء "البلديين" ما زال قائما.

على أي فإن نصوص ميارة وبناني تدفعنا إلى استنتاج أنه إذا كان الصراع الاقتصادي قد استعمل ضد الشرفاء وضد مصالحيهم وهيمنتهم على بعض القطاعات الاقتصادية، على العكس من ذلك فإن النزاع حول الأصول قد استعمل خاصة ضد الأندلسيين (لم يكن هناك سوى عدد قليل من التجار الأندلسيين).

لقد كانت للسلالة وللنسب الشريف أكثر من مكانة، جعلهما من الأمور المحبوبة والمرغوب فيها. يندرج الجدل الذي أثاره "البلديون" فيما تسميه الأسطغرافية الاستعمارية الفرنسية بـ"أزمة الزوايا" واكتسب معنى خاصا على

ضوء التأويل التي قدمها Clifford Geertz لهذه الأزمة في كتابه: « islam abserved, religious development in Marocco and Indonesia », Chicago – Londres, 1968.

فقد شهد القرن XVII حسب Geertz، نوعا من الاستقرار الاجتماعي والثقافي لحركة الزوايا بالمغرب والتي نتجت عن اندماج التصور السلالي للولاية مع ذلك الذي ترخص به المعجزات. فبالنسبة لهذا الباحث فإن وصول الأسر الشريفة

للسلطة وخاصة أسرة العلويين، يمثل هيمنة "المنظور السلالي المرتكز على البركة، القائمة هي الأخرى على المعجزة، ورغم كون الزوايا غالباً ما ترافقها المعجزات، فهي تنتقل بشكل ملائم عن طريق الوراثة" (Geertz, op. cit., p.45).

وأمام بزوغ المبدأ التناوبي للولاية والصالح أو المبدأ التناوبي لشرعية الحكم، فإن "البلديين" سيعملون على إعطاء قيمة لمبدأ القيم عن طريق ممارسة شعائر الدين والقيام بأعمال البر. ومع ذلك فإن مفهوم "السلالة" حظي بمكانة مهمة إلى حد أنهم لم يتمكنوا من فرض قرائنهم وبالتالي اضطروا إلى الأخذ بعين الاعتبار بالمبادئ النظرية لخصومهم ليتوصلوا إلى حجج دامغة يدافعون بها عن أصولهم الشريفة (الانحدار من سلالة الرسول أو التقليل من أصول خصومهم الأندلسيون).

إن جاك بيرك في المقال الذي سبق أن أشرنا له في بداية هذا العمل، أشار إلى التزامن بين اللحظة التي حدث فيها هذا الجدل (بداية XVII) وبين وصول المورسكيين المطرودين من إسبانيا إلى بلاد المغرب. ويقترح بأن الشعور بفكرة "صفاء الدم" هي من سمات المجتمع المتعدد الإثنيات، والتي عاشها المورسكيون وعانوا منها، إذ نقلوها إلى مجتمعات الاستقبال.

إن الفكرة مثيرة في حد ذاتها ولكنها قليلة الاحتمال، فالمورسكيون عند وصولهم إلى المغرب سنة 1610، كانوا في الغالب من الفئات الدنيا من المجتمع وعلى مستوى أدنى من الثقافة بل يجهلون حتى اللغة العربية، ولم يحسن المغاربة استقبالهم حيث استقروا خاصة على الساحل، ويبدو من الصعب قبول فكرة تأثيرهم الآتي على الثقافة والإيديولوجية المصطنعة للمجتمع الفاسي. وكما رأينا فإن مسألة الأصول كانت مهمة في فاس منذ القرن XV وظلت قائمة إن كانت بشكل غير حاد. إن الذي ميز الأندلسيين المهاجرين إلى المغرب طيلة القرنين XV - XVI هي أنفتهم وفخرهم بنبل شرفهم وهو انشغال يقتسمونه مع باقي سكان شبه الجزيرة الإيبيرية الذين كانوا مهووسين طيلة هذين القرنين بمفاهيم الأصل والسلالة وصفاء الدم، ولم

تكن هذه هي الخاصية الثقافية الوحيدة المشتركة بين المسلمين والمسيحيين في شبه الجزيرة. وقد وجدت هذه الوسوس مجالا خصبا في فاس مع صعود نخبة اقتصادية وسياسية من الشرفاء وهذا لا يعني ان الأندلسيين لم تطلبهم خصومة وعداوة باقي الفرقاء الاجتماعيين وهذا إلى حد أن الافتخار بوطنهم آلام وصف بالحاد والزندقة.(64).

إن أسس النفوذ في فاس لها جنور في أسطورة الأصول (أصل عربي، أصل شريف) وهي أسطورة استعملت هنا كعنصر للدعاية في سياق سوسيو-سياسي من الصراعات العرقية، من طرف الفئة المهيمنة. وكان النظام الاجتماعي في الأندلس يتحكم فيه تقسيم اثني (عرب، إيبيريون، رومان، بربر ويهود) وكل عرق كانت له مكانة في مجتمع مهيكلا ولا يسمح إلا بقليل من الحركة. وكنتيجة لهذا فإن أسطورة الأصول أو أساس النفوذ حول الأصول كان له دور كبير كما يجب أن يكون في مجتمع مكون من مجموعات إثنية مختلفة ومرتتبة، مجتمع مقسم أفقيا أكثر مما هو عمودي(65). وهذا هو حال إسبانيا المسيحية في القرون الحديثة الأولى حيث أول هيكلها في إطار منظومة من "الطبقات" ذات الأصول العرقية - الدينية(66).

ويمكن أن نفسر الاهتمام بنفس القضايا في كل من فاس وشبه الجزيرة الإيبيرية بالخصائص المشتركة التي ألفت بين هيكله هذه المجتمعات. لكن إذا كانت قضية الأصول تعلق التمييز الاجتماعي وتعمل كأداة للدعاية للمجموعة المهنية اقتصاديا وسياسيا، فإن نفس القضية لا يمكن أن تعلق التمييز القانوني. وبالعودة إلى الجدل وخاصة في كتاب "الذكر" المليء بالأحداث ذات دلالة وبنماذج تحقيرية الهدف منها تبيان كون المسلمين نوي الأصول اليهودية هم أناس مرتشون ومحتالون ومتآمرون على الإسلام. وحسب أقوال جاك بيرك "فإن هذه الأحداث تتطابق مع أسطورة التمييز التي ادعتها أغلبية لتفرض نوعا من الهيمنة الاقتصادية"(67) وهيمنة بعض المهن التي تعتبر من المهن النبيلة والمربحة.

وبأنه لا يمكن الادعاء بالتميز الطبقي بصورة قانونية، فإنه يتم اللجوء لبعض القرائن المستوحاة من الماضي البعيد، "لقد سمعوا عن آبائهم وعن أجدادهم" حول الخاصية الأخلاقية لقطاع من الهيكل الحضري وذلك في وجه اتجاهات رجال القانون المدافعين عن المساواة في ممارسة الأنشطة الاقتصادية مع إبداء نوع من التحفظ إزاء هذه المسألة.

إن الصراع من أجل الاستحواذ على القيسارية الذي بدأ مع القرن XV ، وعلى قطاع حيوي، هو تجارة الأثواب النفيسة وأثواب الاستيراد، قد تأرجح كلما زاد استعمال هذه الأثواب وزاد حجم الاستيراد الأوروبي.

وابتداء من منتصف القرن XVII وبالضبط مع انتقال السلطة للأسرة العلوية، ورغم استمرار بعض الممارسات العنصرية بشكل رمزي (68)، فإن المسلمين من أصل يهودي سيلعبون دورا كبيرا في حياة المدينة (69) في الوقت الذي قل فيه دور الشرفاء. استمرت الصراعات والنزاعات ولكن بشكل خفي وحاولت السلطة المركزية - كما في باقي الفترات - تأجيلها أحيانا من أجل تكسير هذه الجبهة المعادية في المدينة. وهذا حال المولى إسماعيل الذي أرسل رسالة سنة (1130هـ / 1718م) إلى أهل فاس يطلب منهم المساعدة من أجل تجنيد فرق وبالمناسبة أشار إلى تفوق المسلمين الجدد من أصل يهودي الذين كانوا يسمون آنذاك "بالبلديين" وحاول إثارة أهل فاس ضدهم : " إن الأندلسيين واللمطيين هم بحق أهل فاس الفعليون أما الآخرون فليسوا سوى "نجاجا أبيض" هذا دون الحديث عن آخرين دون أهمية مثل "البلديين" إنكم اليوم اصبحتم صامتين وتخفون رؤوسكم، وعدتم إلى حرفكم وزراعتكم وتركتم اتخاذ المبادرات للبلديين. كم منكم يزرع حقلًا مقداره 400 أو 600 متقالا ليبيعه بعد ذلك للبلديين ! لقد قبلتم بوضعية الخنوع والجمود والإهانة ..."(70).

كان المولى إسماعيل متميزا هذا إضافة إلى أسبابه الشخصية التي دفعته لمقت "البلديين" نظرا لدورهم في الجدل القائم حول موضوع الحراطين في فاس،

هذه القضية (التي لن نتناولها الآن) ظهرت للواجهة لما حاول السلطان تجنيد كل حراطين فاس بالقوة لكنه لقي معارضة كل مكونات المدينة وعلى رأسهم العلماء الذين استندوا في ذلك إلى دلائل قانونية ودينية.

اتخذ السلطان القرار التالي: بما أن الحراطين هم عبيد، يمكن أن يتصرف فيهم كما شاء، إلا أن العلماء في فاس أكدوا على أنه بالرغم من أصولهم، فإنهم ولدوا أحرارا، ومعاملة المسلمين الأحرار كعبيد يحرمه الشرع. وقد كان على رأس العلماء المدافعين عن قضية الحراطين، أحد البلديين، المسمى ، سيدي عبد السلام جسوس الذي أصدر فتوى في هذا الموضوع وعارض السلطان شخصيا في مناسبة ظلت خالدة. وقد زج به في السجن بمكناس وحكم عليه بالإعدام بأمر من السلطان سنة 1708 (71).

إن يتعلق الأمر من جديد بمدينة فاس بقضية الأصول وبمسألة التمييز بين المسلمين وليس غريبا أن يتزعم أحد البلديين هذا الصراع حتى وإن غامر بحياته وأن يجسد هذه الحركة الدفاعية ويعبر عن "المواطنة" الفاسية.

البلديون : شريحة اجتماعية

لقد تضمنت المصادر الأوروبية المعاصرة إشارات متعددة حول هذه الفئة الاجتماعية التي ظهرت في فاس خلال قرون خلت وخاصة في مصادر القرنين 17 و18م والتي تزامن تفوق وهيمنة هذه الفئة اقتصاديا واجتماعيا. فقليل ما أغفل المسافر أو السفير أو الأسير في كتاباته حول المغرب، الحديث عن هذا الموضوع (72) فعلى سبيل المثال نشير هنا إلى ما كتبه القنصل شنيي "توجد بين الماوريين واليهود المشكلين للسكان المغربية، طبقة وسطى، وأعني بها طبقة المرتدين الذين انسلخوا عن دينهم لاتباع دين محمد، ضمن هؤلاء الرعايا يوجد عدد كبير من اليهود الذين لم يعرهم الماوريون أي أهمية ونفس السلوك عبر عنه اليهود إزاء هؤلاء. فالمرتدون لا يتحالفون إلا فيما بينهم فكما في إسبانيا، فالمسيحي

الأصيل لا يزوج ابنته من مسيحي مهتد إلى الدين الجديد. كما أن الموري من أصول قديمة لا يرغب في المصاهرة مع المرتد.

كان عدد العائلات اليهودية المرتدة كبيرا حيث كانوا يسمون بالتورناديس (Tournadis) وهم غير مختلطين بالموريين ولم يندس منهم... (73).

إن مصطلح "تورنادي" ليس إلا الكلمة القشتالية "Tornadizo" حسب شنيبي والتي استعملت في إسبانيا خلال هذه الفترة للدلالة على الاحتقار الذي طال المرتدين وخاصة اليهود منهم.

إن استعمال هذا المصطلح الإسباني التحقيري في مدينة فاس إزاء هذه المجموعة من المسلمين له أهميته، ووجود هذا المشكل المتعلق باليهود الذين أسلموا (رغم البعد والخاصية المختلفتين) في ضفتي المضيق في نفس الفترة، كان بديهيًا بالنسبة لبعض معاصريه. وكيفما كان الحال فإن الحقد الذي يكنه المسلمون الأصليون إزاء هؤلاء المسلمين الجدد - حسب المصادر الأوروبية - ليس إلا إسقاطا لمشاعرهم الشخصية، ولا يمكن أخذه بحذافره. ونفس هذا الحقد إزاء المرتدين، شعر به أفراد الجالية اليهودية ذات الأصل الإسباني بالمغرب، التي أحست بدون شك بمسألة الردة (لا يوجد أي "بلدي" أو "مهاجر" من أصل إسباني) والتي ربما هي التي أدخلت هذا المصطلح (Tornadizo).

وهناك قضايا أخرى تحدث عنها شنيبي وأكثتها العديد من المصادر، وخاصة زواج الأقارب، أو السكن في حي واحد في المدينة (فندق اليهود) والتي تساهم في خلق جو من الوئام بين أفراد "البلديين" وتبين استمرارية أسماء بعض العائلات في المدينة على مدى قرون والتي سنتحدث عنها بعد حين.

إن التحام الجماعة يعضده نوع من التعاون الداخلي والذي تشير إليه العديد من المصادر (74)، فعلى المستوى الاقتصادي، لا يشكل المسلمون الجدد مجموعة متجانسة، فضمن فئة الحرفيين نميز بين إسكافيين ومالكين لدكاكين (75)

في حين يتعدى عدد التجار الأغنياء النسبة العادية من بين المجموعات الحضرية الأخرى (76).

وبديهى أن لا يقبلوا هذا التمييز الاجتماعي الذي تختلف درجة حدته من فترة أخرى، ورغم محاولة البعض إخفاء أصوله أو البحث عن أصول أخرى، فيبدو أن الوسيلة التي اختارها البلديون الأغنياء للحصول على مكانة شرفية هي الدين والعلم، فهذه الفئة تضم بين أفرادها رجال قانون متميزين ومتقنين، ورجال دين، فهم حسب قول بناني "أهل الدين والعلم" (77). إن ابن سودة وكوركوس (78) وغيرهما، يقدمان لائحة مستفيضة عن أسماء العائلات الفاسية التي اشتهرت بالعلم والتجارة وهي من العائلات المسلمة - الجديدة - نذكر من بينها : عائلات: بنيس، بناني، لحو، جسوس، كنون، بن زكري، برادة، بن شقرون، بن زاكور، بن كوهين، ميارة، بن جلون وغيرها. فهذه العائلات وأخرى أقل أهمية، نجد لها نكرا في فاس منذ القرن XV وحتى قبل هذه الفترة، كما هو حال عائلة، علي بن الحاج بن شقرون، قائد القسبة في فاس على عهد السلطان المريني أبو الحسن المتوفى عام 772 (79). وعلى عهد محمد الشيخ عائلة ابن شقرون قائد الحرس في فاس (80).

تظهر أغلب هذه الأسماء في التقارير الاستعمارية الفرنسية التي تعود لبداية القرن، ضمن لائحة أكبر تجار رجال الأعمال في فاس (81). كما تضمنت المناقب السعدية والعلوية أسماء العديد من رجال التصوف والفقهاء والعلم (82)، فبيوغرافيتهم تحمل معلومات عن أنشطتهم الاقتصادية ("كان يملك مكانا في سوق العطارين") (83). ولا بد من الإشارة إلى وجود أحد "البلديين" الذي شغل منصب "أمير الركب" في موسم الحج السنوي إلى مكة وهو منصب مهم بالنسبة للعمليات التجارية المغربية الدولية (84).

إن كل هذه العائلات السابقة الذكر تضم شخصيات من رجال العلم والفقهاء لكن العائلة الأحسن تمثيلا هي عائلة بناني التي خلفت عددا من رجال الفقهاء، فالمعلمة الإسلامية (E.I) تتضمن أسماء سبعة فقهاء من هذه العائلة ما بين منتصف

القرن 18 وبداية 19م هذا دون احتساب سفير وولي في نفس الفترة (85). وقد استطاعت هذه الفئة أن تتبوأ مكانة اقتصادية وثقافية هامة رغم التمييز الذي طالتها وخاصة بعد وفاة المولى إسماعيل (1139هـ — / 1727م) وقد وجد البلديون الظروف الملائمة للظهور كقوة لها تأثيرها في المدينة على حساب الشرفاء وبعض الزوايا. وقد استطاعوا في النهاية أن يؤثروا سياسيا إذ أن أحد أفراد هذه الفئة وهو الطاهر بن جلون سيلعب دورا متميزا في الثورة ضد السلطان المولى سليمان سنة 1235 - 1236هـ / 1819 - 1820م (86).

المواشر:

- 1 — ليس هناك تقريبا أي دراسة تغطي فترة تمتد من الفترة المرينية التي درسها لوتورنو « Fès in The age of The Meindes oklahoma, 1961 والفترة التي سبقت الحماية والتي درسها نفس المؤلف: Fès avant le Protectorat, étude économique et sociale d'une ville de l'occident musulman, Casablanca 1949 . لم أتمكن من الاطلاع (بالنسبة لهذا المقال) على أطروحة أ. محمد مزين، فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549 - 1637 ، في مجلدين وهو من منشورات كلية الآداب - الرباط 1986. وسوف تتم الإشارة في الصفحات المقبلة للمقالات الجيدة للباحث : Cigar + une lettre inédite de my Smaïl au gens de Fès, H.T V, 1974, p. 105-118.
+ Société et vie politique à Fès sous les premiers alwites (1660-1830), H.T, VIII, 1978 - 79 , p. 93 - 172.
+ Conflit and Community in an urban milieu ander the Alawis, Maghreb Review 3, 1978 , p.3 - 13.
+ Socio. Economic structures and the development of an urban Dourgoisie in pré-colonial Morocco, Maghreb Review, 6, 1981, pp. 55 - 76.
وستتاح لي الفرصة للإشارة للباحث J.S.Gerber
- Jewish society in Fés (1450 - 1700) Studies in communal and economic life, leiden 1980.
- 2 — M. Kably, Socoété, pouvoir et Religion au Maroc à la fin du moyen - âge, Paris, 1986, p. 293.
- 3 — إنني بصدد تهيئ منوغرافية حولهم أنظر على سبيل المثال:
Les Andalusies enel ejercito sâdi : un intento de golpe de estado contre Ahmed el Monsour el-Dahbi (1578), Al qantara, V, 1984, 169 - 202.
- 4 — "إسلامي": هو الاسم العادي بالنسبة لليهود الذين أسلموا، أما "مهاجرون" هم الذين هاجروا وهو اسم تحقيري أعطاه اليهود في فاس لرفقاهم الذين أسلموا. أما مصطلح "بلدي" الذي ظل مستعملا فهو أكثر

- شرعية . وقد أدمج بن سوادة في مقاله حول العائلات الفاسية - اسم "البلديين" تحت اسم "أهل فاس"، أنظر
مجلة البحث العلمي ، عدد ، 22 ، 1973 (عدد 23 - 1974) - (عدد 25 - 1976).
- 5 N. Cigar , H.T. , 1978 - 79, op. cit.
- 6 أنظر بن سوادة، دليل مورخ المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1960 ، المجلد I ، ص. 116.
- 7 ليفي بروفنصال، مورخو الشرفاء بباريس 1922 ، ص. 258 ؛ ابن سوادة، دليل ... ، المجلد I ، ص. 111.
- 8 ابن سوادة، دليل، المجلد I ، ص. 84 أقدم شكري للأستاذ Cigar الذي مكنتني من استعمال الميكروفيلم
بالنسبة لهاتين النسختين، وهناك مصادر أخرى حول البلديين لم أتمكن من الاطلاع عليها: "نتيجة الاختصار
من دساتر الانتصار" لعبد الحفيظ بن المحذوب الفاسي (المتوفى 1295 / 1878)، يوجد هذا المخطوط
بالمكتبة الزيدانية بمكناس والتي اشتريتها الخزانة الملكية لكنني لم أجد هذا المخطوط بهذه الخزانة. وحسب
بروفنصال (مورخو الشرفاء) ص. 378 فقد ألف عمر بن الطاهر بن إدريس الكفاني (متوفى 1309 /
1891 - 1892) كتابا حول العائلات الفاسية التي أسلمت "تأليف في من أسلم من أهل فاس".
- 9 S.W. Baron, Social and Religions History of the Jews, N.york 1975, Vol.III, p. 96,111.
- 10 أنظر على سبيل المثال:
- * Goldziher, Saïd ibn Hasan d'Aleandrie, R.E.J 30, 1895, p.1 - 25.
- * Weston (S.A) , J.A.O.S, 24, 1903, p. 213 - 383 أو
- * Perlmann (R.M), Abd-al-Haqq al-islami, a Jewish couvert, Jewish
quarterly Review, 3,1940 -41, p.171 - 191.
- حول الإسلاميين من مدينة سبتة
- * Stilmann (N.A) the Jews of arab lands philadelphia, 1979, p. 229-232.
- الذي أعاد نشر بيوغرافية أحد اليهود الذي أسلموا وهو راهب من فاس خلال القرن XII ، وهي شهادة حية.
- 11 H.Z. Hirschberg, A histouy of the Jews in North Africa (Leiden 1974), Voll, p.191 . يوجد في بلاد المغرب، تقليد تاريخي يتعلق بقبائل بربرية يهودية :
- H.Z. Hirschberg, The problem of the Judaized berbers, J.Af.H , IV, 3 , 1963,p.329.
- Norris, (H.T), Sahara myth and Saga, Oxford 1972, p.48 et 99, infra n°12.
- إن المشكلة في المغرب وإسبانيا الإسلامية وانعكاساتها على الطبقات الحرفية والتجارية، تناولتها باقتضاب:
Shatzmillar "Profession and Ethnjc origin of urban Labourers in Muslim spaïn :
Evidance from a Moroccan Source", Awraq, 5-6, 1982, p.149 -160.
- وحول الأندلس أنظر:
- Chalmeta, Le passage à l'islam dans Al-Andalus du X°, Actas del XII Congresso de
la V.E. A.I, Malaga, 1984 الذي ترجم وثيقة تخص أحد اليهود الذين أسلموا.
- حول الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع أنظر:
- Bulliet (R), Conversion to Islam in the Medieval period, Londres, 1979.
- N. Levtzion, Conversion to islam , N.york, 1979.
- لكنها تتناول بشكل واضح قضية اليهود - ورغم أن الحالات المتعلقة بدخول اليهود للإسلام كثيرة في بلاد
المغرب والتي توجد بشأنها وثائق متعددة، فإن هناك حالات كيفية في الشرق.

- N.A. Stilmann, the Jews of arab lands, p. 247.
- N.A. Stilman, Forced conversion of the Jews of Aden, p. 249.
- 12 أنظر على سبيل المثال: الونشريسي، المعيار، II، ص. 354.
- 13 يتحدث Diego de Haedo عن تجار الجزائر في ص. 93 وعن الممارسات التي كان يتعرض لها اليهود، ص. 113.
- Topografia e historia general de Argel (Valladobil) 1602, reedit, Madrid 1927.
 - L. del Marmol, Description general de Africa, Granada, 1573, I, 11, 160, II, 217
 - F. San Juan del Puerto, Mission historial de Marrocos, Sevilla, 1708, p.37.
 - Jeronimo de Mendoça, Jornada de Africa, Lisboa, 1607, II, p. 65.
 - G. Gomez de Losada, Escuela de Trabajos en Cuatro libros dividida, Madrid, 1607, p.237-238.
- Hirschberg, A history of the Jews in N. Africa, I, 193 –196. — 14
- 15 في الواقع هناك ترخيص على مستوى الهجرة والتمييز على مستوى اللباس (giyàr) بالنسبة لأولئك الذين لم يهاجروا أو لم يقبلوا بالإسلام ديناً.
- De Corcos, the attitude of the Almohadic rulers, Jowards the Jews, Zion XXXII, 1976, p.123-160. Inclus dans Studies in the history of the Jew of Morocco, Jerusalem 1976.
 - Halkim (A), Letoldot ha-shmad be-yeme ha-almowahidun, the Joshua stan Memorial volume (N.York, 1953, p.101-110.
 - N. Roth, Some aspects of Muslim-Jewish relations in Spain ». Estudios en Homenaje a.D. claudio Sanchez Albornoz, Anejos de cuadernos deHistoria de Espana, Vol II / Buenos-Aires 1983) p. 179 – 214.
- J.S. Gerber, op. cit., note (I) p. 24.: أنظر — 16
- 17 أبو محمد عبد الواحد المراكشي، كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب" نشر R.Dozy (الطبعة الثانية امستردام 1968) ص.223. الترجمة الإسبانية — A. Huici, Tetouan 1955, p. 251.
- Hirschberg,...op. cit. , I , p. 356. — 18
- D. Corcos , the Jews of Morrocco under the Merinids, studies in the history of the Jews of Morocco (Jerusalem 1976)p.54. — 19
- 20 أنظر على وجه الخصوص رخصة الهجرة التي منحت سنة 1247 ليهود سجلماسة:
- J. Regné "Catalogue des actes deJaïmé I, Pedro III et Alphonse III, Rois d'Aragon Concernant les juifs (1213 – 1291) R.E.J, LXIV, 1912, docts n° 36 et 847.
 - D. Romano, « Conversion de Judios al Islam (Corana de Aragon, 1280 – 1284), Sefarad, XXXVI, 1976, p. 333 – 337. — 21
 - W.C. Stalls » Jewish Conversion to Islam : the perspective of à Quaestio" Rivista Espanola de Tealogia, vol 43, 1983, p. 235 – 251.
 - ch. Verlinden, L'esclavage dans l'Europe Médiévale, Vol. I, Bruges 1955, p.536.
- Hirschberg...op. cit. , vol. I, p. 370. — 22
- لم أمكن من الاطلاع على مقال:
- Shatzmiller, « An ethnic factor in a Medieval social revolution, the role of the Jewish courtiers under the Merinids" AZIZ Ahmad Fetschrift.

- لقد كانت هناك دون شك ضغوط من أجل دخول اليهود في الإسلام كما يشير إلى ذلك ابن مرزاق كـفـمـه
 من المؤرخين. Ibn Marzuk , « El Musnad » Hechos memorables de Abù-al Hasan de los benimerines, Etude, traduction espagnole et notes, M° Jesus Viguera (Madrid)
 1977,p.315.
- D. Corcos, « Jews of Morocco" Studies, p.58. — 23
- H. Terrasse, Histoire du Maroc, Vol II (Casablanca) 1950, p.30. — 24
- Hirschberg, op. cit., p. 389 et D. Corcos, Les Juifs du Maroc et leur mellahs, Studies, — 25
 p. 73 et suiv.
- J.Caille, la ville de Rabat, Paris 1949, I , p. 323 – 324. — 26
- Brunot, Topographie dialectale de Rabat, Hesperis 1930, p.10-11.
- Paquignon, « quelques documents sur la condition des Juifs au Maroc, Revue du
 Monde musulman, IX, 1909, p. 112 – 115.
- ابن السكاك، نصيح ملوك الإسلام، الطبعة المحررة، فاس، دون تاريخ، ص. 3 أنظر: — 27
- M. Kabley, Société , pouvoir Religion au Maroc...p.321.
 ويتحدث De Haeds عن نفس الشيء، الكتاب I ص. 167 ، أنظر كذلك:
- A. Sebti, sharifisme citadin, charisme et historiographie, A.E.S.C., 41, 2, 1986,
 p.433 – 451.
- إن جماعة المسلمين من أصل يهودي في مدينة فاس ستوسع مستقبلا كلما حلت كارثة بجماعة اليهود أنظر — 28
 على سبيل المثال: G. Vajda, un reweil de textes historiques judeo-marocain , Hesperis
 1948 et 1949.
- خلال الجماعة التي أتت على مدينة فاس خلال سنوات 163 – 1606، بلغ عدد الضحايا من اليهود حول
 3000 شخص وأكثر من 2000 ارتلوا (p.327, 1948). وخلال بجماعة 1723 ، ارتد حوالي ألف شخص
 من كل الأعمار (p.162, 1949).
- "الذكر" ص. 467 – 470. — 29
- "الذكر" ص. 471. — 30
- " " ص. 472. — 31
- تحويل الفلاس إلى الدرهم والعكس. مهن الحلاقة، الجزارة، بيع الحليب، النجارة، الخزارة، الدباغة، الصباغة، بيع
 خيوط القنب. داخل هذه الجمعيات المهنية، كان على المهاجرين الانخراط بشكل فردي.
- "الذكر" ص. 473. — 33
- M. Garcia – Arenal, the revolution of Fès in 869 / أنظر كذلك 474 – 473 ص. — 34
 1465... » B.S.O.A.S, XLI, 1978, p. 42 – 66.
- "الذكر" ، ص. 475. — 35
- ميارة، النصيحة، ص. 2 – 4. — 36
- "النصيحة" ، ص. 5 – 8. — 37
- "الذكر" ، ص. 476. — 38

- 39 — أحمد بن محمد الحباك (ص.10)، عبد الواحد الونشريسي (ص.11)، محمد الياستني(ص.11) عبد الوهاب الزقاق (ص.12) عبد الله محمد القري (ص.12) عبيد الله بن موسى بن هارون(ص.12) عبد الله محمد بن يحيى (ص.12)، عبد الرحمان بن بن أحمد الوقاق (ص.13)، عبد الله بن العافية (ص.13) أحمد التسولي (ص.13) أبو علي حرزوز (ص.17). كل هؤلاء يرجعون للقياس ويعتمدون على القرآن والحديث ويتحدثون عن شخص صديق للرسول هو عبد الله بن سلام وزوجته اليهودية من قبيلة بني قريضة، إن الاعتماد على القياس يمين ضعف القرارات القانونية حسب أعدا المهاجرين.
- 40 — النصيحة، ص.11.
- 41 — النصيحة، ص. 17 - 19.
- 42 — Michaux-Bellaire, - G. Salmon, « El Ksar el kebir", A.M.II, 1905, p. 224.
- 43 — يشيران إلى عائلات من أصول يهودية في مكناس، تشتغل في الزراعة، وأسلمت خلال Vie هـ، على يد سيدي بواحمد.
- 44 — ابن عسكر، دوحة الناشر، الترجمة الفرنسية. A.Graulle. « A.M, XI, 1913, p.96 »
- 45 — "الذكر" ص. 482.
- 46 — النصيحة ، ص. 25 - 27، محمد حجي، الحركة الفكرية في المغرب في للعهد السعودي، الرباط، 1976، ج.1، ص. 332.
- 47 — "الذكر" ص. 487، M. Fierro, El principio maliki « Sadd al -dhara"il », Al-qantara, 2, 1981, p.69-88.
- 48 — الإفرائي، نزهة الحادي، الترجمة الفرنسية، هوداس، باريس 1889، ص. 173 من النص العربي.
- 49 — أحمد بابا، نيل الابتهاج الذي نشر على هامش الديباج لابن فرحون (بيروت ، دون تاريخ)، ص. 263.
- 50 — "الذكر" ص. 489.
- 51 — إن السورة الذاتية لأبي عبد الله محمد بن أحمد ميارة (999 / 1591 - 1072 / 1661 - 1662) توجد ضمن كتاب "نشر المتاني" ترجمة ميشو بلير، الأرشيفات المغربية، عدد 24 ، 1917 ، ص. 123 - 126 وفي كسلب "سلوة الأنفاس" للكثاني، فاس، 1898 ، الجزء I ، ص. 165 - 167.
- 52 — أنظر محمد حجي، الحركة الفكرية، ص. 210 - محمد الطيب الدلائي ابن أخ السلطان محمد الحاج الدلائي كتب هو الآخر تقريرا للإشادة بعمارة ومولفه (مخطوط خ.ع. k.923) من خلال حجي، الحركة...، ص. 209.
- 53 — القادري، نشر المتاني (الخزانة الملكية بالرباط Ms. 1418) صفحات بدون ترقيم والتي لا تظهر لا في الطبعة الحجرية بفاس ولا في النص الذي نشره Cigar (لندن 1981) والذي استمدنا منه هذه الإشارة.
- 54 — النصيحة، ص. 48.
- 55 — النصيحة، ص.50.
- 56 — " ، ص. 51.

- 57 — هذه الحالة تتعلق بالأندلسي محمد الجعيدي، أنظر Cigar, Société et vie politique à Fès, p. 103 n°15 أو البلدي عبد الله محمد كتون حسب عبد الحفيظ الفاسي، الرياض المدهش، الرباط 1932، ص.50، ولنفس المؤلف، رياض الجنة، فاس، 1350، ص. 168.
- 58 — أنظر إحالات هامش (53).
- 59 — محمد حجي، الحركة الفكرية... ص.209.
- 60 — حسب الكتاني، سلوة الأنفاس، ج.1، ص.160، كتب أبو عبد الله محمد بن الحسن بناني (1194 / 1780 (وفاته) في "حماسة" عن أفكار ميارة وابن زكري وناقش عددا من القضايا وخاصة هيمنة العمم على العرب.
- 61 — بناني، التحلية، ص. 28 - 29.
- 62 — " " ، ص. 29 - 31.
- 63 — " " ، ص. 37 - 39.
- 64 — حسين مؤنس، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصراري ولم يهاجر لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي. Rivista del instituto Egipcio de Estudios islamicos, IV, Madrid, 1957, p. 129-191.
- 65 — - Shat zmillier, le mythe d'origine berbère, aspects historiographiques et sociaux, R.O.M.M, 35 , 1983 / 1, p.145 - 156.
- J.T, Monrol, the shu'ubiyya in Al- Andalus, Berkeley, 1970.
- 66 — Americo Castro, la realidad historica de Espanà Mexico 1945 et Espanà: حسب تأريخ en Su Historia. Cristianos, moros y Judios, réed. Barcalone 1983 - Voir aussi T.F. Glick, the Eshnic systemes of fremodern spain" Comparative stuparative Studies in Sociology, I, 1978, p.157 - 171.
- 67 — J. Berque, Des « Mananos » musulmans à Fès, p.131.
- 68 — كان للتجار - المسلمين الجدد - خلال القرن السابع عشر، علاقة تميزهم وهي وضع قطعة من درة لتدعيم دكاكينهم ويبدو أن هذه العلامة ظلت قائمة إلى حدود نهاية حكم المولى إسماعيل، أنظر "الذكر" ص. 491. غير أن المولى رشيد (1664 - 1672) هو السلطان العلوي الذي أعاد إدماج المهاجرين في القيسارية، فحسب "الذكر" ص. 482 قدم المهاجرون هدايا من ثياب الحرير وقطع ذهبية لفاطمة بنت أعراس التي توسطت لهم لدى السلطان وبينت له نواياهم.
- 69 — "الذكر" ص. 491.
- 70 — N. Cigar, une lettre inédite ... H.T. V, 1974, p. 117.
- 71 — - Aziz Abdallah Batran, the' ulama of fas, My Ismaïl and the issue of the Haratin of fàs » Slaves and Slavery in Muslim Africa, vol. II, the servile Estate. J.R. willis (ed). Londres 1985, p. 1-15, voir aussi, N. Cigar, socété et vie politique- , p.153-155 » le cas des Harràtin ».
- 72 — صرح مويظ في "وصفه لمدينة فاس البالي"، بأن المدينة أسست من قبل المولى إدريس الذي اشتهر بصلاحه فقد أرغم عددا كبيرا من اليهود على اعتناق الإسلام (S.I.N.M, France II, p.183).

- 73 - L. de Chenier, Recherches historiques sur les maures et Histoire de l'empire du Maroc (Paris, 1787) vol.II, p.130.
- 74 يتحدث صاحب "الذكر" ص. 487 عن حالة إسكافي "مهاجر" هو ابن طاري الذي لم يكن يشغل إلا أبناء مجموعته.
- 75 N. Cigar, Société et vie politique..., p. 108 note 33.
- 76 G. Mouette , Relation de la captivité du Sr. Mouette dans les Royaumes de Fès et de Maroc (Paris 1683) , p. 74. "يقول إن أغلب تجار فاس يهود مرتدون"
- J. Drumond Hay, Journal of an expedition to the cour of Marrocco in the year 1846 (Cambridge 1848) p.36. "يشير إلى عدد كبير من أسماء أهم تجار فاس، أغلبهم من جنس اليهود".
- 77 بناني، تحلية، ص. 41.
- 78 عبد السلام بن سودة، بيوتات فاس قديما وحديثا "البحث العلمي 22 - 25 ، 1973 - 1976.
- De Corcos, the Jewish of Marrocco under the Merinids, p. 62 - 63.
- 79 ابن القاضي، درة المجال، طبعة علوش، الرباط 1936 ، الجزء II ، ص. 445.
- 80 ابن عسكر، دوحة الناشر، الأرشيفات المغربية، عدد 19، 1913 ، ص. 166 - 167.
- Ch. René lederc, le Commerce et l'industrie à Fès, R.C. 1905, p. 229 - 252. — 81
- N. Cigar, « Socio-Economic structures and the development of an urban bourgeoisie in pré-colonial Morocco », p.70.
- 82 صلحاء متصوفة أمثال: أحمد بن عبد الغني بن شقرون - الكتاني، سلوة... فاس (1316 / 1898) ج. II، ص. 173. - عبد الوهاب التازي (متوفى عام 1029)، السلوة، ج. III ، ص. 42.
- محمد بن عبد الرحمان بن زكري (متوفى عام 1144) ، السلوة ، ج. I ، ص. 159.
- سيدي الصالح بناني (متوفى عام 1271) السلوة ، ج. I ، ص. 159.
- وفقها ورجال أدب أمثال:
- أبو نعيم رضوان بن عبد الله الجنوي الفاسي (متوفى 991) والذي كان يعد من أكبر العلماء المغاربة في عصره أنظر: Ben cheneb , idjaza ... p.23
- + عبد القادر الكوهن. levi Provençal, les Historiens des chorfan p. 340.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بنيس (متوفى 1213) صاحب "فهرسة" أنظر السلوة ، ج. I، ص. 204.
- محمد بن الحاج المدني كتون (متوفى 1302) صاحب "الدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة" ، السلوة، ج. II ، ص. 364.
- خلال القرن XIX نجد حتى بعض البلديين كانوا قضاة في فاس مثل عبد القادر بن شقرون، حميد بناني، وعبد العزيز بناني. N.Cigar, Conflit and Community in an urban milieu ...p.8 et 12.
- 83 كما هو الشأن بالنسبة لعبد الواحد بناني (السلوة I، ص. 273) أو الحاج عبد السلام برادة (السلوة I، ص. 185).
- 84 علي جسوس سنة 1113 ، محمد بن زاكور سنة 1175 - 1176 ، محمد بن حلون سنة 1213 وغيرهم.

E.Iz , art, J. Schacht. — 85

عين أحد أفراد أسرة بناني سفرا لسيدي محمد بن عبد الله في اسطامبول.

R. Lourido, Relaciones del'Alawi Sidi Med Ben Abdallah con el imperio turco, (1775 – 1790), H.T, Vol. XXIV, 1986, p. 231 – 272.

N.Cigar, Conflit and Community ... p.7. — 86

ملفات الأعداد المقبلة

- **التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب**
- **الأحزاب والتنظيمات السياسية**
الجدور والامتدادات (2)
- **مظاهر الخلل في تدبير وتسيير الشأن العام**
الواقع والتاريخ
- **نظيمة المخزن وأدوارها عبر تاريخ المغرب**





أمل

عدد 27
عدد 20



نظيمة الزوايا

صدر من منشورات أمل ويصدر قريباً

- * محمد الفلاح الطوي :
جامع القرويين والفكر السلفي
- * مجموعة من الأساتذة الباحثين :
بيان يناير 1944 بين مطلبية :
الاستقلال والديموقراطية
- * ألبير عياش
الحركة النقابية في المغرب الجزء الثاني
ترجمة : نور الدين سعودي
- * الفقيه المهدي الناصري
الرحلة الزاهرة في أحبار درعة العامرة
دراسة وتحقيق احمد البوزيدي
- * كينيت براون
موجز تاريخ سلا
ترجمة محمد حبيدة وأناس لعلو
- مصدر قريباً
- * ألبير عياش
التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية
ترجمة عبد العزيز بل الفايدة
- * نزهة برادة
الأنوثة في خطاب ابن عربي